المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة التعليم عن بعد
كلية الشريعة ـ الانتساب المطور

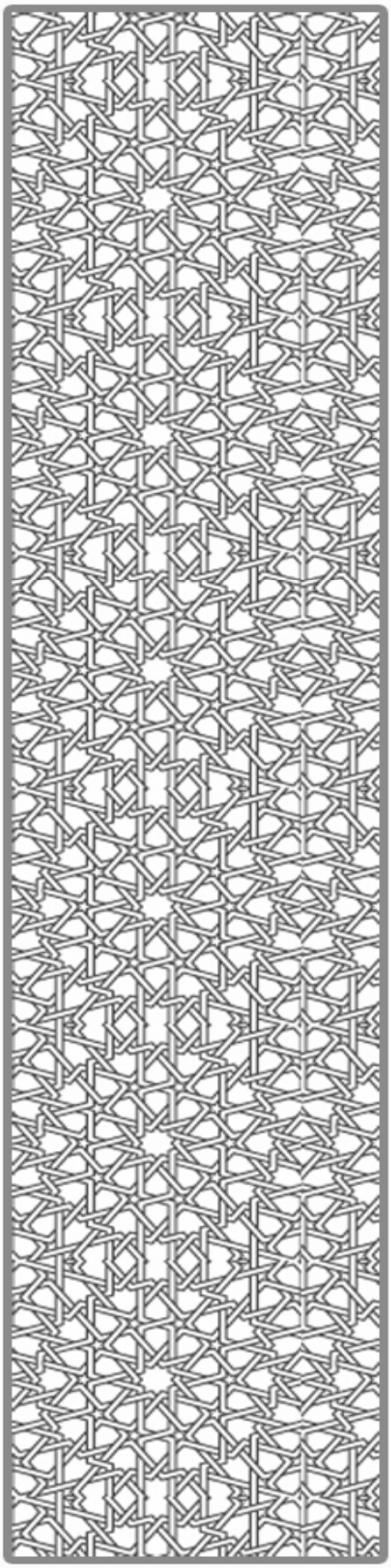

(عقد ١١٣)

مُقَرَّرُ التَّوحِيدِ

المستوى الثامن

أستاذ المقرر
د / حمد التويجري

(المذكرات تم تفريغها سماعًا من المحاضرات الصوتية)
إعداد طلاب وطالبات كلية الشريعة
انتساب مطور

طبعة منقحة و مزيدة
١٤٣٣هـ

(كتب الله أجر كل من عمل على إعدادها وجعلها له صدقة جارية)

﴿ تـقـديـم ﴾

هذه هي الطبعة النهائية لمذكرات كلية الشريعة انتساب مطور تعليم عن بعد
وقد اعتمدت بتوفيق من الله بعد أن تم تدقيقها أكثر من مرة
من قبل طلاب وطالبات كلية الشريعة انتساب مطور

ولأنها جهد بشري لا يخلو من الخطأ ولا يصل للكمال
فنرجو عند وجود خطأ أو ملاحظة
كتابة تنبيه في الموضوع المخصص لذلك في منتدى المستوى الخاص بالمذكرة
في منتدى مكتبة كلية الشريعة: www.imam8.com

وسوف يتم تصحيح الأخطاء بعد التنبيه عليها من قبل القائمين على إعداد المذكرات

ونسأل الله جزيل الثواب لكل من يعين على ذلك ويشاركنا فيه

(مجموعة إعداد مذكرات كلية الشريعة انتساب مطور)

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة (١)

الحمد الله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، اللّٰهُمَّ علمنا ما ينفعنا وأنفعنا بما علمتنا إنك أنت السميع العليم، يطيب لنا معاشر الأخوة والأخوات من الطــلاب والطالبات أن نبدأ محاضرات مادة العقيدة أو التوحيد بالمستوى الثامن في كلية الشريعة، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يسددنا في القول والعمل، والمنهج معاشر الأخوة مرتبطةٌ مفرداته بكتاب محدد، والكتاب الذي بين أيدينا وسندرس متنه سويًّا هي **العقيدة التدمرية** أو **القاعدة التدمرية**، هذا الكتاب الذي ألفه إمام من أئمة المسلمين، بل علمٌ من أعلام أهل السنة والجماعة؛ ألفه ناصر السنة وقامع البدعة الإمام الفحل المنافح عن عقيدة المسلمين وعن سنة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، هذا الإمام الذي بذل وقته وجهده بل وحياته في سبيل نشر هذه العقيدة الصحيحة، والوقوف في وجوه أهل البدع وأهل الضلال وأهل الانحراف، بل وأهل الملل من أهل الكفر والإلحاد، لعلكم عرفتم هذا الإمام الذي أصبح علمًا لا يُجهل، طبّق أسمه مشارق الأرض ومغاربها، جمَّل كتب العلماء بعده بتضمين أقواله واختياراته وترجيحاته، قلما تجد إمامًا كتب في أي فن من فنون الشريعة إلا ويذكر رأي هذا الإمام خاصةً في مجال الاعتقاد وفي مجال الفقه، هذا الإمام هو **أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي**، المولود سنة ٦٦١هـ والمتوفى سنة ٧٢٨هـ، عليه من الله شآبيب الرحمة والمغفرة، لا أقف طويلًا عند ترجمته فترجمته معروفة لديكم ولدى الآخرين، إنما أقف أمام هذا المتن الذي سيكون هو مدار رحى محاضرات هذا المستوى في مادة العقيدة؛ ألا وهي القاعدة التدمرية، ولهذا ينبغي لكل طالب وطالبة أن يكون المتن بين يديه ولن يستفيد من الشرح ولا من الإيضاح والبيان ما لم يكن الكتاب بين يديه؛ سنعتمد بشكل كبير على تحليل مفردات نص المؤلف وهذا الكتاب الذي بين أيدينا معاشر الأخوة والأخوات ما هو إلا قواعد، ولهذا كما سيأتي في موضوعه ليس موضوعه توحيد الأسماء والصفات فحسب، بل هو يُقعّد لتوحيد الأسماء والصفات ويُقعّد للتوحيد و الشرع، وأَعتبرُ كلامه في هذه القاعدة مفتاحًا لكلامه في عموم مسائل الاعتقاد، ولهذا إذا فهمتَ هذه القاعدة وأدركت معاني هذه الأصول وهذه القواعد التي ذكرها سُهل عليك معرفة كلام الشيخ وردوده في كتبه الأخرى. من أهم ما ينبغي ملاحظته أن نعرف معاني أسماء الإشارة والإشارات التي عنده في المتن.

المتن سمّي بالتدمرية، واختلفت عبارات العلماء في تحديد ضابط اسم هذا الكتاب، وهذا ليس ببدَعٍ في كتب الشيخ خاصةً فيما يتعلق في باب الاعتقاد، فقلما تجد كتابًا إلا وله أكثر من اسم والسبب في ذلك ذكره هو رحمه الله أو أشار إليه في مناظرة الواسطية حيث ذكر أنه لم يكتب في باب الاعتقاد حرفًا واحدًا ابتداءً؛ يعني ما ألف ابتداءً في عقيدة أهل السنّة والجماعة؛ لأنه كما يقول: هذا الباب أحكمه الأوائل وكتبوا فيه ما فيه كفاية، إذًا هذا التراث الضخم وهذه المؤلفات الكبيرة التي خلفها لنا هذا الأمام ما هي؟ يقول: وكلُّ ما كتبته في هذا الباب فهو إما ردٌّ على مبطلٍ أو إجابةٌ لسؤالٍ، ولهذا ما كان يضع عناوين لكتبه، لأنه إما ردود والردود ما يوضع لها عنوان، وإما إجابة لشخص أتاه وسأله -كما هي الحال في هذا الكتاب والمتن الذي بين أيدينا- فيكتب له جوابًا، وغالب العناوين الموجودة على هذه الكتب هي من اجتهادات تلاميذه ومن أتى بعده، ولهذا نجد الكتاب الواحد له أكثر من اسم.

لماذا سميّ هذا المتن بالتدمرية؟

الجواب: سمي نسبةً لبلد الذين سألوه، الكتاب عبارة عن إجابة لسؤال؛ جاءه مجموعة من الناس من بلاد تدمر في الشام فسألوه؛ فسُمّيت هذه القاعدة وهذا الكتاب باسم بلد الذين سألوه. وهذا أيضًا ليس بجديد فالحموية أصلها بسبب بلد الذين

سألوه من أهل حماه، والواسطية من أهل واسط، وهلم جرا، إذًا سميت التدمرية بهذا الاسم نسبةً إلى بلد الذين سألوا الشيخ وهي تدمر. نبدأ المتن على بركة الله، من أول الكتاب.

يقول: «قال الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام المفتي الأنام أوحد عصره وفريد دهره ناصر السنة وقامع البدعة تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين عبد الحليم بن الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن تيمية الحراني رضي الله عنه وأرضاه» هذه من ديباجة كتبها النُساخ ومن كتبوا القاعدة، إنما كلام الشيخ يبدأ من قوله:

يقول المؤلف: «الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليماً كثيرًا» ابتدأ الشيخ رحمه الله كتابه هذا أو جوابه هذا بخطبة الحاجة، وهي خطبةٌ مأثورةٌ رواها ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم وعند أحمد وغيرهما، لن نقف كثيرًا عند تحليل هذه الخطبة، إنما لنا وقفتان أو ثلاث وقفات:

المسألة الأولى: ابتدأ هذه الخطبة (بالحمد لله) فهل هناك فرق بين الحمد والشكر؟

هناك رأيان لأهل العلم:

منهم من قال: لا فرق بين الحمد والشكر، كل واحد ينوب عن الآخر.

الرأي الآخر: وهو الرأي الراجح -والله أعلم- أن الحمد والشكر بينهما عمومٌ وخصوص، فالحمد والشكر يجتمعان في الثناء باللسان على الله عز وجل، ويفترقان بحيث ينفرد الشكر أن يكون بالفعل بخلاف الحمد، وينفرد الحمد أنه يكونوا في غير مقابل النعمة، فهو المحمود على كل حال في السراء والضراء، الإنسان لا يشكر الله عز وجل إذا أصابته ضراء؛ لكن يحمد الله عز وجل على هذا الأمر، فإذا أصيب بمصيبة حمد الله، المحامد بخلاف الأمور التي تسُر الإنسان فهو يحمد الله عز وجل ويشكره عليها. إذًا الشكر لا يكون إلا في المحامد بخلاف الحمد فيكون في السراء والضراء، الشكر يكون بالفعل بخلاف الحمد فإنه لا يكون بالفعل إذًا بينهما خصوصٌ وعموم.

المسألة الثانية: متعلقة بخطبة الحاجة نلاحظ أنه قال «الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا» جاءت بصيغ الجمع الاستعانة والاستغفار والتعوذ، بخلاف الشهادة قال: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لم يقل: ونشهد أن لا إله إلا الله، ذكر شيخ الإسلام رحمه الله كما نقل عنه تلميذه ابن القيم نكتةٌ لطيفة في هذا الأمر؛ **أن الشهادة لا يُقبل فيها النيابة** فلا يتشهد أحدٌ عن أحد، ولهذا جاءت بصيغة الإفراد «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» بخلاف الاستغفار والاستعانة والاستعاذة، فنحن نقول: أعنّا وأعذنا وأغفر لنا؛ فيجوز في هذه الأشياء الإنابة، ينوب الشخص عن الشخص لهذا الأمر فجاءت في صيغة الجمع. الفرق الثاني: **أن الشهادة إخبار الإنسان عن نفسه** أنه يشهد أن لا إله إلا الله، ولا يمكن أن يخبر عن غيره أن هذا الأمر متعلق بالقلب، بخلاف الاستغفار والاستعانة والاستعاذة فهي إنشاء.

إذًا الفرق بين الاستعانة والاستعاذة والاستغفار والشهادة فرق في اللفظ وفرق في المعنى، فجاءت هذه بصيغة الإفراد وجاءت تلك بصيغة الجمع.

ثم قال المؤلف: «أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إجَابَتُهُمْ أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ؛ مِنْ الْكَلَامِ فِي (التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ) وَفِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ) لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إلَى تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ وَكَثْرَةِ الِاضْطِرَابِ فِيهِمَا. فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إلَيْهِمَا وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادِ لَا بُدَّ أَنْ يَخْطِرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا

يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ لَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ وَمَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ مِنْ الشُّبَهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ»

هذه الأسطر فيها عدة مسائل:

أولاً: قول المؤلف: «فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ» هذا هو سبب تأليف الرسالة، تعينت إجابتهم أي وجبت وجوبًا عينيًّا، معلوم أن الأحكام إما فرض عين أو فرض كفاية، الشيخ يقول هنا: من تعينت إجابتهم: أي وجب عليّ عينًا أن أجيبه، والسبب أنهم سألوه وعنده علم، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: فيما معناه من كتم علمًا ألجمه الله لجامًا من نار، فالشيخ هنا يقول: تعينت عليّ الإجابة أي وجب علي أن أجيبه.

المسائل في هذه الأسطر:

أولاً: ذكر الشيخ إجمالًا الأمور والأسباب الموجبة لتحقيق وإيضاح هذين الأصلين: (التوحيد والصفات) و(الشرع والقدر).

السبب الأول: «حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا» إلى هذين الأصلين، لماذا؟ لأنه لا يستقيم دين العبد إلا بتحقيقهما، هذا السبب الأول. حاجة كل مسلم، لا فرق بين المتعلم وغير المتعلم وبين الذكر والأنثى، إذًا هذا هو السبب الأول الموجب لتحقيق وإيضاح هذين الأصلين، حاجة كل أحد إليهما لتوقف سلامة عقيدة الإنسان وصحة دينه على سلامة هذين الأصلين.

السبب الثاني: يقول: «أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادِ: لَا بُدَّ أَنْ يَخْطِرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ -أهل النظر: المقصود بهم أهل الكلام، سموا بأهل النظر؛ لأنهم يوجبون النظر على كل مكلف، وأهل الإرادة والعبادة: يشير به إلى أهل التصوف، وأهل العلم: عموم الناس من أهل العلم- يَخْطِرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَوَاطِرِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ - بمعنى يعتريهم بعض الخواطر التي قد يلتبس فيها الحق على الباطل عليهم -إِلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ» في هذين الأصلين.

السبب الثالث: «كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ» بلا شك كما ستلاحظون أثناء صفحات هذا الكتاب كثرة فرق الأمة، وكثرة الآراء، وكثرة الاختلافات، في هاتين المسألتين ولهذا أشار الشيخ: «وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ» غالب من خاض في هذين الأصلين تخبط وحاد عن الصراط المستقيم.

السبب الرابع: «مَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ: مِنْ الشُّبَهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ» بسبب الخوف في هذين الأصلين، علقت بعض الشبه بالقلوب فأوقعتها في أنواع من الضلالات؛ لأن الشبهة إذا وقعت في القلب إن لم تُنتزع بالعلم الشرعي وبالحق وإلا صارت سببًا لضلال صاحبها. هذه المسألة الأولى المتعلقة بهذه الأسطر؛ الأمور والأسباب الموجبة لتحقيق وإيضاح هذين الأصلين، يعني الشيخ لما أطال الكلام في هذين الأصلين لم يطل الكلام عبثاً وإنما لهذه الأسباب الأربعة الأسباب المهمة التي لا يستغني عنهما مسلم.

المحاضرة (٢)

أخذنا في المحاضرة السابقة مقدمة عن الكتاب الذي هو موضوع هذا المستوى في مادة التوحيد الذي هو العقيدة التدمرية أو القاعدة التدمرية، أخذنا لمحة موجزة عن المؤلف وسبب التأليف، ثم بدأنا في قراءة المتن وأشرنا إلى بعض المسائل المتعلقة بخطبة الحاجة التي افتتح بها الشيخ كتابه هذا ، ثم ذكرنا بداية الكتاب في قوله:

«أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ ...» وذكرنا أن هذه الأسطر قد تعلق بها بعض المسائل:

[1] نقلنا المتن كما هو في الأعلى لأن الشيخ لم ينقله بدقة في المحاضرة

المسألة الأولى: الأمور والأسباب الموجبة لتحقيق وإيضاح هذين الأصلين، سبق الكلام عنها.

المسألة الثانية: أسباب تأليف الرسالة، النقطة السابقة حول الأسباب الموجبة لتحقيق هذين الأصلين، ما الأسباب التي دعت المؤلف أن يؤلف هذا الكتاب؟ أشار إليها إشارة واضحة في هذه الأسطر:

السبب الأول: سؤال بعض أهل العلم ممن تعينت إجابتهم، ولهذا قال: «فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ» هذا السبب الأول ، أنا كتبت هذه الرسالة لأسباب منها أولًا سؤال هؤلاء.

السبب الثاني: أهمية المسؤول عنه وحاجة الناس إليه، كتبت هذه الرسالة لأنها مهمة والناس محتاجون إليها أشد الحاجة.

السبب الثالث : اضطراب الناس في موضوعها الذي هو: (التوحيد والصفات والشرع والقدر) وكثرة من خاض فيهما.

السبب الرابع: ما يعتري القلوب من الشبه التي توقع في الضلالات .

**لاحظوا يوجد تداخل بينها وبين الأسباب الموجبة لتحقيق وإيضاح هذين الأصلين، لأن الأسباب الموجبة لتحقيق وإيضاح هذين الأصلين هي التي دعته لكتابة هذا الكتاب.

المسألة الثالثة: الذي يظهر أن الذين سألوا الشيخ كانوا من طلبة العلم وليسوا من العوام، فما الدليل على ذلك؟

هناك عدة ملاحظ نستنتج منها أن السائلين كانوا من طلبة العلم وليسوا من العامة:

الملحظ الأول: قول الشيخ: «فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ أَنْ أَكْتُبَ» أَنْ أَكْتُبَ: طلبهم من الشيخ أن يكتب لهم الجواب هذا يدل على أنهم من طلبة العلم، لأن غالبًا العامة يريد الجواب مختصرًا مشافهةً ، أما طالب العلم فلا، يريد أن يحتفظ بهذا الجواب، يريد أن يراجع هذا الجواب، يريد أن يبثه بين الناس مكتوبًا موثقًا، فهذا هو الدليل الأول على أن السائلين كانوا من طلبة العلم.

الملحظ الثاني: قول الشيخ: «مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ» فهذا يدل على أنهم كانوا يلازمون الشيخ في مجالسه، وغالب من يلازم المشايخ في دروسهم وحلقاتهم هم طلبة العلم وليسوا العوام، قد يوجد من العوام من يحضر مجالس العلم لكن هذا ليس هو الغالب.

الملحظ الثالث: تحديد السؤال ودقته، السؤال يلاحَظ أنهم سألوا عن (التوحيد والصفات) و(الشرع والقدر) ، دليل على أن السائل طالب علم، ولهذا أحيانًا تستنتج ويستنتج العالم وطالب العلم والمفتي يستنتج من السؤال حال السائل، ولهذا قد تلاحظون الآن في فتاوى بعض العلماء حفظهم الله أنه أحيانًا يفصل في السؤال ويذكر الأدلة وأحيانًا يذكر الإجابة مختصرة، لماذا ؟ لأنه أحيانًا يستلمح من السؤال من ذات السؤال (من صيغة السؤال) (من عرض السؤال) أن صاحبه طالب علم، وطالب العلم يحتاج إلى التفصيل ، فدقة السؤال وعرض السؤال يلمح عن حال السائل.

الملحظ الرابع: الذي يدل على أن السائلين كانوا من طلبة العلم مضمون إجابة الشيخ، فلو لم يكن هؤلاء من طلبة العلم وكانوا من العوام لأجابهم الشيخ إجابة مختصرة واضحة، لكن لما فصل في هذا الكتاب وذكر القواعد وذكر الفِرَق دل على أن السائلين من طلبة العلم وأنهم يحتاجون لمثل هذا التفصيل.

المسألة الرابعة: موضوع الرسالة أو موضوع الكتاب أيضًا ذكره في هذه الأسطر وهي قوله: «الْكَلَامِ فِي (التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ) وَفِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ)» هذا هو موضوع الرسالة، من أولها إلى آخرها تدور حول هذين الأصلين، ولهذا الشيخ في الكتاب في واقع الأمر هو لا يذكر عقيدة أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات وفي الشرع والقدر فحسب، لا، بل يذكر قواعد أهل السنة والجماعة في هذين الأصلين، وقواعد الرد على المخالفين لأهل السنة في هذين الأصلين، فموضوع الرسالة أشار إليه؛ بقوله: «فِي (التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ) وَفِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ)».

قوله: «فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ ...» يلاحظ أن خبر (إن) هنا محذوف تقديره: (فلم يحصل لهما من الاهتمام مع ما لهما من الأهمية) يمكن أن يقدر الخبر بهذه الصيغة لأجل أن يؤدي الكلام إلى الفائدة المطلوبة.

بعد ذلك انتقل الشيخ إلى ذكر الفروق بين هذين الأصلين اللذان هما موضوع الكتاب بينهما فروق متعددة:

يقول المؤلف: «فَالْكَلَامُ فِي بَابِ (التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ): هُوَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْكَلَامُ فِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ): هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ الدَّائِرُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؛ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْحَضِّ وَالْمَنْعِ؛ حَتَّى إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوْعِ وَبَيْنَ النَّوْعِ الْآخَرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمَعْرُوفٌ عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِ الْأَيْمَانِ وَكَمَا ذَكَرَهُ الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلَامِ؛ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ، فَذَكَرُوا أَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ»

إذًا، هذا هو الفرق الأول بين الشرع والقدر وبين التوحيد والصفات.

*الفرق الأول: من ناحية نوع الكلام، الكلام في باب (التوحيد والصفات) من باب الخبر، والكلام في (الشرع والقدر) من باب الإنشاء، فكلام العرب ينقسم إلى قسمين: إما خبر أو إنشاء، ما الفرق بين الخبر والإنشاء؟ الشيخ يقول: هذا معروف عند الناس يفرقون بين الخبر والإنشاء، الخبر إما أن يكون منفيًا أو مثبتًا، مثال ذلك: (زيد قائم) أنا الآن أثبتُّ أن زيدًا قائم، هذا خبر مُثبت، (نزل المطر) هذا خبر مُثبت، المنفي: (لم يقم زيد) (لم ينزل المطر) هذا خبر منفي.

إذًا الكلام في التوحيد والصفات هو من باب الخبر، فإذا قلت: (الله مستوٍ على عرشه) هذا خبر إثبات، وإذا قال المعطل: (الله لم يستو على عرشه) هذا نفي. ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ هذا نفي صفة السنة والنوم، خبر ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ خبر مثبت، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ خبر منفي.

ولهذا قال: «فَالْكَلَامُ فِي بَابِ (التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ): هُوَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ - الخبر إما أن يكون منفيًا أو يكون مثبتًا - وَالْكَلَامُ فِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ): هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ الدَّائِرُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا - يعني غاية الأمر نهاية الأمر إما أن يفعله الإنسان أو لا يفعله، لكن هو في نوع الكلام من باب الإنشاء: اذهب، اخرج، ذاكر دروسك؛ إنشاء، لا يصلح فيه النفي وإنما هو إما أمر أو نهي أو إباحة، ولهذا قال الشيخ «هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ الدَّائِرُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ» للآمر، فإذا أمرك بشيء؛ أمرك بشيء يحبه، وإذا نهاك عن شيء؛ نهاك عن شيء يكرهه.

أيضًا من الفروق بين الاثنين: أن الخبر إما أن يكون صادق لذاته أو كاذب لذاته، فإذا قلت: (قام زيد) إما أن أكون صادقًا فعلًا أن زيد قائم، وإما أن أكون كاذبًا فلم يقم زيد، بخلاف الطلب إذا قال لك: (اخرج) ما تقول أنه صادق أو كاذب، إما أن تخرج أو لا تخرج، ولهذا الطلب يدور على المحبة والبغض والحض والمنع، بخلاف الخبر فإنه يدور بين النفي والإثبات وبين الصدق والكذب.-

وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ -هذا ما يتعلق بالخبر- وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ - هذا أيضًا متعلق بالخبر، لما أقول: (حضر الشيخ الفلاني إلى مدينة الرياض) هذا خبر إما أكون صادقًا أو أكون كاذبًا، وإما أن أثبت كما في العبارة هذه (حضر) أو أكون نافيًا (لم يحضر الشيخ الفلاني إلى مدينة الرياض)- وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْحَضِّ وَالْمَنْعِ - هذا ما يتعلق بالإنشاء، فالإنسان يفرق بين هذا وهذا بطبعه - حَتَّى إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوْعِ وَبَيْنَ النَّوْعِ الْآخَرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ - يعني هذا معروف بديهةً لا يحتاج إلى تعلم - وَمَعْرُوفٌ عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِ

الْأَيمَانِ - هناك فرق بين اليمين على أمر مضى -على خبر- وعلى أمر مستقبل، اليمين على أمر مضى إما أن يكون الإنسان صادق أو كاذب، ولهذا قال أهل العلم هذه ليس فيها كفارة، وهي ما يسمى عند بعض أهل العلم اليمين الغموس؛ لأنك تحلف وأنت تعلم أنك كاذب، لما تقول: (والله إن فلان حضر البارحة) وهو لم يحضر فهذا يمين على خبر، فهو إما صدق أو كذب، بخلاف على المستقبل، لما تقول: (والله لأذهبن غدًا إلى كذا) هذا ليس بخبر، هذا إنشاء، ولهذا لو لم تفِ بيمينك يلزمك هنا الكفارة ولا تأثم، إذن ما اليمين التي فيها الكفارة؟ اليمين التي فيها الكفارة هي المتعلقة بالطلب الإنشاء المستقبل، واليمين التي لا تدخلها الكفارة هي اليمين على خبر مضى - وَكَمَا ذَكَرَهُ الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلَامِ؛ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ فَذَكَرُوا أَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إبَاحَةٌ» الأمر إما أمر بفعل، أو أمر بنهي: لا تفعل، أو أمر بإباحة ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ هذا أمر بالإباحة؛ إذا حللتم من إحرامكم جاز لكم الصيد، ولما أقول لك: (تفضل اشرب الماء) ليس وجوبًا إنما للإباحة، أحضك على هذا الأمر.

الخلاصة:

*الفرق الأول بين الصفات وبين الشرع والقدر من جهة نوع الكلام، أن الصفات من باب الخبر، والشرع والقدر من باب الطلب من باب الإنشاء، هذا هو الفرق الأول.

*الفرق الثاني: من ناحية الواجب فيهما، فالواجب في التوحيد والصفات شيء، والواجب في الشرع والقدر أيضًا شيء آخر، فهذا هو الفرق الثاني بين التوحيد والصفات وبين الشرع والقدر، يقول هذا الفرق الثاني:

«وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ - يعني كان (التوحيد والصفات) من باب الخبر و (الشرع والقدر) من باب الطلب، يعني عرفتم أن هناك فرق بين الأمرين في نوع الكلام- وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُثْبِتَ لِلَّهِ مَا يَجِبُ إثْبَاتُهُ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ مِمَّا يُضَادُّ هَذِهِ الْحَالَ - هذا ما يتعلق بالواجب في (الصفات) إثبات صفات الكمال لله عز وجل كما سيأتي كالسمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والعلو ... إلخ، وينفي عن الله ما يجب نفيه مما يضاد صفات الكمال، ينفي عن الله صفات النقص، ينفي عن الله السِّنة، ينفي عن الله اللغوب، ينفي عن الله النوم، ينفي عن الله الظلم، هذا هو ما تضمنه الأصل الأول.

أيضًا ما يجب في الأصل الثاني:-

وَلَا بُدَّ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ خَلْقَهُ وَأَمْرَهُ - بالنسبة لما يتعلق (بالشرع والقدر) يجب عليه أن يثبت عموم خلقه؛ أن الله خالق كل شيء، ويثبت أيضًا عموم أمره؛ فيثبت أن الله أمر بفعل هذا الشيء وأمر بترك هذا الشيء - فَيُؤْمِنَ بِخَلْقِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ قُدْرَتِهِ - بمعنى أن الله خالق كل شيء، وربه، ومليكه - الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ قُدْرَتِهِ - عموم القدرة، إذا قلنا أن الله على كل شيء قدير بمعنى أنه خالق كل شيء، وهذا سيأتي تفصيله - وَعُمُومَ مَشِيئَتِهِ وَيُثْبِتَ أَمْرَهُ الْمُتَضَمِّنَ بَيَانَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَيُؤْمِنَ بِشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ إيمَانًا خَالِيًا مِنْ الزَّلَلِ».

الخلاصة: هذا هو الفرق الثاني: بين الأصلين من ناحية الواجب فيهما، فيجب في (التوحيد والصفات) أن تثبت لله صفات الكمال وتنفي عنه ما يضاد هذه الصفات من صفات النقص، ويجب في (الشرع والقدر) أن تثبت عموم خلقه وأمره سبحانه، فتؤمن بأنه خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأيضًا تؤمن وتثبت أمره المتضمن إثبات ما يحبه ويرضاه سواء من الأقوال أو الأعمال الظاهرة والباطنة، إذًا هذا هو الفرق الثاني بين هذين الأصلين.

المحاضرة (٣)

[1]*الفرق الثالث : من ناحية ما يتضمنه هذان الأصلان:

يقول الشيخ: «وَهَذَا يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ - (وَهَذَا) الإشارة إلى ماذا؟ -انتبه؛ قلت لكم: لابد من تحليل أسماء الإشارة عند الشيخ والضمائر- (وَهَذَا) المقصود به (الشرع والقدر) أقرب مذكور، أي **أصل الشرع والقدر** - وَالْأَوَّلُ - الذي هو **التوحيد والصفات** - يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ كَمَا دَلَّت عَلَى ذَلِكَ سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وَدَلَّت عَلَى الْآخر سُورَةُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ وَبِهِمَا كَانَ يَقْرَأُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»

أهل العلم قسموا التوحيد إما قسمة ثلاثية أو قسمة ثنائية ولا مشاحة في الاصطلاح؛ لأن القسمة الثلاثية داخلة في القسمة الثنائية، الشيخ ذكر هنا أو أشار إلى القسمة الثنائية:

*توحيد الإثبات والمعرفة: يعني أن تثبت وتعرف هذا المطلوب منك، وهذا يتضمن: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، يعني المطلوب منك أن تعتقد أن الله خالق كل شيء، وأن الله وحده هو الرازق، وأنه وحده هو النافع الضار المحي المميت، وأيضًا المطلوب منك أن تثبت وتعرف أن الله مُتصفٌ بصفات الكمال منزه عن صفات النقص والعيب، هذا ما يسمى بتوحيد الإثبات والمعرفة. والكلام في (التوحيد والصفات) داخل في هذا النوع من التوحيد؛ توحيد الإثبات والمعرفة، بخلاف توحيد القصد والطلب الذي هو توحيد الألوهية.

*توحيد القصد والطلب: هو المتضمن للكلام في (الشرع والقدر) فالكلام في الشرع والقدر داخل في توحيد القصد والطلب. إذًا هذان الأصلان تضمنا جميع أنواع التوحيد، فإذا حققهما الإنسان حقق التوحيد كاملًا.

يقول المؤلف: «وَهَذَا يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ - ولهذا توحيد الألوهية يطلق عليه: توحيد الألوهية، وتوحيد القصد والطلب، وتوحيد العبادة -كما أشار المؤلف هنا- التوحيد الطلبي - وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ» بمعنى أن الإنسان يقصد ويريد بعمله وجه الله عز وجل ، أن يسعى في تحقيق إرادته وتحقيق عمله وتحقيق قصده لله عز وجل، فيحقق توحيد العبادة ويحقق توحيد القصد والطلب.

يقول المؤلف: «وَالْأَوَّلُ - الذي هو الكلام عن (الصفات)- يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ - وهو توحيد الإثبات والمعرفة، أن تعلم وتقول، ليس فيه عمل؛ يكفي أن تعلم أن الله وحده هو الرازق، أن تعلم أن الله متصف بالسمع والبصر، أن الله متصف بكمال الحياة - كَمَا دَلَّت عَلَى ذَلِكَ سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ - سورة الإخلاص تدل على أي أنواع التوحيد؟ على توحيد الإثبات والمعرفة؛ لأن فيها وصف الله عز وجل، إثبات مفصل ونفي مفصل ونفي مجمل - وَدَلَّت عَلَى الْآخر - الذي هو توحيد القصد والطلب، توحيد العبادة، توحيد الألوهية، الكلام في (الشرع والقدر)- سُورَةُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ - وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ وَبِهِمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ» قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد يسميان: سورتا الإخلاص؛ لأنهما يخلصان صاحبهما من النار، فإذا حقق مضمون ومعنى هذين السورتين فقد حقق التوحيد كاملًا، وهذا هو السر في كون النبي صلى الله عليه وسلم كان **يحافظ على قراءتهما في ثلاثة مواضع**: في ركعتي الفجر (الصبح) وركعتي الطواف -أشار إليهما الشيخ- وأيضًا ركعتي المغرب كما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلم وغيره، **لماذا؟** التمس أهل العلم لطيفة وحكمة في ذلك، فقالوا: كان يحافظ عليهما في هذه المواضع الثلاثة يريد أن يبدأ ليله ويختم نهاره بالتوحيد، هذا بالنسبة لركعتي المغرب ، ويبدأ نهاره ويختم ليله بالتوحيد، هذا بالنسبة لركعتي الفجر ،

[1] أعاد الشيخ أهمية وجود المتن بين يدي الطالب

يعني يجدد التوحيد مع ربه سبحانه وتعالى، وأعظم ما تُقُرِّب به إلى الله عز وجل من الأعمال تحقيق التوحيد، أن يحقق الإنسان التوحيد لله عز وجل. أما ركعتا الطواف فقال أهل العلم: أن الطائف ربما اعتقد أن لهذه البِنْيَة التي هي الكعبة المبنية من الحجر أن لها شيء من الخصائص من النفع من الضر، ربما ينقدح في ذهنه هذا الأمر، ولهذا نلاحظ بعض الجهال يبدأ يتمسح بالكعبة ويتبرك بأطرافها وبأحجارها فالنبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يجدد التوحيد في هذا الموضع، وأنه وإن طفت بهذا البيت المعظم بهذا البيت المبارك فإنني أقصد بهذا العمل وجهك الكريم، أخلص في عملي هذا لك وحدك لا شريك لك، لا علاقة لعملي بهذه البنية، بل استجابة لأمرك أطوف بهذا البيت، لكن أطوف به مخلصًا في عملي هذا لك، فجدد التوحيد هنا في ركعتي الطواف.

الشاهد: أن الفرق الثالث بين هذين الأصلين من جهة ما يتضمنه هذان الأصلان من أنواع التوحيد، فالكلام في (الصفات) مضمن في توحيد الإثبات والمعرفة، والكلام في (الشرع والقدر) مضمن في توحيد القصد والطلب الذي هو توحيد الألوهية، انتهى المؤلف في مقدمته هذه الموجزة المختصرة المفيدة في الكلام على موضوع الرسالة والفرق بين هذين الأصلين.

انتقل بعد ذلك ليتكلم تفصيلًا على هذين الأصلين وبدأ بالكلام على (الصفات):

الأصل الأول: التوحيد في الصفات

قال المؤلف: «فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الصِّفَاتِ - يعني الأصل الأول التوحيد في الصفات. من الإيمان بالله وبكتبه ورسله الإيمان بما وصف به نفسه سبحانه وتعالى في كتابه نفيًا وإثباتًا، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ فَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ -أي الأصل في هذا التوحيد- أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا؛ فَيُثْبَتُ لِلَّهِ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ وَيُنْفَى عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ» هذا بإيجاز وباختصار القول الحق والتوحيد الخالص فيما يتعلق بصفات الله عز وجل.

التوحيد في الصفات ما هو؟ بعبارة مختصرة - أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا - أن تثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن تنفي عن الله ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم فقط ، إذا حققت هذا الأمر حققت توحيد الصفات، وحققت جزءًا من توحيد الإثبات والمعرفة ؛ لأن توحيد الإثبات والمعرفة يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات. فأن تثبت لله ما أثبته لنفسه مثل: **السمع والبصر** ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو أثبته له رسوله مثل **القَدم** كما في صحيح مسلم: (يضع ربنا قدمه في النار)، كذلك **النزول** صفة لله عز وجل كما في الصحيحين: (ينزل ربنا تبارك وتعالى) فنثبت لله النزول كما أثبت ذلك له رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويُنفى عنه ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، مثل: نفى الله عن نفسه **السِّنة**؛ فننفي عن الله السِّنة، نفى الله عن نفسه النوم؛ فننفي عن الله النوم، أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن ربكم ليس بأعور) فننفي عن الله هذه الصفة صفة النقص.

يقول المؤلف: «وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ مَعَ إثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ إلْحَادٍ لَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي آيَاتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ»

الشيخ الآن في كلامه هذا بدأ يفصل لنا القاعدة العامة في توحيد الأسماء والصفات، ذكر باختصار توحيد الأسماء والصفات: إثبات ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله، ونفي ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله، أراد أن يفصل في هذا؛ يوضح هذا الأمر، يبين هذا الأمر؛ لأن ممكن أن يأتي إنسان يقول: أنا أثبت لله ما أثبته لنفسه وأنفي عن الله ما نفاه عن نفسه،

لكن؛ عند التفصيل وعند التحقيق يتبين أن الرجل معطلًا ملحدًا في أسماء الله وصفاته، الشيخ بيّن وفصّل؛ قال: «وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ»

السلف هم في اللغة: كل من سبقك وكل من تقدمك من الآباء والأجداد، سلف الرجل: آباؤه وأجداده، أما إذا أُطلق السلف في الاصطلاح قيل: هذه عقيدة السلف، هذا قول السلف، هذا مذهب السلف، فما المقصود بالسلف؟

المقصود بالسلف في الاصطلاح هم: أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعهم من التابعين وتابعيهم، جملة من عاش في القرون المفضلة هؤلاء هم سلف الأمة؛ لأنه بعد هذه القرون المفضلة افترقت الأمة، وكثر الاختلاف وكثرت البدع تباينت الآراء، ولهذا ما عليه جمهور أولئك في المعتقد في المنهج في العبادة هو الحق الذي يجب اتباعه وهم سلف الأمة، من أتى بعدهم وسلك مسلكهم فهو متبع للسلف، ومن خالفهم فهو من الخلف المذمومين.

يقول: «وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ»

طريقة منهج السلف: أنهم يثبتون ما أثبته الله من هذه الصفات «مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ»

ما هو التكييف؟

التكييف: مأخوذ من الكيفية؛ وهي هيئة الشيء التي هو عليها، فالتكييف تحديد كل الصفات والسؤال عنها غالبًا يكون بكيف، كيف استوى؟ كيف سمعه؟ كيف بصره؟ فأهل السنة - سلف الأمة- يثبتون الصفات؛ لكن لا يكيفونها، هل لها كيف؟ نعم، لها كيف؛ لكن لا نعلمه، لماذا؟ لأنه لم يدل على هذه الكيفية لا الشرع ولا العقل فنُمسك، السلف أمسكوا عن الكيفية، كُنْه الصفة الله أعلم، هذه هي الكيفية التي نفاها السلف، ما أحد يعلم كيفية صفات الله عز وجل.

ما هو التمثيل؟

التمثيل: مأخوذ من المثْل، والمثْل هو النظير، وهو الحكم على الشيء بأنه مثل الشيء الآخر، تقول هذا الرجل مثل هذا المخلوق، هذا هو التمثيل، ما هو التمثيل المنفي عن الله عز وجل؟ الله عز وجل قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هو أن يوصف الله بشيء من خصائص المخلوق، أو يوصف المخلوق بشيء من خصائص الله، هذا بعبارة مختصرة، ألا تصف الله عز وجل بحياة كحياة المخلوق، ولا تصف الله عز وجل بشيء من خصائص المخلوق، ولا تصف المخلوق بشيء من خصائص الخالق، لا تصف حياة المخلوق أنها مثل حياة الخالق ، إذًا مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ تثبت لله السمع؛ لكن لائق به سبحانه وتعالى ليس كسمع المخلوق، تثبت لله يد؛ لكن ليس كيد المخلوق، تثبت لله عز وجل استواء؛ لكن ليس كاستواء المخلوق، فتنفي عن الله خصائص المخلوق، كما أنك إذا أثبت هذه الصفة للمخلوق ألا تجعلها كصفة الخالق.

التكييف والتمثيل بالطبع بينهما تلازم، فكل من كيّف صفة فقد شبّه الله بخلقه، من قال: استواء الله كاستواء المخلوق على الكرسي هذا في واقع الأمر كيّف ومثّل، وممثل الخالق بالمخلوق هذا يستلزم التكييف، لما أقول: استواء الخالق مثل استواء المخلوق في واقع الأمر أنا كيّفت استواء الخالق، إذًا بينهما تلازم التكييف والتمثيل.

يقول الشيخ: «وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ» ، **التحريف ينقسم إلى قسمين: تحريف في اللفظ، وتحريف في المعنى.**

النوع الأول: تحريف اللفظ: أن تغير في حروف هذا اللفظ أو في حركات هذا اللفظ، فإذا تلوت قول الله عز وجل ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ تلوتها بنصب لفظ الجلالة كما تلاها بعض الجهمية لينفوا عن الله صفة الكلام فقال: وكلم اللهَ موسى تكليمًا فهذا تحريف في اللفظ، لماذا؟ لأنه غيّر الحركة ليتغير المعنى، جعل الله عز وجل هو المُكلِّم وليس هو المتكلم، هذا يسمى تحريف لفظي، وهذا نادر بل أندر من النادر ولله الحمد في القرآن، وكقول اليهود لما قال لهم الله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قالوا: حنطة (زادوا نون) هذا تحريف لفظي، **هذا نادر لماذا؟** لأن الله تكفل بحفظ القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لا

يمكن للإنسان لا أقول يزيد حرف وينقص حرف؛ بل يزيد حركة أن ينقص حركة أو يغير حركة (يخفض منصوبًا أو ينصب مرفوعًا) هذا يسمى تحريف لفظ.

النوع الثاني: التحريف المعنوي: وهذا هو الغالب وهو الكثير عند أهل الضلال خاصة ممن خاض في توحيد الأسماء والصفات بغير علم، يبقون اللفظ على لفظه لا يغيرون في اللفظ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ يتلونها ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ لكن؛ إذا قيل لهم ما معنى الاستواء؟ قالوا: معنى الاستواء: الاستيلاء، هذا تحريف معنوي، أبقوا اللفظ كما هو لكنهم حرفوا المعنى، ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ قالوا: لما خلقت بقدرتي، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قالوا: وجاء أمر ربك، وهكذا يغيرون في المعاني ويبقون اللفظ.

الشيخ قال: «وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ»

لماذا قال من غير تحريف ولم يقل من غير تأويل ولا تعطيل؟ -انتبه- الشيخ ما اختار هذه اللفظة عبثًا، ما استبدل لفظة التأويل بلفظة التحريف من غير سبب، لا، لم يقل من غير تأويل ولا تعطيل -وإن كان الموجود عند أهل البدع يسمونه تأويل- الشيخ قال من غير تحريف لماذا؟

لأن التأويل منه ما هو حق ومنه ما هو باطل، فخشي أن يقول من غير تأويل أن يتضمن هذا أيضًا التأويل الحق، فمن معاني التأويل: التفسير كما سيأتي في القاعدة الخامسة، من معاني التأويل: الحقيقة التي يؤول إليها الكلام وهذا كلام حق، لكن التحريف كله باطل، تحريف الكلام عن موضعه كله باطل، ولهذا ذمه الله عز وجل ووصف به الكفار من أهل الكتاب ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ما قال يؤولون الكلم عن مواضعه (يحرفون) يصرفون الكلام عن معناه الحق، ولهذا الشيخ استبدل التأويل بالتحريف «وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ»

التعطيل: مأخوذ من الخلو والفراغ ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ أي ليس عليها رشاء ولا دلاء، جِيدٌ معطل؛ ليس عليه شيء من الذهب والحلي.

أما في الاصطلاح: فتعطيل الرب عما يستحقه سبحانه وتعالى من صفات الكمال أو تعطيل شيء منها أو تعطيل آياته، ولهذا سيأتي أن التحريف يكون في الآيات الكونية وفي الآيات اللفظية.

المحاضرة (٤)

قال المؤلف: «وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ - إذًا يثبتون لله عز وجل صفات الكلام؛ لكن لا يكيفون لا يمثلون لا يحرفون لا يعطلون، وفي المقابل أيضًا لأجل أن يحققوا التوحيد لابد أن يجمعوا بين الإثبات والنفي - مَعَ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ - ينفون ما نفاه عن نفسه مثل: صفة الظلم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ، صفة النوم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، صفة التعب ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ، لكنهم مع ذلك يثبتون السمع والبصر والقوة والإرادة والقدرة - مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ - ينفون لكن لا يلحدون، **والإلحاد في اللغة**: الميل، ولهذا سمي اللحد لحدًا؛ لأنه مائل عن وسط القبر، **أما في الاصطلاح**: فهو العدول أو من أنواع الإلحاد -الإلحاد له أنواع كثيرة، ذكر ابن القيم رحمه الله خمسة أنواع من الإلحاد- من أنواع الإلحاد: العدول بأسماء الله وصفاته عن معناها الصحيح إلى معانٍ باطلة سواء من جهة الإثبات أو جهة النفي -

مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ لَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي آيَاتِهِ» الإلحاد إما أن يكون في أسماء الله أو في آياته،

ومن صور الإلحاد في أسماء الله:

نفي ما تضمنته هذه الأسماء من الصفات؛ كما هي الحال عند المعتزلة لما قالوا: عليم من غير علم كعَلَم محض -وسيأتي الكلام تفصيلاً عنه- سميع؛ لكن لا يوصف بالسمع، بصير ولا يوصف بالبصر، جعلوها أعلام فقط جردوها من معانيها، هذا

نوع من الإلحاد في أسماء الله.

من الإلحاد في أسماء الله: تعطيل أسماء الله كما صنع الجهمية والباطنية.

من الإلحاد في أسماء الله كما ذكر ابن القيم: أن تسمى الأصنام بأسمائه سبحانه وتعالى، كما سمى المشركون بعض أصنامهم ببعض أسماء الله عز وجل، فذُكر أن اللات من الإله، والعزى من العزيز، هذا نوع من الإلحاد في أسماء الله.

آيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: آياته الكونية وآياته الشرعية.

الآيات الكونية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هذه آيات كونية، من صور الإلحاد فيها أن تنسب إلى خالق غير الله عز وجل، من الإلحاد في آيات الله الكونية أن تُعبد من دون الله عز وجل، فمن اعتقد أن تسير بنفسها هذا إلحاد في آيات الله الكونية، ومن صرف لها نوعًا من أنواع العبادة كما صنع الصابئة قوم إبراهيم لما عبدوا الشمس والقمر هذا نوع من الإلحاد في آيات الله الكونية.

أما آيات الله الشرعية كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾

يقول المؤلف: «فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ - سواء الآيات الكونية أو الآيات الشرعية، ما الدليل؟ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ - فالآية الأولى الإلحاد في أسماء الله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآية الثاني ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ سواء الآيات الكونية أو الآيات الشرعية - فَطَرِيقَتُهُمْ - طريقة من؟ الضمير يعود على سلف الأمة، مذهب أهل السنة والجماعة في الصفات، ويقوم على أصول ثلاثة:

الأصل الأول: إثبات صفات الكمال.

الأصل الثاني: تنزيه الله عز وجل عن صفات النقص والعيب.

الأصل الثالث: نفي العلم بالكيفية -

فَطَرِيقَتُهُمْ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ - طريقة سلف الأمة مستقاة من ماذا؟ من طريقة الرسل ، إذًا طريقة السلف: إثبات ونفي، إثبات صفات الكمال، ونفي مماثلة المخلوقات -

إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ - يعني يثبتون؛ لكن لا يشبهون كما هي الحال عند المشبهة الممثلة، المشبهة الممثلة أثبتوا لكنهم مثلوا، قالوا: لله سمع كسمع المخلوق، ولله بصر كبصر المخلوق، أهل السنة قالوا لا، لله سمع؛ لكن بلا تمثيل، يختلف عن سمع المخلوق -

وَتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ - يعني لم يحملهم التنزيه كما هي الحال عند المعطلة فالمعطلة نزهوا الله لكنهم غلوا في التنزيه وخرجوا إلى التعطيل، أرادوا أن ينزهوا الله عز وجل عن مماثلة المخلوق فعطلوا الخالق عما يستحقه من صفات الكمال. أهل السنة لا، سلف الأمة لا، أثبتوا إثباتًا بلا تمثيل خالفوا الممثلة، ونزهوا تنزيهًا بلا تعطيل؛ كما قال تعالى: -انتبهوا **هذه الآية عمدة في هذا الباب**؛ لأنها جمعت بين الإثبات والتنزيه أهل السنة انطلقوا من هذه الآية آية الشورى- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذا فيه تنزيه؛ نزهوا الله عز وجل عن مماثلة شيء من المخلوقات، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إثبات، فجمعت هذه الآية بين التنزيه وبين الإثبات كما جمع سلف الأمة بين الإثبات والتنزيه -

فَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رَدٌّ لِلتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ - هذا رد على المشبهة والممثلة.- وقال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رَدٌّ لِلْإِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ» ردٌّ لمن ألحدوا في أسماء الله وصفاته وعطلوها.

يقول المؤلف: «وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعَثَ رُسُلَهُ (بِإِثْبَاتِ مُفَصَّلٍ وَنَفْيٍ مُجْمَلٍ) فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الصِّفَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَنَفَوْا عَنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ -

هذه قاعدة من قواعد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، انطلقوا فيها من نصوص الكتاب والسنة وهي:

أن التفصيل فيما يتعلق بصفات الله يكون في الإثبات، والإجمال يكون في النفي.

ما معنى الإجمال وما معنى التفصيل؟

الإجمال: هو التعميم والإطلاق؛ مثاله: لما أقول: (فلان ذو فضائل كثيرة) هل ذكرت هذه الفضائل؟ لا؛ هذا إثبات مجمل، (فلان لا يساميه أحد) هذا نفي مجمل، ما قلت: (ما يساميه في الكرم في الشجاعة في الجود في الخلق)؛ لا، أعطيت تعميم إطلاق.

أما التفصيل: هو التعيين والتخصيص، أن أذكر كل صفة على وجه الخصوص بعينها، مثل: (زيد شجاع)، (زيد ليس ببخيل) هذا إثبات مفصل.

وهذا نفي مفصل: (زيد كريم، زيد مقدام، زيد ليس بجبان)، (زيد ليس بأعور، زيد ليس بأعمى) هذا نفي مفصل، وذاك إثبات مفصل، لماذا أسميناه تفصيل؟ لأننا حددنا كل صفة بعينها، لم نعمم كما قلنا: (زيد لا يساميه أحد)، (زيد ذو فضائل كثيرة) هذا فيه تعميم فيه إطلاق، فلم نذكر كل صفة على حدة.

منهج القرآن وهو المنهج الشرعي فيما يتعلق في صفات الله عز وجل أنه إذا جاء في جانب الإثبات صار فيه تفصيل؛ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ تُذكر الصفات: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ كل هذه -لاحظ- تفصيل تُذكر كل صفة على حده، تُخصص كل صفة بالذكر، هذا منهج القرآن: التفصيل في الإثبات، وفي الإجمال النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ إجمال في النفي، هل ذكر صفات هذه النقص؟ على وجه التفصيل لا.

إذًا القاعدة تقول: التفصيل في الإثبات، وفي الإجمال النفي، ولهذا يقول: «وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ: بَعَثَ رُسُلَهُ» هذا هو المنهج الشرعي وهو المنهج الذي تشهد له اللغة والواقع، فالعقل والفطر السليمة والذوق الرفيع والأدب السليم يقتضي أن تفصّل في الصفات الثبوتية، وأن تُجمل في صفات النقص، تقول: (فلان لا يساميه أحد فهو الشجاع الكريم المقدام صاحب الخلق صاحب البيان) وتذكر له من الصفات تفصل، وفي النفي أجملت (لا يساميه أحد)، لا آتي فأقول: فلان ليس بجبان ولا بخيل ولا... لا، هذا ليس من الأسلوب العربي تستنكره الفطر السليمة، إضافة إلى أن هذا الأسلوب أبلغ في المدح، لما تجمل في النفي وتفصل في الإثبات. لما تدخل على أمير أو ملك تقول: أيها الملك أنت لست كأحد من الرعية (أنت كريم أنت معطاء أنت شجاع أنت العفو أنت الرؤوف بهم أنت كذا -تأتي له بالصفات الثبوتية- هذا غاية المدح، لكن لو دخلت عليه وقلت كذا: أنت أيها الملك لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا بخيل ؛ لعاقبك وأنت صادق، لكن عاقبك لأنك أسأت الأدب، ليس هذا من الأدب فالأدب أنك تجمل في النفي، صفات النقص أجملها وفصل في الصفات الثبوتية صفات الكمال، وهذا هو منهج القرآن وهو منهج الرسل فيما يتعلق بصفات الله عز وجل.

ولهذا يقول الشيخ: «وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ: بَعَثَ رُسُلَهُ بِإِثْبَاتِ مُفَصَّلٍ وَنَفْيٍ مُجْمَلٍ، فَأَثْبَتُوا له -أي الرسل، وهذا المنهج هو الذي سار عليه سلف الأمة - فَأَثْبَتُوا له الصِّفَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَنَفَوْا عَنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ - هذا نفي مجمل، معنى الكلام: ليس لله سَمِيّ ليس لله مثيل ليس لله نظير - قَالَ

أَهْلُ اللُّغَةِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أَيْ نَظِيرًا يَسْتَحِقُّ مِثْلَ اسْمِهِ. وَيُقَالُ: مُسَامِيًا يُسَامِيهِ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ مَثِيلًا أَوْ شَبِيهًا - الشاهد أن الآية معناها ومضمونها: ليس لله سميّ، هذا نفي مجمل - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ -

المؤلف يذكر لنا أمثلة على النفي المجمل:

فقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ - هذا سيأتي بيانه وهو نفي مفصل[1] - وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هذا هو الشاهد: وهو نفي مجمل ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ليس لله مكافئ -

ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ - هذا أيضًا من النفي المجمل مضمونه: ليس لله ند، والند: هو النظير، ولهذا في هذه الآيات الثلاثة نفى الله عن نفسه الند والكفء والمِثْل، وهذا نفي مجمل -

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ هذا أيضًا فيه نفي الند عن الله نفي مجمل، دليل على النفي المجمل -

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ*بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ - هذه الآية بالطبع فيها نفي مفصل، لكن الشاهد نحن نريد وجه ذكر المؤلف هذه الآية في هذا الموضع، هو استدل بهذه الآية على النفي المجمل، فأين النفي المجمل في هذه الآية؟ قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ أي تقدس عن كل ما من شأنه النقص سبحانه وتعالى وفيه تنزيه لله عز وجل، هذا نفي مجمل -

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا*الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ - الشاهد: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ من معاني تبارك: تنزه وتقدس، بمعنى تنزيه الله عز وجل عن النقائص والعيوب -

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ - الشاهد هو: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزه الله عز وجل عن كل ما يصفه به المشركون من كونه له ولد وأنه اصطفى البنات ...الخ، في الأخير نفي مجمل ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ -

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ - الشاهد ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله عز وجل وتقدس عما يصفه هؤلاء الواصفون - فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُفْتَرُونَ الْمُشْرِكُونَ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ الْإِفْكِ وَالشِّرْكِ، وَحَمِدَ نَفْسَهُ؛ إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ بِمَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَبَدِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ»

إذًا هذه الأمثلة وهذه الآيات التي أوردها المؤلف وغيرها كثير جدًّا فالقرآن مليء بهذا النوع من النفي وهو النفي المجمل، تنزيه الله عز وجل عن صفات النقص إجمالًا، هذه طريقة الرسل وهذا مذهب أهل السنة وهذا هو المنهج الذي سار عليه سلف الأمة رحمهم الله، إذن يمكن أن تأخذ أي آية من هذه الآيات وتستدل بها على هذا المنهج الذي هو النفي المجمل.

انتقل بعد ذلك إلى الإثبات المفصل:

[1] (لم يلد ولم يولد) ليست من هذا الباب لأنها نفي مفصل وسيأتي أنه قليل وليس بنفي محض

فقال رحمه الله: «(وَأَمَّا الْإِثْبَاتُ الْمُفَصَّلُ) فَإِنَّهُ ذَكَرَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مَا أَنْزَلَهُ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ - بمعنى أن القرآن مليءٌ بأسماء الله وصفاته، وهذه الآيات والصفات دليل على الإثبات المفصل، يعني أن الله عز وجل ذكرها على وجه التقييد والتخصيص، أثبت كل صفة على حدة، ذكر من هذه أمثلة كثيرة منها:

قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الآية بكاملها - أين الشاهد في الآية؟ الشاهد: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إثبات صفة الحياة وإثبات صفة القيومية، أثبتها على وجه الخصوص، ثم قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إثبات العلم، الشاهد: أن آية الكرسي أثبتت مجموعة من الصفات لله عز وجل على وجه الخصوص –

المحاضرة (٥)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ - ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هذا هو الشاهد، أما قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا نفيٌ مُفصّل؛ لأنه نفى صفة معينة وقد خرجت عن القاعدة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هذا نفيٌ مُجمل.

إذًا سورة الإخلاص تضمنت: **إثباتٌ مفصل** ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، **ونفيٌ مفصّل** ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، **ونفيٌ مُجمل** ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ –

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ - إثبات العلم والحكمة وهذا إثبات مُفصل أثبت العلم بخصوصه، وأثبت الحكمة بخصوصه–

﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ - إثبات العلم والقدرة –

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ - إثبات السمع والبصر –

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ - إثبات العزة والحكمة –

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ - إثبات المغفرة والرحمة –

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ - إثبات المغفرة وإثبات صفة الودود واسم الودود، وإثبات الفعل له سبحانه وتعالى أنه فعال لما يريد –

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ - إثبات الأولية والآخرية والظهور الذي هو العلو والباطن بعلمه؛ كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إثبات العلم –

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ - إثبات الخلق وإثبات الاستواء–

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ - إثبات العلم –

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ - إثبات المعية له سبحانه–

﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ - إثبات البصر–

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ - إثبات صفة السخط لله عز وجل واثبات صفة الرضا –

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ - إثبات صفة المحبة لله عز وجل وأنه يُحِب ويُحب خلافًا لمذهب الجهمية والمعطلة من المعتزلة والأشاعرة إثبات في هذه الصفة أن الله يُحب ويُحَب سبحانه وتعالى على الوجه اللائق به سبحانه–

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ - إثبات صفة الرضا–

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ - إثبات صفة الغضب لله عز وجل-

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ -إثبات صفة المقت وهو أشد البغض-

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ - إثبات الإتيان لله عز وجل-

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ - إثبات صفة الكلام لله عز وجل-

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ - أيضًا إثبات صفة الكلام لله عز وجل-

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ - إثبات المناداة لله عز وجل (المناجاة) المناداة تكون من بعيد وبصوت مرتفع، والمناجاة من قريب وبصوت منخفض-

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ - أيضًا إثبات صفة المناداة لله عز وجل-

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ - إثبات الإرادة لله عز وجل-

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ - إثبات صفة الرحمة-

وقوله: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ إلى آخره.»

الشاهد: أن هذه الصفات جميعها تثبت لله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، ونلاحظ أن هذه الصفات أثبتها الله لنفسه على وجه التفصيل أي التعيين والتخصيص، وهذا يتوافق مع القاعدة الشرعية العامة؛ وهو اللائق به سبحانه وتعالى.

يقول المؤلف: «إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ إثْبَاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَإِثْبَاتِ وَحْدَانِيَّتِهِ بِنَفْيِ التَّمْثِيلِ مَا هَدَى اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ إلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ »

إذًا بشكل مجمل طريقة الرسل: الإثبات المفصل، والنفي المجمل.

هل يرد في القرآن إثبات مُجمل ونفي مفصل في صفات الله عز وجل؟

نعم، يأتي على خلاف القاعدة؛ لكنه قليل إذا قلنا: يأتي ليس على إطراد، يأتي بشكل قليل مثال الإثبات المجمل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ هذا إثبات مجمل أثبت لله الأسماء الحسنى على وجه الإجمال، نفي مفصل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ نفى صفات نقص بعينها خصصها لكن هذا قليل، إضافةً إلى أن هذا النفي المفصل ليس بنفي محض، بمعنى أن هذا صورتهُ وشكلهُ نفي في الظاهر؛ لكنه متضمن للإثبات، كيف؟ لما قال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ماذا تفهم من هذا الكلام؟ الإنسان بسليقته وفطرته يفهم إثبات العدل لله، إذًا هذا النفي تضمن صفة ثبوتية أخرى، ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ أي يُكلِفه ويثقله هذا نفي مفصل، لكن ماذا تفهم من هذا النفي؟ إثبات كمال القوة وكمال القدرة، ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ نفي السّنة النعاس والنوم هذا نفي مفصل، لكن ماذا تفهم من هذا النفي؟ مباشرةً نفهم إثبات صفة كمال الحياة والقيومية ولهذا جاء بها بعد إثبات صفة الحياة والقيومية ليؤكد إثبات هاتين الصفتين، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أراد أن يؤكدها لكن لم يؤكدها بنفس اللفظ ما قال الحي القيوم مرة أخرى قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إذًا النفي المفصل الوارد في صفات الله نفي ليس بمحض، جاء؛ لكن بشكل قليل وعلى خلاف القاعدة العامة ومع ذلك هو ليس بنفيٍ محض؛ لأن النفي المحض لا يليق بالله عز وجل، فإذا جاءت صفة منفية عن الله [هذه قاعدة عامة] إذا نُفي عن الله صفة نقص في القرآن

أو في السنة فإن النفي فيها ليس بنفي محض فلا بد أن تتضمن صفة ثبوتية، هذه قاعدة مطردة.

قال المؤلف: «وَأَمَّا مَنْ زَاغَ وَحَادَ عَنْ سَبِيلِهِمْ - لما ذكر الشيخ طريقة الرسل وأن مذهب السلف مستند إلى هذه الطريقة الشرعية الصحيحة، في كونهم يثبتون إثباتًا مفصلًا وينفون وينزهون الله عز وجل تنزيهًا مجملًا، بَيّن ضد هؤلاء وبالضد تتبين الأشياء، بَيّن مذهب من أتى في الطرف الآخر في الجنب الآخر ، مذهب من خالف طريقة القرآن، من خالف طريقة الرسل، من خالف منهج السلف، يقول: «وَأَمَّا مَنْ زَاغَ وَحَادَ عَنْ سَبِيلِهِمْ»، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ إذًا طريقة أهل الضلال أنهم انحرفوا عن طريقة الرسل، حادوا عن السبيل، كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ هي طريقة الرسل، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ طريقة هؤلاء اتبعوا السبل، حادوا وزاغوا عن طريقة الرسل –

مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَمَنْ دَخَلَ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ الصَّابِئَةِ والمتفلسفة والجهمية وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ فَإِنَّهُمْ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ - هنا أجملَ طريقة هؤلاء من حاد عن طريقة الرسل وسبيلهم وهؤلاء أصناف، قال: «**مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَمَنْ دَخَلَ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ الصَّابِئَةِ**» الصابئة: قوم إبراهيم، ذكر شيخ الإسلام أنهم كثيرًا ما كانوا في حرَّان بلد الفلاسفة وتأثر أهل الفلسفة بهم. « والمتفلسفة»، فلسفة تعريفها هي: في الأصل كلمة يونانية معناها: محبةُ الحكمة، لكن المقصود بالفلاسفة هنا الفلاسفة الإلهيين، هؤلاء الذين ألحدوا في أسماء الله وصفاته، والجهمية نسبةً إلى جهم بن صفوان زعيم المعطلة، والقرامطة نسبةً إلى حمدان قرمط، وهؤلاء باطنية، والقرامطة الباطنية الذين يزعمون أن للنصوص ظاهر وباطن وأن ظاهرها يخالف باطنها، يقولون: ظاهر القرآن وظاهر السنة هذه مخاطب بها عامة الناس وليس هو المقصود، فالمقصود الباطن، والظاهر له معنى والباطن له معنى آخر، مثلاً: يفسرون قبحهم الله قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ المقصود بها: عائشة رضي الله عنها وأرضاها، ﴿بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ قالوا المقصود: عمر وأبو بكر، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الحج المقصود به: السفر وقصد المشاهد والقبور، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ المقصود به: حفظ الأسرار، وهلم جرًا يتلاعبون بنصوص الوحي. يقول: «**وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ فَإِنَّهُمْ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ**» على ضد ماذا؟ على ضد طريقة الرسل، فالرسل جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل؛ وهم جاءوا بنفي مفصل –

يَصِفُونَهُ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَلَا يُثْبِتُونَ إِلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ - إذًا هم لا يصفون الله إلا بالصفات السلبية (السلب: النفي) يعني ينفون عن الله تفصيلًا ليس بكذا ولا كذا ولا كذا ولا كذا، كما ذكر الأشعري أن مذهبهم: يقولون: (ليس بجسم ولا صورة ولا جثة ولا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر وليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا داخل العالم ولا خارجه...) يصفون الله عز وجل بجميع الصفات السلبية، ولهذا قال المؤلف: «**عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَلَا يُثْبِتُونَ إِلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ**» إذا جاء في جانب الإثبات يقتصرون على الإثبات المطلق، ما هو الإثبات المطلق أو الوجود المطلق؟ الوجود المطلق مقابل الوجود المعين وهو الذي لا يتخصص ولا يتقيد بشيء ويصدق على كثير، لما أقول: (إنسان) هذا يصدق على زيد، وعمر، على فاطمة، ومحمد، على هذا الصغير والكبير، على هذا الصحيح والسقيم، على هذا الحي والميت كل هؤلاء يصدق عليهم إنسان فهذا وجود مطلق، الوجود المطلق ليس له حقيقةَ وجود إلا في الذهن لماذا؟ لأنه إذا وجد في الخارج تقيد وتخصص، لما أقول: (زيد إنسان) قيدناه بهذا الإنسان (هذا إنسان) قيدناه بهذا الشخص؛ لكن (إنسان) مطلق يشترك فيه الجميع هذا وجوده في الذهن، فهم أثبتوا لله وجود مطلق في الذهن ، وفي الواقع لا وجود له؛ لأنهم لم يقيدوه بصفة، لو قيدوا هذا الوجود بصفة من الصفات لم يكن وجود مطلق –

وَلَا يُثْبِتُونَ إِلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى وُجُودٍ فِي الْأَذْهَانِ - الوجود المطلق ليس له حقيقة، الوجود المطلق هذا الذي تشترك فيه كل الموجودات، الآن لاحظ كلمة وجود الذي هو ضد العدم في ذهنك تشترك به هذه الطاولة

وهذا الكرسي وأنا والسماء والأرض والسيارة؛ لأن كل هذه موجودة كلها تشترك فيه وجود مطلق؛ لكن إذا وجد في الخارج وقلت: (هذه الطاولة موجودة) (أنا موجود) (هذا القلم موجود) إذن تخصص وتقيد، الوجود المطلق أين هو؟ في الذهن، فهم لا يثبتون لله هم يصفون بالصفات السلبية، الإثبات أليس له مكان عندهم؟ بلى له مكان، ما هو الإثبات عندهم؟ الوجود المطلق، أين الوجود المطلق؟ وجوده في الذهن، إذًا لا حقيقة له، لم يثبتوا لله شيئًا، هذه النتيجة النهائية -

وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى وُجُودٍ فِي الْأَذْهَانِ، يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُهُ فِي الْأَعْيَانِ - يعني يستحيل وجوده عينًا، الوجود المطلق ليس له وجود إلا في الذهن؛ لأنه إذا وجد في الخارج صار معينًا مخصصًا مقيدًا -

فَقَوْلُهُمْ - يعني القول أنهم يصفون الله عز وجل بالصفات السلبية، ويثبتون له الوجود المطلق، ماذا يستلزم؟ - **يَسْتَلْزِمُ غَايَةَ التَّعْطِيلِ وَغَايَةَ التَّمْثِيلِ** - كلام جميل جدًّا، كيف؟ لما وصفوا الله بالصفات السلبية وأثبتوا له الوجود المطلق، قال المؤلف: **«فَقَوْلُهُمْ يَسْتَلْزِمُ غَايَةَ التَّعْطِيلِ وَغَايَةَ التَّمْثِيلِ»**

غاية التعطيل: إنكار وجود الله عز وجل يستلزم إنكار الله عز وجل، لماذا؟ لمّا قالوا: ليس بسميع ولا بصير ولا متكلم ولا هو فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا داخل العالم ولا خارجه ولا...، فإذا قلنا لهم موجود؟ قالوا: موجود مطلق -انتبه أن تقيده بأي صفة!- قلنا: هذا إذًا وجوده وجود ذهني، إذًا لا حقيقة له في الخارج، إذًا قولهم هذا أن الله ليس بموجود، كيف يكون موجودًا وهو متصف بهذه الصفات! ليس بحي ولا ميت ولا سميع ولا بصير ولا متكلم ولا داخل العالم ولا خارجه ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، إذن ماذا يكون؟ هذا هو العدم! ولهذا قال محمود بن سبكتكين كما سيأتي لذلك الجهمي الذي وصف الله بهذه الصفات قال: (باللهِ عليك فرِّق لي بين العدم وبين هذا الرب الذي تعبده؟). فلو قلنا لك: عرّف العدم ما عرفته أحسن من هذا التعريف.

فقولهم إذن يستلزم غاية التعطيل الذي هو: إنكار وجود الله، هذا غاية التعطيل نهاية التعطيل أن تنفي وجود الله عز وجل.

وغاية التمثيل **كيف؟** غاية التمثيل: أنهم مثلوا الله بالممتنعات، ومثلوه بالمعدومات هذا هو نهاية التمثيل. يعني أنتم فررتم من أن تمثلوا الله عز وجل بالموجودات؛ لماذا نفيتم عن الله هذه الأسماء والصفات؟ قالوا: لأجل أن لا نقع في التمثيل، أنتم فررتم من هذا التمثيل إلى تمثيل أشد وأسوأ، مثلتموه بماذا؟ بالمعدومات وبالممتنعات؛ لأن الذي لا يسمع ولا يبصر ولا حي ولا ولا... هذا هو المعدوم؛ بل هو الممتنع، شيء ما هو بداخل العالم ولا خارجه أين؟ هذا ممتنع.

فغاية التمثيل: أنهم وصفوا الله عز وجل أو مثلوه بالممتنعات.

وغاية التعطيل: أنهم أنكروا وجود الله عز وجل، إذن قولهم يستلزم إنكار وجود الله ويستلزم تمثيله بالممتنعات والمعدومات -

فَإِنَّهُمْ يُمَثِّلُونَهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ ؛ وَيُعَطِّلُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ تَعْطِيلًا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الذَّاتِ» يعني غاية التعطيل نفي ذات الله عز وجل نفي وجوده، وأما التمثيل فإنهم مثلوه بالممتنعات، **ما هو الممتنع؟** الممتنع: الشيء الذي لا يوجد؛ يعني الذي يستحيل وجوده في الخارج، مثال ذلك: شيء لا هو حي ولا ميت، أو لا متحرك ولا ساكن، هل يمكن؟ هذا ممتنع، لا داخل العالم ولا خارجه لا موجود ولا معدوم، لما أقول: ذاك الشيء لا موجود ولا معدوم، قلتم: هذا مستحيل؛ ما في شيء لا موجود ولا معدوم، فإما موجود أو معدوم.

وأما المعدومات: الشيء المعدوم لكن ممكن أن يوجد، مثلاً هذا الشخص الذي لم يتزوج؛ ولده معدوم الآن، ويمكن أن يوجد، فنقول: المعدومات هذا معدوم لكنه ممكن الوجود، بخلاف الممتنع.

الجمادات: هي التي لا حياة فيها.

فهؤلاء مثلوا الله عز وجل بالممتنعات والمعدومات والجمادات وعطلوه تعطيلًا يستلزم نفي الذات.

المحاضرة (٦)

نعود إلى كلام الشيخ رحمه الله لا زال الكلام مع المخالفين للرسل في باب الصفات لما ذكر طريقة الرسل أنهم يثبتون الأسماء والصفات على وجه التفصيل وينفون وينزهونه الله عن مماثلة ومشابهة المخلوقين على وجه الإجمال، ذكر طريقة المخالفين لهم من أهل الشرك وكفار أهل الكتاب والصابئة والجهمية والباطنية من القرامطة وغيرهم أنهم يصفون الله عز وجل بالسلب (النفي) ولا يثبتون لله عز وجل إلا وجودًا مطلقًا، وذكر أن قولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل.

- **يقول -رحمه الله- تكملة للكلام السابق:** «فَغُلَاتُهُمْ يَسْلُبُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ - المعطلة هؤلاء ليسوا على درجة واحد في التعطيل؛ فمنهم الغلاة ومنهم الأخف، يعني هم على درجات ، فلا نساوي بين المعتزلي وبين الجهمي، المعتزلي خير من الجهمي يثبت الأسماء وإن كان إثباته فيه غبش؛ لكن يبقى أنه مثبت على وجه العموم، بخلاف الجهمي.

والجهمية النُفاة خير من الغلاة منهم. الشيخ بدأ بالأشد وبالأسوأ قال: «فَغُلَاتُهُمْ» أي غالية المعطلة وهم الباطنية من القرامطة وغلاة الجهمية ما مذهبهم؟ مذهبهم يقول: «يَسْلُبُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ» أي ينفون عن الله النقيضين، ما المقصود بالنقيضين؟

النقيضان كما عرفهما أهل المنطق والكلام هما: الشيئان اللذان لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان معًا، كيف؟ مثل الوجود والعدم هل يمكن يكون الشيء موجود معدوم في آن واحد يجتمعان معا؟ يستحيل عقلًا ، هل يمكن يكون الشيء لا موجود ولا معدوم في آن واحد؟ يستحيل هذا عقلًا، خلاف مثلاً: السواد والبياض، لا يوجدان معًا، ما يمكن أن يكون الشيء أسود أبيض في آن واحد؛ لكن يمكن أن يرتفعان معًا يكون الشيء لا أسود ولا أبيض بل أحمر، ولهذا نقول عن مقابلة السواد للبياض: تقابل بالتضاد، وليس بالتناقض؛ لأن الضدين هما اللذان لا يجتمعان لكن ربما يرتفعان معًا. بخلاف النقيضين لا يجتمعان معًا؛ ولا يرتفعان معًا؛ فلا بد من وجود أحدهما دون الآخر. الشيخ يقول: «يَسْلُبُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ» كيف يسلبون عنه النقيضين؟ مثّل مثال واضح جدًّا :-

فَيَقُولُونَ : لَا مَوْجُودَ وَلَا مَعْدُومَ وَلَا حَيَّ وَلَا مَيِّتَ وَلَا عَالِمَ وَلَا جَاهِلَ - لا حظوا التقابل بين الوجود والعدم تقابل بالتناقض لا موجود ولا معدوم مستحيل، سلبوا عن الله النقيضين نفوا عن الله النقيضين، لاحي ولا ميت هذا أيضًا تقابل الحياة والموت تقابل بالتناقض، لا عالم ولا جاهل، لماذا نفوا عن الله النقيضين؟ وضّح الشيخ، قال:-

لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِذَا وَصَفُوهُ بِالْإِثْبَاتِ شَبَّهُوهُ بِالْمَوْجُودَاتِ - لو قالوا: هو موجود؛ قالوا شبهنا الله بالموجود - وَإِذَا وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ شَبَّهُوهُ بِالْمَعْدُومَاتِ - ولو قالوا: ليس بموجود؛ قالوا شبهناه بالمعدوم، فالمعدوم هو الذي ليس بموجود، إذًا ما الحل؟ قالوا نسلب عنه النقيضين لا موجود ولا معدوم - فَسُلِبُوا النَّقِيضَيْنِ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بَدَاهَةِ الْعُقُولِ - يعني العقول ببديهتها بفطرتها يَستحيل أن تقبل هذا الشيء ممتنع عقلًا، لا يمكن أن يكون الشيء لا موجود ولا معدوم إما أن يكون موجود أو معدوم - وَحَرَّفُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ، وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - يعني جمعوا بين مخالفة بداهة العقل وتحريف ما أنزله الله عز وجل على رسوله حرفوا كلام الله عز وجل - فَوَقَعُوا فِي شَرٍّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ - وهذه المصيبة الثانية هم فروا من تشبيه الله عز وجل بماذا ؟ قالوا: نخشى أن نشبه الله بالموجودات أو بالمعدومات، إذًا نسلب عنه النقيضين؛ لأجل ألّا نشبهه بالمعدومات ولا بالموجودات، الشيخ يقول: «فَوَقَعُوا فِي شَرٍّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ» وقعوا في ماذا؟ - فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ - أنتم الآن فررتم من تشبيه الله عز

---

[1] أكد الشيخ على سهولة هذه القاعدة (التدميرية) بشرط فهمها وتحليل ألفاظها

وجل بالموجود أو المعدوم، قلتم ما نثبت الوجود لئلا نشبه بالموجود ولا ننفي عنه الوجود لئلا نشبهه بالمعدوم، وقعتم في شر مما فررتم منه ، فررتم من التشبيه فوقعتم في شر من التشبيه الذي فررتم منه، شبهتم الله عز وجل بالممتنع، والممتنع هو الذي ليس بموجود ولا معدوم، وأيهما أخف أن تشبه الله عز وجل بالموجود أو بالمعدوم الذي يمكن أن يوجد أو بالمعدوم الذي لا يمكن أن يوجد، لاشك أن أسوأ هذه الأشياء أن تشبه الله بالمعدوم الذي لا يمكن أن يوجد، فأراد المؤلف أن يبين كيف شبهوا بالممتنعات - إِذْ سَلْبُ النَّقِيضَيْنِ كَجَمْعِ النَّقِيضَيْنِ كِلَاهُمَا مِنْ الْمُمْتَنِعَاتِ» سلب النقيضين نفي النقيضين لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت، كقول القائل: (الشيء هذا موجودٌ معدوم) (حي ميت) أنتم ما تقبلون هذا؛ تقولون: ممتنع، نقول لكم: أيضًا سلب النقيضين ممتنع، فأنتم شبهتم الله بهذه الممتنعات.

يقول المؤلف: «وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْوُجُودَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ - الشيخ الآن سيذكر لهم مثال عقلي يُثبت أقل شيء وجود الله عز وجل، فإذا أثبتوا وجود الله لزمهم إثبات بقية الصفات، لأنك إذا قلت الله موجود، وقلنا لك: المخلوق هل هو موجود أم لا؟ قال: موجود، قلنا: إذن اثبت الوجود شبهت الخالق، قال: لا، ما يلزم نقول به في بقية الصفات، يقول: «وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ» يعني العلم الضروري، **ما هو العلم الضروري؟** لما أقول هذا الشيء معلوم ضرورةً معلوم بالاضطرار، هو الذي يضطر إليه الإنسان ولا يمكن دفعه، يعني لا يمكن للإنسان أن يدفعه عن نفسه، لما أقول: الواحد نصف الاثنين، أو السماء فوق الأرض، أو نور الشمس أقوى من نور المصباح؛ هذا علم ضروري لا يمكن أن أدفعه عن عقلي، ولو جاء الإنسان وغالط وقال: لا؛ نور السراج أقوى من نور الشمس، قالوا له الناس أنت مجنون، لأن هذا معلوم بالاضطرار، وعُرف أيضا العلم الضروري بأنه مالا يحتاج إلى تأمل ونظر، ما يحتاج بأنك تفكر وتضع مقدمات ونتائج، لا؛ يضطر لها الإنسان اضطرارًا، والعلم الضروري يكون بالعقل ويكون بالشرع، ويكون بالحس -

أَنَّ الْوُجُودَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ وَاجِبٍ بِذَاتِهِ - الإنسان ضرورةً يعرف أن هذا القلم لما وُجد لابد له من مُوجد من مخترع لا يمكن للشيء أن يوجد بنفسه، وهذا المؤلف سيذكر عليه دليل من القرآن «لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ وَاجِبٍ بِذَاتِهِ» هذا الوجود الذي هو العالم (الكون) لابد أن له موجد، يستحيل أنه وجد بغير موجد.

«وَاجِبٍ بِذَاتِهِ» واجب الوجود بذاته ما هو؟

هو الذي لا يقبل الحدوث ولا العدم بذاته لا بغيره، لا يقبل الحدوث يعني لم يكن معدوم ثم وجد، ولا يقبل العدم بعد وجوده، وهذا لا يصْدق إلا على شيء واحد هو الله عز وجل، إذًا هذا الوجود كان معدوم وجوده يستلزم وجود موجد، لو قلنا: هذا الموجد له مثل وجود هذا العالَم لجعلنا العالَم هو الخالق لنفسه، وهذا مستحيل أن يكون الشيء مخلوق موجود في آن واحد، إذن هو يستلزم وجود واجب الوجود بذاته الذي لا يقبل الحدوث ولا يقبل العدم - غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ - يعني ليس مفتقر لغيره، كما هي الحال بالنسبة للمخلوق؛ مثل: الذي صنع هذا القلم مخلوق هو الذي أوجده لكن هل هو واجب الوجود بذاته؟ لا، الذي صنع هذا القلم وُجد من العدم ومآله إلى الفناء، هل هو غني عما سواه؟ أبدًا يستحيل؛ لولا أن الله وهبه عقل وعلم ووهبه مادة يركب منها هذا القلم ووهب له أمور كثيرة لما استطاع أن يخترع هذا القلم - قَدِيمٍ أَزَلِيٍّ - قديم بمعنى هو الأول؛ هذه من عبارات المتكلمين ويستخدمها أهل السنة في معرض الرد ومعرض العرض أن يُخبر الله عز وجل عنه أنه قديم، والقديم ما لا أول له في اصطلاح المتكلمين، (أزلي) تأكيد لقضية القِدَم؛ بأنه ليس له بداية ليس له أول سبحانه وتعالى -

لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحُدُوثُ وَلَا الْعَدَمُ - هذا تعريف واجب الوجود، لم يُحدث يعني كان معدومًا ثم وجد، ولا يلحقه العدم إذا وُجد أنه يعدم، وهذه الصفات لا يتصف بها إلا الله عز وجل - فَوَصَفُوهُ-هؤلاء الغلاة- بِمَا يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ - يعني واجب الوجود على النقيض تمامًا من ممتنع الوجود - فَضْلًا عَنْ الْوُجُوبِ أَوْ الْوُجُودِ أَوْ الْقِدَمِ.»

القِدَم عندنا: قِدَم نسبي، وقِدَم مطلق، القدم النسبي كقِدَم الوالد على ابنه متقدم عليه هذا قِدَم نسبي، أما القِدَم المطلق وهو التقدم على كل شيء وهذا خاص بالله عز وجل.

▪ **يقول المؤلف**: «وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ - يعني قارب الغلاة؛ لكن ليسوا على مذهبهم - مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَأَتْبَاعَهُمْ فَوَصَفُوهُ - أي الله عز وجل - بِالسُّلُوبِ وَالْإِضَافَاتِ دُونَ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ، وَجَعَلُوهُ هُوَ الْوُجُودَ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ - وصفوه بالسلوب، ما معنى بالسلوب؟ أي وصفوا الله بالنفي؛ ليس بكذا ولا كذا ولا كذا ولا كذا، أو وصفوه بالصفات الإضافية ما هي الصفات الإضافية؟ عبارة عن: ماهيتين تَعَقُّل كل واحدةٍ منهما لا يتم إلا بتعقل الأخرى، أو ما يُعقل ماهيته بالقياس إلى الغير؛ مثل: البنوّة والأبوّة، هل يمكن أن يُسمى هذا ابن إلا بالأب ولا يُسمى أب إلا بالابن، يعني يوصف أنه أب إذا وجد الابن وإلا لا يوصف بأب، ويوصف هذا الشخص بأنه ابن إذا كان له أب، يوصف أيضًا بالقبلية والبَعدية، يوصف هذا الشيء بالبعد إذا كان فيه شيء قبله، ويوصف بالقبل إذا أتى شيءٌ بعده؛ فهؤلاء وصفوا الله عز وجل بالصفات السلبية أو الصفات الإضافية.

مثال الصفات الإضافية: لما وصف الله عز وجل بأنه (عِلّة) تعالى الله، يعني عِلة في الأشياء، هذه وصفة إضافية يعني لا يمكن أن يُسمى أو يوصف بالعلة إلا بوجود المعلول الذي هو المخلوق؛ ولهذا قال الشيخ: «فَوَصَفُوهُ بِالسُّلُوبِ وَالْإِضَافَاتِ دُونَ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ» لم يثبتوا له السمع والبصر كما أثبتها القرآن له، «وَجَعَلُوهُ هُوَ الْوُجُودَ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ» كما قلنا سابقًا الوجود المطلق الذي لا يتخصص ولا يتعين، بشرط الإطلاق؛ يعني يشترطون ألا تقيده بأي صفة، وإلا يصفونه بالسلب ليس بكذا ولا كذا ولا كذا -

وَقَدْ عُلِمَ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إلَّا فِي الذِّهْنِ لَا فِيمَا خَرَجَ عَنْهُ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ - يعني هذا الشيء الوجود المطلق وجوده فقط في الذهن ليس موجودًا في الخارج - وَجَعَلُوا الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفَ ، فَجَعَلُوا الْعِلْمَ عَيْنَ الْعَالِمِ - وهذا من المغالطة للعقل جعلوا العلم هو العالِم، والعالِم هو العلم - مُكَابَرَةً لِلْقَضَايَا الْبَدِيهَاتِ - يعني للأشياء المعروفة بديهةً - وَجَعَلُوا هَذِهِ الصِّفَةَ هِيَ الْأُخْرَى - بمعنى جعلوا العلم هو الحكمة، والحكمة هي القدرة، والقدرة هي السمع، والسمع هو البصر - فَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ جَحْدًا لِلْعُلُومِ الضَّرُورِيَّاتِ»

وهذا مما يُعلم ضرورةً بفساده؛ يعني هذا يُعلم بالعقل فساده أن السمع يختلف عن البصر، والبصر تختلف عن القدرة؛ لكن هؤلاء أرادوا أن لا يثبتوا شيئًا من الصفات الثبوتية، وأن يقتصروا فقط على إثبات الصفات السلبية أو الصفات الإضافية. هذا مُجمل مذهب هؤلاء.

المحاضرة (٧)

لازال كلام المؤلف حول نُفَاةِ الصفات، وتقسيم هؤلاء النُفَاة إلى غلاة ومن دونهم، يقول المؤلف تكملة إلى ما تقدم، ذكر المؤلف رحمة الله الغلاة الذين نفوا أو وصفوا الله عز وجل بسلب النقيضين، ثم ذكر من دونهم الذين وصفوا الله بالسلب والإضافات.

▪ **ثم قال المؤلف**: «وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ مَنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ ؛ فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الْأَسْمَاءَ دُونَ مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ الصِّفَاتِ - بمعنى الآن ذكر مذهب المعتزلة، المعتزلة هم أتباع **واصل بن عطاء** سموا بذلك لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري -رحمه الله- لما اختلف هو وإياه في حكم مرتكب الكبيرة، فقال الحسن: (اعتزلنا واصل) فسموا معتزلة، هؤلاء مذهبهم في الأسماء والصفات أنهم يثبتون الأسماء دون الصفات، يقول: فأثبتوا له الأسماء دون ما تضمنته من الصفات، يقولون: سميع؛ لكن لا يتصف بالسمع، بصير لا يتصف بالبصر، حيّ؛ لكن لا يتصف بالحياة - فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الْعَلِيمَ وَالْقَدِيرَ ، وَالسَّمِيعَ ،

وَالْبَصِيرَ ، كَالْأَعْلَامِ الْمَحْضَةِ – العَلَم المحض المقصود به: اللفظ الذي لا يدل إلا على العَلَمية ولا يدل على الوصفية، لما أقول: (خالد) هذا علم على هذا الشخص؛ لكن لا يدل على أنه خالد لن يفنى فهذا يدل على العلمية وليس على الوصفية، كذلك إذا سميت امرأة ب(جميلة) ؛ لكن قد لا تكون جميلة، فلا يؤخذ من الاسم وصف؛ فهذا يُسمى أعلام محضة، فهم جعلوا أسماء الله أعلام محضة – كَالْأَعْلَامِ الْمَحْضَةِ الْمُتَرَادِفَاتِ – **الترادف**: اختلاف اللفظ واتحاد المعنى، يقول: نعم يُسمى سميع، بصير، حيّ، عليم، قدير؛ لكن لا يتصف بهذه الصفات هي أعلام مختلفة في اللفظ تدل على ذات واحدة غير متصفة بأي شيء من الصفات – وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ عَلِيمٌ بِلَا عِلْمٍ قَدِيرٌ بِلَا قُدْرَةٍ سَمِيعٌ بَصِيرٌ بِلَا سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ فَأَثْبَتُوا الِاسْمَ دُونَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ الصِّفَاتِ – **الخلاف بينهم خلاف لفظي**، أولئك أثبتوا الأسماء دون أن ينصوا على نفي الصفة، وهؤلاء الطائفة من المعتزلة قالوا: لابد أن نقول: سميع بلا سمع؛ نؤكد على أن تسميتنا له سميع لا يُؤخذ منه إثبات السمع، فالخلاف بينهم لفظي لا أقل ولا أكثر، أولئك قالوا: سميع بصير؛ لكن لا يوصف بشيء مما تضمنته، وهؤلاء قالوا: لا، لابد إذا سمّيناه أن نقيد هذا بنفي الصفة سميع بلا سمع بصير بلا بصر عليم بلا علم – وَالْكَلَامُ عَلَى فَسَادِ مَقَالَةِ هَؤُلَاءِ وَبَيَانِ تَنَاقُضِهَا بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ الْمُطَابِقِ لِصَحِيحِ الْمَنْقُولِ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ» يعني يقول: ليس هذا مجال الآن مناقشة هؤلاء المعتزلة فيما ذهبوا إليه إنما المقصود أن نمثل لكم بمذهب المعطلة وكيف خالفوا منهج الرسل ومنهج القرآن.

يقول المؤلف: «وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ – جميع فرق المعطلة السابقة الغلاة ومن دونهم – يَفِرُّونَ مِنْ شَيْءٍ فَيَقَعُونَ فِي نَظِيرِهِ وَفِي شَرٍّ مِنْهُ – الجميع من هؤلاء المعطلة **من ماذا فروا؟** فروا من خشية الوقوع في التشبيه فنفوا عن الله هذه الصفات وهذه الأسماء، والغلاة نفوا عنه النقيضين خشية الوقوع في التشبيه. يقول الشيخ: «فَيَقَعُونَ فِي نَظِيرِهِ وَفِي شَرٍّ مِنْهُ» يعني شبهوا الله بشيء آخر وأحيانًا شر منه، فلاحظوا الغلاة لما فروا من تشبيه الله بالموجودات شبهوه بالممتنعات وليس بالمعدومات، المعتزلة فرو من تشبيهه بالموجودات وشبهوه بالجمادات، شبهوه بالكائنات الحية الناقصة – مَعَ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ – يعني لاحظوا كونهم وقعوا في شر مما فروا منه، وأيضًا لزمهم التحريف والتعطيل، حرفوا الكلِم عن مواضعه، حرفوا نصوص الشرع، عطلوا الرب سبحانه وتعالى عما يستحقه من الصفات – وَلَوْ أَمْعَنُوا النَّظَرَ لَسَوَّوْا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَاتِ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَعْقُولَاتُ – هذا هو الذي يقتضيه العقل – وَلَكَانُوا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ – لاحظوا؛ هم فرقوا بين المتساويات (المتماثلات) مثل ما فرق المعتزلة بين الأسماء والصفات، كيف تثبت الاسم وتنفي الصفة! إن كان إثبات الاسم لا يقتضي التشبيه والتمثيل؛ فإثبات الصفة لا تقتضي التشبيه والتمثيل، فإن كان إثبات الصفة يقتضي التشبيه والتمثيل، فإثبات الاسم يقتضي التشبيه والتمثيل، فهم فرقوا بين المتماثلات وسوّوا بين المختلفات، مثل: ما صنع الفلاسفة والباطنية لما قالوا: الصفة هي عين الموصوف وهذه الصفة هي الصفة الثانية هذه تسوية بين المختلفات، من قال: أن السمع هو البصر؟ من قال: أن العلم هو القدرة؟ العلم شيء والقدرة شيء آخر، فهم سوّوا بين المختلفات وفرقوا بين المتماثلات –

وَلَكِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَجْهُولَاتِ – يعني ليس معهم علم ، ليس معهم إلا الجهل حجتهم شبهات زعموا أنها معقولات وزعموا أنها حُجج عقلية، وما هي إلا سراب بقيعة إذا جاءه الظمآن لم يجده شيئًا؛ فهم من أهل المجهولات – الْمُشَبَّهَةِ بِالْمَعْقُولَاتِ – بمعنى الذين وقعوا في التشبيه – يُسَفْسِطُونَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ – بمعنى أنهم يسلكون مسلك السفسطائيين في الجوانب العقلية، **السفسطائيين**: هم الذين ينكرون كل ما هو ليس بحس – وَيُقَرْمِطُونَ فِي السَّمْعِيَّاتِ» أي: يسلكون مسالك القرامطة في الأدلة السمعية، بمعنى أنهم يحرفونها ويتلاعبون بها كما تلاعب القرامطة بنصوص الشرع.

ثم قال المؤلف بعد ذلك: «وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ – الآن يرد عليهم رد إجمالي ليبين لهم أن إثبات الصفة لا

يستلزم التشبيه، الشيخ يريد أن يثبت لهم أنكم فررتم من التشبيه فنحن نثبت لكم أن إثبات الصفة لا يستلزم التشبيه - أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَوْجُودٍ قَدِيمٍ غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ» هذا تقدم الكلام عنه - إِذْ نَحْنُ - يعني ما الدليل على وجود هذا الواجب الوجود الغني عما سواه؟ الدليل على وجوده وجود هذه الموجودات - نُشَاهِدُ - هذا دليل عقلي على إثبات وجود الله- حُدُوثَ الْمُحْدَثَاتِ، كَالْحَيَوَانِ وَالْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ - نشاهد الآن حدوث الليل والنهار، خروج النبات، ولادة المولودات- وَالْحَادِثُ مُمْكِنٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ -

هذا الشيء الذي حدث ممكن؛ يعني ممكن الوجود،

وليس بواجب؛ لأنه كان معدومًا؛ فعدمه دليل على عدم وجوبه.

ولا ممتنع؛ لأنه لو كان ممتنعًا لما وجد؛ فوجوده دليلٌ على عدم امتناعه.

حدوثه دليلٌ على عدم وجوبه؛ لو كان واجب الوجود لم يكن معدومًا ثم وجد، ووجوده دليلٌ على عدم امتناعه.

إذن (**وجوده دليلٌ على عدم امتناعه، وحدوثه دليلٌ على عدم وجوبه**) هذه قاعدة، وجوده دليلٌ على عدم امتناعه، إذ لو كان معدومًا لم يكن ولم يوجد، وحدوثه بعد أن لم يكن دليلٌ على عدم وجوبه، إذ لو كان واجب الوجود لم يكن معدمًا ثم حدث -

وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْمُحْدَثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ - نحن نعلم ضرورةً بالعقل أن أيّ محدَث موجود لابد له من موجِد، والممكن لا بد له من واجب، إذا كان هذا الشيء ممكن الوجوب لابد له من واجب الوجود، ما الدليل على ذلك؟ -

كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ - هذا مستحيل، ولهذا أضرب عز وجل عن الإجابة فالله لم يذكر الإجابة؛ لأن الإجابة معلومة ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ هذا مستحيل، ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أشد استحالة، يعني كيف يكون الإنسان خالق لنفسه، بمعنى أن يكون موجود معدوم في آنٍ واحد، وهذا كما عرفنا هذا من الجمع بين النقيضين وهذا مستحيل عقلًا، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، تعينت القسمة الثالثة أن لهم خالقًا غيرهم وهو الله سبحانه وتعالى أوجدهم متصف بالوجوب - وَلَا هُمْ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ تَعَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ»

يقول المؤلف: «وَإِذَا كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فِي الْوُجُودِ مَا هُوَ قَدِيمٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ وَمَا هُوَ مُحْدَثٌ مُمْكِنٌ - الوجود متضمن: (واجب الوجود بنفسه) و (حادث ممكن) يعني الوجود ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما: حادث ممكن وهو هذا العَالَم ما سوى الله عز وجل، وواجب الوجود وهو الله الذي أوجد هذا العَالَم - يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ - العالَم هذا يقبل الوجود والعدم، ولهذا وُجد من لا شيء خلقه الله من لا شيء وسيفنى وسيعدم، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود هذا هو الشاهد، المؤلف يريد أن يتوصل إلى هذه النتيجة، يقول: أنتم الآن أثبتم أن العالم موجود والله موجود هذا موجود وهذا موجود هذا موصوف بالوجود وهذا موصوف بالوجود؛ لكن هل يقول عاقل: أن وجود هذا مثل وجود هذا؟ عقلًا لا يمكن، إذا كان هذا في الوجود فبقية الصفات من باب أولى - فَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ اتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ - عند الإطلاق هذا يسمى (موجود) وهذا (موجود) مطلق، إذا قلنا: (موجود) دخل فيه وجود الخالق ووجود المخلوق؛ لأن الوجود هنا الذي يفرضه الذهن هو ضد العدم، وهذا يصدق على الخالق ويصدق على المخلوق يصدق على هذا العالَم ويصدق على الله عز وجل - وَلَا يَلْزَمُ مِنْ اتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ عند الاطلاق أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا مِثْلَ وُجُودِ هَذَا بَلْ وُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ وَوُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ - أي وجود الله يخصه، ووجود المخلوق يخصه- وَاتِّفَاقُهُمَا فِي اسْمٍ عَامٍّ - يعني الوجود المطلق؛ كون كل واحد منهم يطلق عليه موجود - لَا يَقْتَضِي تَمَاثُلَهُمَا فِي مُسَمَّى ذَلِكَ الِاسْمِ عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ وَالتَّقْيِيدِ - كونهم اتفقا عند الإطلاق (موجود) لا يلزم منه التماثل عند التقييد والإضافة والتخصيص، لما أضفنا وجود الخالق أضفناه وقيدناه وخصصناه بالخالق، وقلنا: وجود المخلوق

أضفناه وقيدناه وخصصناه بالمخلوق ، صار لهذا وجود يخصه وهذا له وجود يخصه، وإن كانوا في الذهن لما قلنا: هذا موجود وهذا موجود اتفقا في مسمى الوجود الذي هو ضد العدم - وَلَا فِي غَيْرِهِ، فَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ إِذَا قِيلَ أَنَّ الْعَرْشَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ وَأَنَّ الْبَعُوضَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ : إِنَّ هَذَا مِثْلَ هَذَا ؛ لِاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الشَّيْءِ وَالْوُجُودِ - الشيخ قرّب بمثال حسي، أنت الآن إذا قلت: البعوضة شيء موجود والعرش شيء موجود، الآن البعوضة والعرش اتفقا في مسمى الشيء ومسمى الوجود، لكن هل يقول عاقل: أن وجود البعوضة مثل وجود العرش، هل كون البعوضة شيء مثل كون العرش شيء؟ ما يقول هذا عاقل، إذا كان هذا في حق المخلوق مع المخلوق فالخالق مع المخلوق من باب أولى - لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ، بَلْ الذِّهْنُ يَأْخُذُ مَعْنًى مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا - الذهن لما قلت له: موجود؛ فرضَ الذهن أن الوجود ضد العدم؛ صار فيه معنى مشترك بين وجود الخالق ووجود المخلوق - هُوَ مُسَمَّى الِاسْمِ الْمُطْلَقِ، وَإِذَا قِيلَ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ، فَوُجُودُ كُلٍّ مِنْهُمَا يَخُصُّهُ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ ؛ مَعَ أَنَّ الِاسْمَ حَقِيقَةٌ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا» إذا قلت المخلوق موجود فعلًا موجود حقيقةً، وإذا قلت الخالق موجود فعلًا موجود حقيقةً، لكن هل وجود الخالق مثل وجود المخلوق؟ لا. هل يتفقان؟ نعم، يتفقان في الذهن في مطلق الوجود قبل التقييد وقبل التخصيص.

يقول المؤلف: «وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ وَسَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ ؛ وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مُخْتَصَّةً بِهِ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَسَمَّى بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ بِأَسْمَاءِ مُخْتَصَّةٍ بِهِمْ مُضَافَةٍ إِلَيْهِمْ - يعني يقول: الله عز وجل في القرآن سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات، وسَمّى بعض مخلوقاته بهذه الأسماء وبهذه الصفات، يشتركان في الإطلاق لكن يتقيدان عند التخصيص والتقييد وسيضرب على هذا أمثلة بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم - تُوَافِقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ إِذَا قُطِعَتْ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ - يعني هذا الاسم لما سمى الله عز وجل نفسه العزيز وسمى صاحب يوسف العزيز اتفقا في مسمى العزيز عند الإطلاق؛ لكن إذا قلنا: عزيز مصر اختلف اسم العزيز عن اسم العزيز المنسوب لله عز وجل العزيز الجبار؛ لأنه هنا قيدناه وخصصناه بالله عز وجل، وهذا قيدناه وخصصناه بعزيز مصر - وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ اتِّفَاقِ الِاسْمَيْنِ وَتَمَاثُلِ مُسَمَّاهُمَا وَاتِّحَادِهِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّجْرِيدِ عَنْ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ اتِّفَاقُهُمَا - يعني إذا أطلقنا العزيز ربما يكون عزيز مصر وربما يكون الله عز وجل، لا يلزم إذا قيدنا وقلنا: العزيز الله أو عزيز مصر أن يكون العزة المنسوبة لعزيز مصر مثل العزة المنسوبة لله عز وجل - وَلَا تَمَاثُلَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَّحِدَ مُسَمَّاهُمَا عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ» يعني يستحيل أننا إذا أضفناهما وخصصناهما أن يكون فيه اتفاق أو تماثل بل لكلٍ منهما ما يخصه، ولهذا قلنا سابقا :-تذكروها دائما واجعلوها في أذهانكم- أن المِثل المنفي عن الله أن يوصف بشيء من خصائص المخلوق أو يوصف المخلوق بشيء من خصائص الخالق؛ لكن يوصف بمطلق الحياة هذا ما فيه إشكال، إشكال أن تصف المخلوق بحياة كحياة الله عز وجل، أو تصف الله عز وجل بحياة كحياة المخلوق.

ثم ذكر أمثلة على الكلام السابق:

يقول المؤلف: «فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ حَيًّا فَقَالَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ حَيًّا؛ فَقَالَ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ - لاحظ؛ هنا المخلوق سمّي حي وهناك سمّى نفسه حي؛ لكن هل يقول عاقل: إن الخالق مثل المخلوق لأنهم اتحدا في الاسم؟ لا يمكن هذا، لأنه هنا الآن تقيد وتخصص فصار لكل منهما ما يخصه؛ حياة المخلوق خاصة به، وحياة الخالق خاصة به سبحانه وتعالى - وَلَيْسَ هَذَا الْحَيُّ مِثْلَ هَذَا الْحَيِّ لِأَنَّ قَوْلَهُ الْحَيَّ اسْمٌ لِلَّهِ مُخْتَصٌّ بِهِ وَقَوْلَهُ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ اسْمٌ لِلْحَيِّ الْمَخْلُوقِ مُخْتَصٌّ بِهِ، وَإِنَّمَا يَتَّفِقَانِ إِذَا أُطْلِقَا وَجُرِّدَا عَنْ التَّخْصِيصِ - إذا قلنا: (حي) ما خصصنا أو قلنا: (الحي) ما خصصنا به الخالق ولا المخلوق هنا فيه اتفاق؛ لا ندري من هو الحي؟ لكن إذا قلنا: (زيد الحي) هنا صار هذا الاسم خاص

بزيد، (الله الحي) هذا خاص بالله عز وجل - وَلَكِنْ لَيْسَ لِلْمُطْلَقِ مُسَمًّى مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ؛ وَلَكِنَّ الْعَقْلَ يَفْهَمُ مِنْ الْمُطْلَقِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ وَعِنْدَ الِاخْتِصَاصِ يُقَيِّدُ ذَلِكَ بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْخَالِقُ عَنْ الْمَخْلُوقِ وَالْمَخْلُوقُ عَنْ الْخَالِقِ - يعني ما فيه كما ذكرنا سابقًا أنه في الخارج وجود مطلق ما تجد في الخارج (حي) مطلق أبدًا هذا موجود في الذهن؛ لكن إذا وجد في الخارج تقيد، إذا قلت: (الحي) في الخارج لابد أُقيده، حياة زيد حياة عمر حياة هذا الحيوان حياة هذا النبات حياة الله عز وجل، تَقَيّد بما أضيف إليه، فالاشتراك يكون لمّا كان في الذهن قبل ما يوجد في الخارج - وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا فِي جَمِيعِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ يُفْهَمُ مِنْهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْمُ بِالْمُوَاطَأَةِ وَالِاتِّفَاقِ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ وَالِاخْتِصَاصِ - يقول: أسماء الله عز وجل إذا أُطلقت لها معنى، وإذا قيدت ونسبت وخصصت لله عز وجل لها معنى آخر، فإذا قلت: (الحي) كذا مطلق فهو ضد الموت، يصدق على الخالق والمخلوق؛ لكن إذا قلت: (حياة الله عز وجل) لا، ليس فقط ضد الموت، بل الحياة الكاملة الحياة، التي لم يسبقها العدم الحياة، التي لا يلحقها الفناء، الحياة السالمة من النوم، الحياة السالمة من السِّنة، الحياة السالمة من الأمراض، وإذا قلت: (زيد الحي) علمت ما هي الحياة، ليس فقط ضد الموت، بل الحياة الناقصة وجدت من العدم ومآلها إلى الفناء، يعتريها النقص كالسِّنة والنوم ... إلى آخره.

الآن سيذكر الشيخ مجموعة من الأمثلة سنمر عليها سريعًا لأنها واضحة، لأن القاعدة اتضحت (أن الله يسمي نفسه بأسماء ويسمي عباده بأسماء، يتفقان ويشتركان عند الإطلاق في الذهن، ويتقيدان عند التخصيص والتقييد في الخارج.)

وَكَذَلِكَ سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ عَلِيمًا حَلِيمًا وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ عَلِيمًا ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وقال في حق المخلوق: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ يَعْنِي إسْحَاقَ وَسَمَّى آخَرَ حَلِيمًا فَقَالَ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ يَعْنِي إسْمَاعِيلَ وَلَيْسَ الْعَلِيمُ كَالْعَلِيمِ وَلَا الْحَلِيمُ كَالْحَلِيمِ وَسَمَّى نَفْسَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ سَمِيعًا بَصِيرًا فَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وَلَيْسَ السَّمِيعُ كَالسَّمِيعِ وَلَا الْبَصِيرُ كَالْبَصِيرِ، وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ فَقَالَ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَيْسَ الرَّءُوفُ كَالرَّءُوفِ وَلَا الرَّحِيمُ كَالرَّحِيمِ، وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْمَلِكِ فَقَالَ: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمَلِكِ فَقَالَ: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وقال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ وَلَيْسَ الْمَلِكُ كَالْمَلِكِ، وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْمُؤْمِنِ الْمُهَيْمِنِ ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمُؤْمِنِ فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُؤْمِنِ، وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْعَزِيزِ فَقَالَ: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وَلَيْسَ الْعَزِيزُ كَالْعَزِيزِ وَسَمَّى نَفْسَهُ الْجَبَّارَ الْمُتَكَبِّرَ وَسَمَّى بَعْضَ خَلْقِهِ بِالْجَبَّارِ الْمُتَكَبِّرِ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ وَلَيْسَ الْجَبَّارُ كَالْجَبَّارِ وَلَا الْمُتَكَبِّرُ كَالْمُتَكَبِّرِ وَنَظَائِرُ هَذَا مُتَعَدِّدَةٌ.»

ثم انتقل يذكر أيضًا أمثلة على أن الله وصف نفسه بصفات ووصف عباده بصفات:

قال المؤلف: «وَكَذَلِكَ سَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءِ وَسَمَّى صِفَاتِ عِبَادِهِ بِنَظِيرِ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وقال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ -هنا أن الله موصوف بالعلم- وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ صِفَةَ الْمَخْلُوقِ عِلْمًا وَقُوَّةً فَقَالَ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾»

هنا وصف المخلوق بالعلم؛ لكن ليس العلم كالعلم، ولا القوة كالقوة، وذكر أيضا بقية الصفات كما ذكر سبحانه وتعالى في المشيئة، في الرضا، في السخط، في الغضب، الكيد، المكر وصف المخلوق بهذا والخالق بهذا، بالمناداة، بالمناجاة، بالتكليم، وصف نفسه بالتنبئة ووصف المخلوق بالتنبئة وبالتعليم وصف نفسه بالتعليم، وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف المخلوق

بالاستواء ووصف ببسط اليدين، ووصف المخلوق أيضا ببسط اليدين إلى آخره، ولا يقول عاقل أن صفة المخلوق مثل صفة الخالق.

المحاضرة (٨)

قد ذكرنا بعض الأسماء والصفات التي يتوافق فيها الخالق والمخلوق في الاسم العام، بمعنى قبل أن يتخصص ويتعين.

يقول المؤلف ختامًا وخلاصةً لما تقدم: «فَلَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ وَنَفْيِ مُمَاثَلَتِهِ بِخَلْقِهِ - لابد مع الإثبات نفي المماثلة، نثبت لله السمع؛ لكن ما نقول كما يقول الممثلة: سمعٌ كسمع المخلوق، لا، لله سمع يليق به سبحانه وتعالى، ولله استواء يليق به سبحانه - فَمَنْ قَالَ: لَيْسَ لِلهِ عِلْمٌ وَلَا قُوَّةٌ وَلَا رَحْمَةٌ وَلَا كَلَامٌ وَلَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى وَلَا نَادَى وَلَا نَاجَى وَلَا اسْتَوَى كَانَ مُعَطِّلًا جَاحِدًا، مُمَثِّلًا لِلهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ - يعني: من نفى عن الله عز وجل هذه الصفات وما ماثلها من بقية الصفات «كَانَ مُعَطِّلًا جَاحِدًا» بمعنى: أنه لم يثبت كما أثبتت النصوص، «مُمَثِّلًا لِلهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ» هو فر من التمثيل فوقع في تمثيل شر منه، ألا وهو التمثيل بالمعدومات والجمادات وتقدم الكلام على هذا - وَمَنْ قَالَ لَهُ عِلْمٌ كَعِلْمِي أَوْ قُوَّةٌ كَقُوَّتِي أَوْ حُبٌّ كَحُبِّي أَوْ رِضَاءٌ كَرِضَايَ أَوْ يَدَانِ كيداي أَوْ اسْتِوَاءٌ كَاسْتِوَائِي كَانَ مُشَبِّهًا مُمَثِّلًا لِلهِ بِالْحَيَوَانَاتِ - وهذا مذهب الممثلة المشبهة - بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتٍ بِلَا تَمْثِيلٍ وَتَنْزِيهٍ بِلَا تَعْطِيلٍ - وهذا هو منهج الرسل -عليهم الصلاة والسلام - ومنهج سلف الأمة تمشيًا مع قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ -

وَيَتَبَيَّنُ هَذَا؛ (بِأَصْلَيْنِ شَرِيفَيْنِ) وَ (مَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ)- وَلِلهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - وَ(بِخَاتِمَةٍ جَامِعَةٍ)» أي : يتبين هذا الأمر، وتتبين هذه القاعدة والخلاصة.

الأصل الأول

يقول المؤلف: «فَأَمَّا الْأَصْلَانِ: فَأَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: (الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ) -

هذه قاعدة عامة، يمكن أن يرد بها على أي معطل أيًا كان تعطيله حتى لو لم يعطل إلا صفة واحدة، فنرد عليه بهذه القاعدة الجامعة المانعة؛ وهي أن القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، سننظر كيف أن المؤلف طبق هذه القاعدة، وهذا الأصل في الرد على كل معطل، ابتدأ بأخف فرق التعطيل ألا وهم: (الأشاعرة) أو مذهب جمهور الأشاعرة؛ لأن الأشاعرة فيما بينهم مختلفون -كما ذكر الشيخ في غير هذا الكتاب– في عدد الصفات التي يثبتونها؛ لكن جمهور الأشاعرة متفقون على إثبات سبع صفات يسمونها (الصفات العقلية) أي التي دل عليها العقل، وينفون ما عداها من الصفات.

ابتدأ المؤلف في استخدام هذا الأصل وهذه القاعدة في الرد على الأشاعرة، كما أنه سيرد بهذا الأصل على المعتزلة وعلى الغلاة الذين هم الجهمية -

فَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يُقَرُّ: بِأَنَّ اللهَ حَيٌّ بِحَيَاةٍ عَلِيمٌ بِعِلْمٍ، قَدِيرٌ بِقُدْرَةٍ، سَمِيعٌ بِسَمْعٍ، بَصِيرٌ بِبَصَرٍ، مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ مُرِيدٌ بِإِرَادَةٍ - هذا هو مذهب الأشاعرة، إثبات هذه الصفات السبع: (الحياة، العلم، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام)- وَيَجْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقِيقَةً وَيُنَازِعُ فِي مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَكَرَاهَتِهِ - إن كان ممن يقر ويثبت لله –عز وجل– هذه الصفات حقيقةً وينازع في محبته، ورضاه، وغضبه، وكراهيته يعني: ينفي ماعدا هذه الصفات السبع ومثّل الشيخ بهذه الصفات الأربع: المحبة، والرضا، والغضب، والكراهية، فهم لا يثبتونها لله –عز وجل – ينفونها عن الله عز وجل - فَيَجْعَلُ ذَلِكَ مَجَازًا - إذا قلت له: الله عز وجل وصف نفسه بهذه الصفات كقوله: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ قالوا: نسبة الرضا هنا لله مجاز وليس بحقيقة؛ لأنه لا يتصف بهذه الصفة - وَيُفَسِّرُهُ إِمَّا بِالْإِرَادَةِ – يعني: يفسر الرضا ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يقول: الرضا المقصود به هنا:

إرادة الإنعام، أو في ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يقول: إرادة الإنعام لهم، أراد الإنعام لهم ففسر المحبة والرضا بإرادة الإنعام، أو يفسر الغضب والكراهية بإرادة الانتقام، فيقول في قول الله عز وجل: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يقول: أراد أن ينتقم منه، فرارًا من أن يثبت لله صفة الغضب - وَإِمَّا بِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ النِّعَمِ وَالْعُقُوبَاتِ - فيفسر مثلًا الرضا بالجنة، ويفسر الغضب بالنار، «بِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ النِّعَمِ» فالجنة والنار مخلوقتان، فيقول: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أدخلهم النار، الشاهد: أنه يؤول هذه الصفات ليفر من إثباتها لله - فَيُقَالُ لَهُ: - الرد على هذا الأشعري الذي أثبت بعض الصفات ونفى البعض - لَا فَرْقَ بَيْنَ مَا نَفَيْتَهُ وَبَيْنَ مَا أَثْبَتَهُ، بَلْ الْقَوْلُ فِي أَحَدِهِمَا كَالْقَوْلِ فِي الْآخَرِ - قوله: «مَا نَفَيْتَهُ» ماعدا الصفات السبع «وَبَيْنَ مَا أَثْبَتَهُ» أي هذه الصفات السبع، يعني: ما لفرق بين ما نفيته وما أثبته؟! ، فلا فرق بينهما، «بَلْ الْقَوْلُ فِي أَحَدِهِمَا كَالْقَوْلِ فِي الْآخَرِ» لماذا؟ لأن الموصوف بها واحد وهو الله ومصدر تلقيها واحد هو الوحي - فَإِنْ قُلْت: - إذا قال الأشعري - إنَّ إرَادَتَهُ مِثْلُ إرَادَةِ الْمَخْلُوقِينَ، فَكَذَلِكَ مَحَبَّتُهُ وَرِضَاهُ وَغَضَبُهُ، وَهَذَا هُوَ التَّمْثِيلُ - إن أثبت الإرادة لله على الوجه الثابت للمخلوق فكذلك الرضا والمحبة والغضب، وهذا تمثيل، والله نفى عن نفسه التمثيل - وَإِنْ قُلْت : إنَّ لَهُ إرَادَةً تَلِيقُ بِهِ ؛ كَمَا أَنَّ لِلْمَخْلُوقِ إرَادَةً تَلِيقُ بِهِ - قال: أنا أثبت لله الإرادة؛ لكن على الوجه اللائق به وليس كإرادة المخلوق.

الرد عليه مباشرة: - قِيلَ لَك: وَكَذَلِكَ لَهُ مَحَبَّةٌ تَلِيقُ بِهِ، وَلِلْمَخْلُوقِ مَحَبَّةٌ تَلِيقُ بِهِ، وَلَهُ رِضًا وَغَضَبٌ يَلِيقُ بِهِ وَلِلْمَخْلُوقِ رِضًا وَغَضَبٌ يَلِيقُ بِهِ - يعني المسألة واحدة أنت تفرق الآن بين المتماثلات، ولهذا الشيخ قال فيما سبق: أنهم فرقوا بين المتماثلات - وَإِنْ قُلْت: الْغَضَبُ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ لِطَلَبِ الِانْتِقَامِ - قال: أنا لا يمكن أن أثبت لله صفة الانتقام لماذا؟ قال: لأني لا أفهم من الغضب إلا غليان دم القلب لطلب الانتقام؛ صحيح هذا مفهوم الغضب؛ لكن غضب من؟ غضب المخلوق - فَيُقَالُ لَهُ : وَالْإِرَادَةُ مَيْلُ النَّفْسِ إلَى جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ - أنت الآن تثبت الإرادة لله، ونحن نعرف أن معنى الإرادة: ميل النفس لجلب منفعة أو دفع مضرة - فَإِنْ قُلْت: هَذِهِ إرَادَةُ الْمَخْلُوقِ، قِيلَ لَك: وَهَذَا غَضَبُ الْمَخْلُوقِ - لما قلنا لك: إن الإرادة ميل النفس، قلت: هذه إرادة المخلوق ليست الإرادة المنسوبة لله، قلنا لك: أيضا والغضب الذي فسرته بغليان دم القلب هو غضب المخلوق وليس غضب الخالق - وَكَذَلِكَ يَلْزَمُ الْقَوْلُ فِي كَلَامِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ ؛ إنْ نفى عَنْهُ الْغَضَبُ وَالْمَحَبَّةُ وَالرِّضَا؛ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ ؛ فَهَذَا مُنْتَفٍ عَنْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَجَمِيعِ الصِّفَاتِ، وَإِنْ قَالَ: أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِهَذَا إلَّا مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِينَ - يعني: لا حقيقة لهذه الصفات الغضب ،والرضا ، والمحبة- فَيَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ - أي يجب نفيها عن الله؛ وهذا كلام الأشعري - قِيلَ لَهُ : وَهَكَذَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ» لا نفهم منها إلا ما هو لائق بالمخلوق فانفِ الجميع.

قال المؤلف: «فَهَذَا الْمُفَرِّقُ بَيْنَ بَعْضِ الصِّفَاتِ وَبَعْضٍ -أي الأشعري- يُقَالُ لَهُ : فِيمَا نَفَاهُ – عدا الصفات السبع السابقة- كَمَا يَقُولُهُ هُوَ لِمُنَازِعِهِ فِيمَا أَثْبَتَهُ - من منازع الأشعري؟ منازعه المعتزلي؛ فالمعتزلي ينفي جميع الصفات، يقول: لأن إثبات السمع والبصر والكلام لله يقتضي التشبيه وهذا كلام المعتزلي للأشعري، فالأشعري مباشرة يقول: لا، إثبات السمع والبصر والكلام لله على الوجه اللائق به، فنحن نقول له في بقية الصفات الكلام الذي قاله للمعتزلي - فَإِذَا قَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ: لَيْسَ لَهُ إرَادَةٌ وَلَا كَلَامٌ قَائِمٌ بِهِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إلَّا بِالْمَخْلُوقَاتِ - لأن المعتزلي لا يثبت لله صفة الإرادة ولا صفة الكلام؛ لأن هذه الصفات خاصة بالمخلوقين - فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ - أي الأشعري - لِلْمُعْتَزِلِيِّ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَتَّصِفُ بِهَا الْقَدِيمُ -أي الله سبحانه - وَلَا تَكُونُ كَصِفَاتِ الْمُحْدَثَاتِ - فيقول الأشعري للمعتزلي: نحن نثبت صفة الكلام لله على الوجه اللائق به، ليس كصفة كلام المخلوق، فهكذا يقول له المثبتون لسائر الصفات، فأهل السنة يقولون للأشعري نفس الكلام ، فما يقوله للمعتزلي نعكسه عليه - فَهَكَذَا يَقُولُ لَهُ الْمُثْبِتُونَ لِسَائِرِ الصِّفَاتِ مِنْ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَنَحْوِ ذَلِكَ.»

قال المؤلف: «فَإِنْ قَالَ: – الآن أتى بحجة جديدة لما فُلج بالحجة السابقة وقيل له: أنت فرقت بين المتماثلات، قال: لا، أنا ما فرقت بين هذه المتماثلات، أنا أثبت بعض هذه الصفات وهي السبع السابقة ونفيت ما عداها بناء على قاعدة عندي، ما هي قاعدتك؟ – تِلْكَ الصِّفَاتُ أُثْبَتَهَا بِالْعَقْلِ – يعني: أنا أثبت هذه الصفات السبع؛ لأن العقل أثبتها لأن الدليل العقلي أثبتها، ما الدليل العقلي على إثبات هذه الصفات السبع؟ الدليل – لِأَنَّ الْفِعْلَ الْحَادِثَ دَلَّ عَلَى الْقُدْرَةِ – ما دليلك العقلي على إثبات صفة القدرة لله؟ قال: الفعل الحادث، كون هذا العالم حادث، فهذا يدل على أن الله قادر، إذ لو لم يكن قادرا لما حدثت هذه المخلوقات، ولما استطاع أن يخلق هذه المخلوقات، دليل في مكانه، دليل عقلي صحيح – وَالتَّخْصِيصَ دَلَّ عَلَى الْإِرَادَةِ – تخصيص المخلوقات بخصائص يتميز بعضها عن بعض يدل على الإرادة، على أن الخالق متصف بالإرادة، أراد أن يخلق هذا الخلق على هذه الصفة، فالسموات لها خصائص تتميز بها عن الأرض، الإنسان له خصائص يتميز بها عن الحيوان، هذه الخصائص التي مُيز كل مخلوق بها دليل على أن الذي خلقها متصف بالإرادة، قلنا: هذا دليل عقلي صحيح على إثبات صفة الإرادة – وَالْإِحْكَامَ دَلَّ عَلَى الْعِلْمِ – كون هذه المخلوقات خلقها الله وهي غاية في الدقة والإحكام، فهذا يدل على أن الذي خلقها متصف بالعلم؛ إذ الجاهل لا يمكن أن يخلق هذا الخلق الذي هو غاية في الإحكام والصنع، قلنا: هذا دليل عقلي صحيح على إثبات صفة العلم – وَهَذِهِ الصِّفَاتُ – التي هي القدرة والإرادة والعلم – مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْحَيَاةِ – أي: لإثبات صفة الحياة – وَالْحَيُّ لَا يَخْلُو عَنْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ أَوْ ضِدِّ ذَلِكَ – واللائق بالله أن يتصف بهذا، قلنا: هذا دليل عقلي صحيح على إثبات هذه الصفات السبع لا نناقشكم فيه، ولا نخالفكم فيه؛ لكن اعتراضنا على أمر آخر.

الآن قال الأشعري: أنا أثبتُ هذه الصفات السبع، ونفيتُ ما عداها؛ لأن العقل أثبتها، قلنا: كلامك بأن العقل أثبت هذه الصفات السبع صحيح؛ لكن سنناقشه فيما نفاه: –

قَالَ لَهُ: سَائِرُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ: لَك جَوَابَانِ: – هذا على فرض التسليم، سلمنا لك على أن العقل دل على إثبات هذه الصفات السبع، ولم يثبت ما عداها، سلمنا لك هذا جدلًا–

أَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: عَدَمُ الدَّلِيلِ الْمُعَيَّنِ – ما هو الدليل المعين هنا؟ الدليل العقلي؛ عدم وجود دليل عقلي على إثبات ماعدا الصفات السبع– لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْمَدْلُولِ الْمُعَيَّنِ – وهو ماعدا الصفات السبع،

لنأخذ صفة واحدة من الصفات التي ينفونها بناء على هذه القاعدة (أن العقل لم يثبتها) صفة المحبة ، لماذا لا تثبتونها؟ قالوا: العقل ما يثبتها، نحن أثبتنا السمع والبصر وبقية الصفات السبع؛ لأن العقل أثبتها، قال الشيخ: «عَدَمُ الدَّلِيلِ الْمُعَيَّنِ» عدم وجود الدليل العقلي على إثبات هذه الصفة –التي هي المحبة– «لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْمَدْلُولِ الْمُعَيَّنِ» يعني لا يستلزم عدم وجود هذه الصفة – فَهَبْ أَنَّ مَا سَلَكْت مِنْ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ لَا يُثْبِتُ ذَلِكَ – يعني لا يثبت ماعدا الصفات السبع، نفترض لو سلمنا لك جدلًا بأن العقل لا يثبت ماعدا الصفات السبع – فَإِنَّهُ لَا يَنْفِيهِ – العقل هل نفى ماعدا الصفات السبع؟ لا؛ هو حقيقة ما أثبتها على حد قوله؛ لكن لم ينفها – وَلَيْسَ لَك أَنْ تَنْفِيَهُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ – يقول: بناءً على ماذا نفيت ماعدا الصفات السبع؟ فإذا كان العقل ما دل على النفي، ودل على إثبات الصفات السبع ولم ينف ما عداها، فبأي حجة نفيت ما عدا الصفات السبع؟ – وَلَيْسَ لَك أَنْ تَنْفِيَهُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ؛ لِأَنَّ النَّافِيَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ كَمَا عَلَى الْمُثْبِتِ – فأنت أثبت هذه الصفات السبع ودللت بالعقل، قلنا: هذا جميل، ثم نفيت ماعدا الصفات السبع، ما دليلك على ذلك؟ لا دليل عندك، قلنا: إثبات العقل لهذه الصفات لا يدل على عدم وجود الصفات الأخرى.

أضرب لكم مثالًا حسيًّا: لو جاء إنسان وقال: هناك حادث في الخارج، ورأيت في الحادث زيد من الناس، وجاء شخص آخر وقال: كان موجودًا في الحادث عمرو، قال بعض السامعين: لا، عمرو غير موجود، قلنا له بناء على ماذا قلت عمرو غير موجود؟

قال: لأن فلان ما قال: عمرو موجود، قلنا: صحيح فلان أثبت بأن زيدًا موجود؛ لكن هل نفى وجود عمرو؟ وقال بأنه غير موجود ، لا؛ بل سكت وذهب، فعدم إثبات الشخص الأول لوجود عمرو لا يدل على عدم وجود عمرو في الحادث.

لِأَنَّ النَّافِيَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ كَمَا عَلَى الْمُثْبِتِ وَالسَّمْعُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ - فنحن عندنا دليل أثبت ماعدا هذه الصفات السبع، وهو قوله: «وَالسَّمْعُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ» أي دل على إثبات ماعدا هذه الصفات السبع.

إذن؛ (عدم العلم ليس علمًا بالعدم) وهذه قاعدة أصولية، فكوني لا أعلم بالشيء، ليس دليلا على عدم وجوده - وَلَمْ يُعَارِضْ ذَلِكَ مُعَارِضٌ عَقْلِيٌّ وَلَا سَمْعِيٌّ - السمع أثبت ماعدا الصفات، ولم يعارض هذا الدليل، لا دليل عقلي ولا دليل سمعي.إذن- فَيَجِبُ إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ الدَّلِيلُ السَّالِمُ عَنْ الْمُعَارِضِ الْمُقَاوِمِ» أي ليست الدلالة منحصرة في العقل، فما لم يثبت بالدليل العقلي، يمكن إثباته بالدليل السمعي، ونظيره ما لم يثبت بالقرآن يمكن إثباته بالسنة، أليس عندنا مسائل لم تثبت بالقرآن؟ بلى ، فهل عدم ثبوتها في القرآن يدل على عدم ثبوتها ووجودها؟ لا؛ بل ثبتت بطريق آخر وهو السنة، مثلًا: عدد ركعات الصلاة، وعدد أنصبة الزكاة، وتحريم الجمع بين المرأة وأختها وخالتها، هذه كلها لم تثبت بالقرآن، هل يعني هذا عدم شرعيتها؟ لا، نقول :ثبتت بدليل آخر، وهنا كذلك فكون ماعدا هذه الصفات السبع لم يثبت بدليل عقلي، لا يدل على عدم ثبوتها، فقد ثبتت بدليل آخر وهو دليل السمع (دليل الوحي) هذا كله على فرض التسليم لهم جدلًا بأن العقل لم يثبت إلا هذه الصفات السبع.

في الجواب الثاني يقول المؤلف: وهو عدم التسليم؛ بمعنى: ما نسلم لكم بأن العقل فقط أثبت هذه الصفات السبع، فمن قال لكم: بأن العقل فقط دل على هذه الصفات السبع؟ بل دل على هذه الصفات السبع ودل على غيرها، فيمكن إثبات ماعدا الصفات السبع التي نفيتموها بنفس الدليل الذي أثبتم به الصفات السبع.

يقول المؤلف: «الثَّانِي أَنْ يُقَالَ: يُمْكِنُ إِثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ - ماعدا الصفات السبع - بِنَظِيرِ مَا أَثْبَتَ بِهِ تِلْكَ مِنْ الْعَقْلِيَّاتِ - بمعنى: يمكن إثبات ماعدا الصفات السبع بالدليل العقلي - فَيُقَالُ نَفْعُ الْعِبَادِ بِالْإِحْسَانِ إلَيْهِمْ دَلَّ عَلَى الرَّحْمَةِ - نحن الآن نريد أن نثبت صفة الرحمة بالدليل العقلي، ما لدليل العقلي؟ هو: نفع الله العباد بالإحسان إليهم يدل على أنه متصف بالرحمة - كَدَلَالَةِ التَّخْصِيصِ عَلَى الْمَشِيئَةِ - ألستم أثبتم الإرادة لله لكون المخلوقات لها خصائص، فنحن نقول: الإحسان إلى الخلق، ونفع العباد دليل على إثبات صفة الرحمة - وَإِكْرَامُ الطَّائِعِينَ يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ - كون الله عز وجل يكرم أهل الطاعة وأهل التقوى، هذا يدل على أنه يحبهم - وَعِقَابُ الْكَافِرِينَ يَدُلُّ عَلَى بُغْضِهِم - إذًا عندنا المحبة والبغض و الرحمة كلها ثبتت بالعقل - كَمَا قَدْ ثَبَتَ بِالشَّهَادَةِ وَالْخَبَرِ: مِنْ إكْرَامِ أَوْلِيَائِهِ وَعِقَابِ أَعْدَائِهِ - إذًا هذه كلها أدلة عقلية على إثبات هذه الصفات التي نفيتموها - وَالْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَمَأْمُورَاتِهِ، وَهِيَ مَا تَنْتَهِي إلَيْهِ مَفْعُولَاتُهُ وَمَأْمُورَاتُهُ مِنْ الْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ - أي الثمرات والنتائج الطيبة - تَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ»

المحاضرة (٩)

لا زال كلام المؤلف في القاعدة الأولى وهي: (الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ) وبدأ المؤلف يناقش في هذه القاعدة الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات وينفون ما عداها، وانتقلنا إلى الوجه الثاني في الرد على هؤلاء في كونهم قالوا: أن إثبات الصفات السبع، ثبتت بالعقل أما ما عداها فلم تثبت بالعقل فنحن ننفيها.

الشيخ رد عليهم بالرد الأول: وهو على فرض التسليم، أن العقل لم يثبت هذه الصفات السبع، وتكلمنا عن ذلك في المحاضرة السابقة.

وانتقلنا إلى الرد الثاني: وهو على فرض المنع، أن العقل دل على هذه الصفات السبع، ودل على ما عداها من الصفات، كما بيّنا في المحاضرة السابقة دلالة العقل على إثبات صفة المحبة وصفة الكراهية وصفة الرحمة ونحو ذلك.

بعد ذلك قال الشيخ: «وَالْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَمَأْمُورَاتِهِ وَهِيَ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ مَفْعُولَاتُهُ وَمَأْمُورَاتُهُ مِنْ الْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ - يعني الثمرات والنتائج الطيبة في أفعال الله عز وجل وفي أوامره، الأشياء التي تنتهي إليه مفعولاته وأوامره ونواهيه من الثمرات الطيبة - تَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ - يعني هذه دليل على حكمة الله عز وجل، كون هذه العواقب والثمرات الطيبة نتجت عن أفعاله وأوامره؛ فهذا يدل على أنه يأمر ويفعل لحكمة لا يأمر ويفعل عبثًا، فهذا دليل على إثبات صفة الحكمة لله عز وجل - كَمَا يَدُلُّ التَّخْصِيصُ عَلَى الْمَشِيئَةِ - ألستم أثبتم صفة الإرادة و المشيئة بالتخصيص؟ نقول أيضًا الغايات المحمودة دلت على الحكمة كما دل التخصيص على المشيئة- وَأَوْلَى - يقول: بل دلالة الغايات الحميدة على إثبات صفة المشيئة أقوى وأولى في إثبات المشيئة والإرادة بالتخصيص - لِقُوَّةِ الْعِلَّةِ الغائية - **ما هي العلة الغائية؟** هي ما يوجد الفعل لأجله ولهذا تدخلها (لام التعليل) ضربت زيدًا ليتعلم، لماذا ضربنا زيد؟ لأجل التعلم. يُقابل العلة الغائية العلة الفاعلية، وهي التي يكون بها الفعل، ولهذا تدخل عليها (باء السببية)، فإذا كتبت شيئًا من الفائدة العلمية فاليد والقلم والقرطاس هي العلة الفاعلية، أما الفائدة العلمية فهي العلة الغائية. إذًا العلة الغائية أقوى من العلة الفاعلية - وَلِهَذَا كَانَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِي مَخْلُوقَاتِهِ مِنْ النِّعَمِ وَالْحِكَمِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى مَحْضِ الْمَشِيئَةِ.» انتهى الآن النقاش مع هذا الأشعري، وبيّن الشيخ مدى التناقض عنده في كونه أثبت بعض الصفات ونفى البعض بلا حجة ولا برهان، وردّ عليه بهذا الأصل: (الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ)

الآن يريد أن يرد بهذا الأصل على (المعتزلة) نفاة الصفات دون الأسماء، الأكثر غلوًا من الأشاعرة:

يقول المؤلف: «وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يُنْكِرُ الصِّفَاتِ وَيُقِرُّ بِالْأَسْمَاءِ، كَالْمُعْتَزِلِيِّ الَّذِي يَقُولُ : إنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَيُنْكِرُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ - الآن عرفنا مذهب المعتزلة فيما مضى أنهم يثبتون الأسماء لكن ينفون ما تضمنته هذه الأسماء من الصفات، فيقولون: حي؛ لكن لا تثبت له صفة الحياة، سميع؛ لكن لا تثبت له صفة السمع - قِيلَ لَهُ : لَا فَرْقَ بَيْنَ إثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ - أنت فرقت بين المتماثلات، ما فيه فرق بين إثبات الاسم وإثبات الصفات - فَإِنَّك إنْ قُلْت : إثْبَاتُ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ يَقْتَضِي تَشْبِيهًا أَوْ تَجْسِيمًا - فإن قلت: والله إثبات هذه الصفات؛ إثبات صفة العلم والقدرة والإرادة والسمعة يقتضي التجسيم والتشبيه - لِأَنَّا لَا نَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مُتَّصِفًا بِالصِّفَاتِ إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ - يقول: ما أجد أي شيء يتصف بهذه الصفات التي ذكرتها تريد أن تصف الله عز وجل بها إلا ما هو جسم والأجسام متماثلة، فأنا لأجل أن لا أمثل الخالق بالمخلوق أنفي عنه الصفات هذا الرد: - قِيلَ لَك : وَلَا نَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مَا هُوَ مُسَمًّى حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ - أنت الآن في الشاهد أي ما تشاهده وما تلمسه؛ هل يُسمى شيء سميع بصير حي إلا ما هو جسم؟ - فَإِنْ نَفَيْت مَا نَفَيْت لِكَوْنِك لَمْ تَجِدْهُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا لِلْجِسْمِ - يعني نفيت الصفات لأجل أن المتصف بها جسم - فَانْفِ الْأَسْمَاءَ بَلْ وَكُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّك لَا تَجِدُهُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا لِلْجِسْمِ - فيلزمك أن تنفي الأسماء؛ لأجل ألّا تفرق بين المتماثلات بل وكل شيء لأنك لا تجده في الشاهد إلا لجسم. إنفِ عنه كل شيء حتى الوجود، لأنك لا تشاهد الشيء الموجود إلا الأجسام - فَكُلُّ مَا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ نَفَى الصِّفَاتِ - أي المعتزلي - يَحْتَجُّ بِهِ نَافِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى - أي الجهمي ، الجهمي أيضًا يقول: أنا أنفي الأسماء؛ لأني لا أجد من يتسمى بهذه الأسماء إلا ما هو جسم - فَمَا كَانَ جَوَابًا لِذَلِكَ - جوابًا للجهمي لما نفى الأسماء وقال له المعتزلي: لا؛ إثبات الأسماء لا يقتضي التجسيم - كَانَ جَوَابًا لِمُثْبِتِي الصِّفَاتِ» مثبتوا الصفات قالوا للمعتزلة: كذلك إثبات الصفات لا يستلزم التجسيم، انتهى النقاش مع المعتزلي، ولهذا النقاش مع المعتزلي واضح، إما أن تثبت الأسماء والصفات معًا أو تنفي الأسماء والصفات معًا، وتنتقل

إلى درجة الجهمي المعطل.

يرد الشيخ بهذا الأصل على الفرقة الثالثة، وهم الغلاة (الجهمية) الذين ينفون الأسماء والصفات:

يقول المؤلف: «وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِنْ الْغُلَاةِ نفاة الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَقَالَ لَا أَقُولُ: هُوَ مَوْجُودٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا عَلِيمٌ وَلَا قَدِيرٌ ؛ بَلْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لِمَخْلُوقَاتِهِ إذْ هِيَ مَجَازٌ - يقول: أنا لا أثبت لله هذه الأسماء: الحي العليم القدير، هذه أسماء للمخلوقات، إذًا نِسبتها إلى الله! قال: نِسبتها إلى الله مجازًا فقط - لِأَنَّ إثْبَاتَ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ بِالْمَوْجُودِ الْحَيِّ الْعَلِيمِ – يقول: أني لو أثبت هذه الأسماء كما أثبتها المعتزلي؛ شبهت الله عز وجل بهذه المخلوقات التي تسمى بهذه الأسماء ! الرد عليه - قِيلَ لَهُ : كَذَلِكَ إذَا قُلْت: لَيْسَ بِمَوْجُودِ وَلَا حَيٍّ وَلَا عَلِيمٍ وَلَا قَدِيرٍ كَانَ ذَلِكَ تَشْبِيهًا بِالْمَعْدُومَاتِ وَذَلِكَ أَقْبَحُ مِنْ التَّشْبِيهِ بِالْمَوْجُودَاتِ» تقدم الكلام فيه، أنت الآن إذا نفيت عنه الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة؛ شبهته بالمعدومات، والتشبيه بالمعدوم أقبح من التشبيه بالموجود.

يقول: «فَإِنْ قَالَ: - اعترض علينا حينما قلنا له: هذا الكلام أُسقط في أيدي أهل السنة؛ اعترض هذا الغالي؛ وهؤلاء هم غلاة الغلاة - أَنَا أَنْفِي النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ - أنتم الآن ألزمتموني إذا وصفت الله بالنفي؛ قلت: ليس بسميع ولا بصير، وقلت: لا أثبت هذه الأشياء؛ قلت: شبهته بالمعدومات؛ قال: أنا أنفي النفي و أنفي الإثبات؛ أنفي النفي لأجل أن لا تُلزموني بالتشبيه بالمعدومات، وأنفي الإثبات لأجل أن لا أشبهه بالموجودات - قِيلَ لَهُ : فَيَلْزَمُك التَّشْبِيهُ بِمَا اجْتَمَعَ فِيهِ النَّقِيضَانِ مِنْ الْمُمْتَنِعَاتِ - أنت الآن فررت من التشبيه بالموجودات والمعدومات فوقعت في شر من الاثنين! شبهته بالممتنعات. الشيء الذي لا هو حي ولا لا حي، ولا هو سميع ولا ليس بسميع! هذا ممتنع، فأنت شبهت الله عز وجل بالممتنع وهذا شر من تشبيهه بالمعدوم - فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مَوْجُودًا مَعْدُومًا أَوْ لَا مَوْجُودًا وَلَا مَعْدُومًا وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ يُوصَفُ ذَلِكَ بِاجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ أَوْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ أَوْ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ أَوْ يُوصَفُ بِنَفْيِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَنَفْيِ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ - أنك انتقلت في تشبيه الله عز وجل بالموجود فشبهته بالمعدوم، ثم لما نفيت النفي والإثبات، انتقلت من تشبيهه بالمعدوم والموجود إلى تشبيهه بالممتنع - فَإِنْ قُلْت - أي الجهمي هذا الغالي، هذا اعتراض منهم لما أُلزموا بهذا الإلزام، وأُسقطوا بين أيدي أهل السنة؛ لبّس الشيطان عليهم بهذه الشبهة - إنَّمَا يَمْتَنِعُ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ عَمَّا يَكُونُ قَابِلًا لَهُمَا - يقول: يمتنع نفي النقيضين عن الشيء الذي يكون في الأصل قابل لهما؛ لكن إذا كان غير قابل ما يمتنع نفي النقيضين، مثال ذلك: مثاله الجدار و الأعمى، الجدار غير قابل للبصر، فإذا نفيت عنه البصر والعمى فهذا ممكن، ليس فيه رفع النقيضين، لكن الأعمى إذا نفيت عنه البصر والعمى يكون مستحيل صحيح لأنه قابل للبصر - فَإِنْ قُلْت إنَّمَا يَمْتَنِعُ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ عَمَّا يَكُونُ قَابِلًا لَهُمَا وَهَذَانِ يَتَقَابَلَانِ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ - والمتقابلان تقابل العدم والملكة يجوز نفيهما عما ليس بقابل لهما، والله على حدِّ زعمه وشبهته ليس بقابل لهذه المتقابلات، ليس بقابل لصفة الإبصار ولا بضدها فيجوز نفيها عنه، وليس هذا بممتنع، هذه صورة حجة وشبهة هؤلاء. - لَا تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ فَإِنَّ الْجِدَارَ لَا يُقَالُ لَهُ أَعْمَى وَلَا بَصِيرٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا مَيِّتٌ إذْ لَيْسَ بِقَابِلٍ لَهُمَا» يقول: الآن الجدار يمكن أن ترفع عنه النقيضين؛ لأنه ليس بقابل لهما وليس هذا بمستحيل عقلاً ،

الجواب على هذا الشخص الذي أدلى بهذه الشبهة: -

«قِيلَ لَك : (أَوَّلًا) هَذَا لَا يَصِحُّ فِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ - يعني: لو سلمنا جدلًا أن هذا يصح في السمع والبصر والحياة والموت والعلم والجهل؛ لكن هذا لا يمكن أن يصح في الوجود والعدم، لأنه لا يمكن أن تقول للجدار لا موجود ولا معدوم، فالجدار موجود ويقبل العدم - فإنهما مُتَقَابِلَانِ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ - وأنت رفعت عن الله عز وجل الوجود والعدم قلت لا موجود ولا معدوم، باتفاق العقلاء - فَيَلْزَمُ مِنْ رَفْعِ أَحَدِهِمَا ثُبُوتُ الْآخَرِ. - سلمت لك جدلاً أن هذا يجوز في السمع

والبصر إلى آخره؛ لكن الوجود والعدم! وأنت تنفي الوجود والعدم عن الله عز وجل، وهذا فيه رفع للنقيضين أو جمع للنقيضين، وكلاهما مستحيل عقلًا.

الجواب الثاني: -

وَأَمَّا مَا ذَكَرْته مِنْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ فَهَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحَتْ عَلَيْهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ الْمَشَّاءُونَ - أني لا أسلم لك أن الحياة والموت والعلم والجهل يصح نفيهما عمن ليس بقابل لهما، هذا اصطلاح اصطلحتموه أنتم، والمصطلحات الشخصية لا تُغير من الحقائق العلمية، كونكم معاشر الفلاسفة اجتمعتم واصطلحتم على هذا النوع من المصطلح؛ لا يغير من الحقيقة العلمية، فأنتم تقولون: الجدار لا يوصف بالسمع ولا البصر ولا الإرادة، نقول لكم: لا ليس هذا صحيحًا؛ **«فَهَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحَتْ عَلَيْهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ الْمَشَّاءُونَ»** أتباع أرسطو - **وَالِاصْطِلَاحَاتُ اللَّفْظِيَّةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْحَقَائِقِ الْعَقْلِيَّةِ** - يعني لو جئنا واتفقنا نحن كمجموعة من الناس أصحاب مهنة من المهن اتفقنا على تسمية الخمر مثلًا عصير، هل يغير هذا من الحقيقة العلمية؟ لا، الخمر خمر وهو: ما خامر العقل، الذي يُسكر العقل، فكوننا سميناه عصير فهذا لا يغير من الحقيقة العلمية، فكونكم الآن أطلقتم على هذا تقابل كذا، وهذا تقابل كذا بناء على اصطلاحٍ اصطلحتموه، هذا لا يغير من الحقيقة العلمية، وسيذكر المؤلف دليلاً على ذلك - **وقد قال تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)﴾ - إذًا الله عز وجل أطلق على الأصنام وهي حجارة جمادات وصفها بالموت، ونفى عنها صفة الحياة - **فَسَمَّى الْجَمَادَ مَيِّتًا وَهَذَا مَشْهُورٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ.**

وَقِيلَ لَك (ثَانِيًا) - هذا أيضًا من الردود على هذا الغالي- **فَمَا لَا يَقْبَلُ** -يعني سلمت لك جدلًا أنه فعلاً هذه الأشياء لا تقبل الوجود والعدم ولا السمع والبصر ولا الحياة ولا الموت- **الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْعَمَى وَالْبَصَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمُتَقَابِلَاتِ أَنْقَصُ مِمَّا يَقْبَلُ ذَلِكَ** - الآن أنت فررت من التشبيه شبهت الله عز وجل بما هو أسوأ وبما هو أنقص. أيهما أكمل الأعمى القابل للبصر، أم الجدار الذي لا يقبل البصر، على حد قولك ، لا شك بإجماع العقلاء أن الأعمى أكمل من الجدار، فأنت فررت من تشبيه الله عز وجل بما هو قابل؛ إلى تشبيهه بما هو غير قابل على حد قولك، وهذا أسوأ، فأنت فررت من شيء فوقعت في شر مما فررت منه - **فَالْأَعْمَى الَّذِي يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْبَصَرِ أَكْمَلُ مِنْ الْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ وَاحِدًا مِنْهُمَا فَأَنْتَ فَرَرْت مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْحَيَوَانَاتِ الْقَابِلَةِ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَوَصَفْته بِصِفَاتِ الْجَامِدَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ ذَلِكَ** - أنت فررت من وصف الله عز وجل بالكائنات الحية التي تقبل هذه الصفات، ثم وقعت في تشبيه الله عز وجل بالجمادات التي لا تقبل الاتصاف بهذه الصفات.

تنبيه[1] / هذا المبحث يحتاج إلى تركيز من الطالب. -

وَأَيْضًا فَمَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ أَعْظَمُ امْتِنَاعًا مِنْ الْقَابِلِ لِلْوُجُودِ وَالْعَدَمِ - الشيء الذي لا يقبل الوجود ولا العدم أعظم وأسوأ من القابل للوجود أو العدم.- **بَلْ وَمِنْ اجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِهِمَا جَمِيعًا** - كون الشيء موجود معدوم أحسن وأفضل عقلاً من الشيء الذي لا يقبل الوجود ولا العدم. مع أن الجميع مستحيل عقلًا، لكن الشيخ الآن في موازنة افتراضية بعيده، **«بَلْ وَمِنْ اجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِهِمَا جَمِيعًا»** يعني كون الشيء موجود معدوم أو لا موجود ولا معدوم لكنه قابل أفضل وخير مما لا يقبل الوجود ولا العدم.

فَمَا نَفَيْتَ عَنْهُ قَبُولَ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، كَانَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا مِمَّا نَفَيْت عَنْهُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ وَإِذَا كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا فِي صَرَائِحِ الْعُقُولِ - أي الشيء لا موجود ولا معدوم أو معدوم موجود؛ إذا كان هذا ممتنع في صريح العقل - **فَذَاكَ أَعْظَمُ امْتِنَاعًا** - كون الشيء لا يقبل الوجود والعدم هذا أشد امتناعًا.

[1] هذا تقريبا أصعب مبحث في التدميرية وما بعده أسهل منه ، وهو سهل بالتركيز فيه

لاحظ كيف وصل الأمر بهؤلاء الغلاة، كيف أوصلهم هذا التعطيل، ما هي النتيجة؟ النتيجة أسوأ ما تتصور -

فَجَعَلْت وَاجِبَ الْوُجُودَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ - الذي هو الله عز وجل الذي لا يقبل العدم بحال من الأحوال - هُوَ أَعْظَمُ الْمُمْتَنِعَاتِ – بالعقل - وَهَذَا غَايَةُ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ»

يقول المؤلف: «وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ مِنْهُمْ: مَنْ يُصَرِّحُ بِرَفْعِ النَّقِيضَيْنِ: الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ - فيقول: لا موجود ولا معدوم - وَرَفْعُهُمَا كَجَمْعِهِمَا - أي: الرفع والجمع، ما دام الشيء موجود معدوم مستحيل؛ فأيضًا كونه لا معدوم ولا موجود هذا مستحيل - وَمَنْ يَقُولُ لَا أُثْبِتُ وَاحِدًا مِنْهُمَا - الشخص الذي حُجِّج بهذه الحجج ودُحِض بهذه الحجج قال: أنا لا أُثبت، ولا أقول لا موجود ولا معدوم، ولا لا موجود ولا لا معدوم، يقول: ومنهم من يقول لا أثبت واحدًا منهما - فَامْتِنَاعُهُ عَنْ إثْبَاتِ أَحَدِهِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا يَمْنَعُ تَحَقُّقَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ - كونه امتنع لا يدل على أن الشيء إما موجود أو معدوم - وَإِنَّمَا هُوَ كَجَهْلِ الْجَاهِلِ وَسُكُوتِ السَّاكِتِ الَّذِي لَا يُعَبِّرُ عَنْ الْحَقَائِقِ - أي: يقول أن حاله كحال الجاهل أو الساكت الذي لا يُعبأُ به، وليس في سكوته دليل ولا حجة على الحقيقة العلمية - وَإِذَا كَانَ مَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَلَا الْعَدَمَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا - يعني هم قالوا: أنه لا يقبل الوجود ولا العدم؛ وهذا الشيء أعظم امتناعًا- مِمَّا يُقَدَّرُ قَبُولُهُ لَهُمَا، مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ - يعني كون الشيء قابل للوجود والعدم لكنه لا موجود ولا معدوم، هذا أفضل حالاً من الشيء الذي لا يقبل الوجود والعدم - فَمَا يُقَدَّرُ لَا يَقْبَلُ الْحَيَاةَ وَلَا الْمَوْتَ وَلَا الْعِلْمَ وَلَا الْجَهْلَ وَلَا الْقُدْرَةَ وَلَا الْعَجْزَ وَلَا الْكَلَامَ وَلَا الْخَرَسَ وَلَا الْعَمَى وَلَا الْبَصَرَ وَلَا السَّمْعَ وَلَا الصَّمَمَ: أَقْرَبُ إلَى الْمَعْدُومِ الْمُمْتَنِعِ مِمَّا يُقَدَّرُ قَابِلًا لَهُمَا مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ - يعني الشيء الذي لا يقبل الاتصاف بالسمع ولا بضده ولا البصر ولا بضده ولا بالكلام ولا بضده؛ هذا أكثر امتناعًا من الشيء القابل لهما و إن كان غير متصف بهما - وَحِينَئِذٍ فَنَفْيُهُمَا مَعَ كَوْنِهِ قَابِلًا لَهُمَا أَقْرَبُ إلَى الْوُجُودِ وَالْمُمْكِنِ - يعني: كونك تنفي هذا الشيء وهو قابل لهما أفضل و أحسن من كونك تنفيه وتقول: أنه غير قابل لهما، أقرب إلى الوجود والممكن - وَمَا جَازَ لِوَاجِبِ الْوُجُودِ - قَابِلًا- وَجَبَ لَهُ - يعني إذا جاز أن يتصف الله عز وجل بهذا الأمر وجب أن يتصف به، إذا جاز أن يتصف بالسمع وجب أن يتصف بالسمع، لماذا؟ - لِعَدَمِ تَوَقُّفِ صِفَاتِهِ عَلَى غَيْرِهِ - بخلاف المخلوق الممكن، الممكن يقبل هذه الصفة؛ لكن قبول هذه الصفة متوقف على أمور أخرى، سلامة جسده، وكذا وكذا إلى آخره، الله عز وجل ما دام أنه يجوز أن يتصف بصفة هذه الكمال يجب أن يتصف بها. لماذا؟ لعدم توقف صفاته على غيره. - فَإِذَا جَازَ الْقَبُولُ وَجَبَ - إذا جاز أن يقبل هذه الصفة وجب أن يكون قابلًا لها - وَإِذَا جَازَ وُجُودُ الْمَقْبُولِ وَجَبَ - الذي هو الصفة، الجملة الأولى منصب على هل يقبل أو لا يقبل، الجملة هذه منصبة على إثبات الصفة، فإذا جاز وجود المقبول وجب أن يتصف بذلك - وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَبَيْنَ وُجُوبِ اتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ.» فالشيخ ألف رسالة مستقلة في إثبات الصفات الكمالية لله عز وجل، وللحديث بقية.

المحاضرة (١٠)

توقفنا على مناقشة المؤلف لِعموم المعطلة في الأصل الأول وهو: (الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ).

يقول المؤلف رحمه الله: «وَقِيلَ لَهُ: - أي لهؤلاء المعطلة على وجه العموم الذين عطلوا الصفات أو عطلوا شيئًا منها - اتِّفَاقُ الْمُسَمَّيَيْنِ فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ : لَيْسَ هُوَ التَّشْبِيهَ وَالتَّمْثِيلَ الَّذِي نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّاتُ وَالْعَقْلِيَّاتُ - يقال له: بعبارة مختصرة؛ أنتم معاشر الأشاعرة ومعاشر المعتزلة ومعاشر الجهمية ومعاشر الغلاة، لماذا نفيتم عن الله عز وجل هذه الأسماء والصفات، أو نفيتم عنه بعضها؟ قالوا: خشية الوقوع في التشبيه، قيل لهم: التشبيه والتمثيل الذي فررتم منه ليس هو التشبيه والتمثيل الذي نفته الأدلة السمعية، الله عز وجل قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ و ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ

الْأَمْثَالَ﴾ فليس هو التمثيل الذي فررتم منه. - وَإِنَّمَا نَفَتْ مَا يَسْتَلْزِمُ اشْتِرَاكَهُمَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ الْخَالِقُ مِمَّا يَخْتَصُّ بِوُجُوبِهِ أَوْ جَوَازِهِ أَوْ امْتِنَاعِهِ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْرَكَهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ وَلَا يَشْرَكَهُ مَخْلُوقٌ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» إذًا كقاعدة عامة التمثيل والتشبيه المنفي عن الله والذي نفته الأدلة السمعية وهو التشبيه الحقيقي الذي يجب نفيه عن الله أن يوصف الخالق بشيء من خصائص المخلوق أو يوصف المخلوق بشيء من خصائص الخالق؛ أن تجعل الخالق والمخلوق يشتركان في شيء واجب لله عز وجل، مثل: صفات الكمال، أو في أمر جائز مثل صفات الفعل، أو في أمر ممتنع مثل صفة الظلم والسِّنة والنوم، فلا يجوز أن يشترك الخالق والمخلوق في هذا القدر وهذا هو الذي يجب نفيه، أما أن تنفوا ما ثبت في الشرع والعقل من الأسماء والصفات بحجة أن إثبات ذلك يستلزم التشبيه فهذا كلام باطل.

يقول المؤلف: «وَأَمَّا مَا نَفَيْته - أيها الأشعري أو المعتزلي أو الجهمي - فَهُوَ ثَابِتٌ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ - سواء من الأسماء أو الصفات - وَتَسْمِيَتُك ذَلِكَ تَشْبِيهًا وَتَجْسِيمًا تَمْوِيهٌ عَلَى الْجُهَّالِ - يعني كونك تسمي من أثبت شيئًا من هذه الصفات أن التجسيم والتشبيه هذا فقط من باب التمويه على الجهال وعلى العامة؛ لأجل أن تنفر الناس عن المذهب الحق، وتنفر الناس أن يُثبتوا لله عز وجل ما يستحقه من صفات الكمال، ولذلك قال الشاعر:

تقول هذا جناء النحـل تمدحه وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحًا وذمًا وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبـير

فأنت قد تسمي هذا العسل عسل وشهد وقد تطلق عليه قيء الزنابير والحقيقة واحدة. - وَلَوْ سَاغَ هَذَا لَكَانَ كُلُّ مُبْطِلٍ يُسَمِّي الْحَقَّ بِأَسْمَاءٍ يَنْفِرُ عَنْهَا بَعْضُ النَّاسِ لِيُكَذِّبَ النَّاسُ بِالْحَقِّ الْمَعْلُومِ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ - كما صنع المشركون والكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم، كيف سعوا لتنفير الناس والعامة منه؟ أطلقوا عليه بعض الصفات المستهجنة بعض الصفات القبيحة، قالوا هذا ساحر هذا كاهن هذا كذاب، فهذه الصفات تشمئز منها النفوس فإذا سمعها الجاهل فعلاً أحجم عن الاستجابة للنبي صلى الله عليه وسلم أو الجلوس له، لكن الحق هو الحق هذا النبي هو النبي صادق. - وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ؛ أَفْسَدَتْ الْمَلَاحِدَةُ عَلَى طَوَائِفِ النَّاسِ عَقْلَهُمْ وَدِينَهُمْ حَتَّى أَخْرَجُوهُمْ إلَى أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالْجَهَالَةِ وَأَبْلَغِ الْغَيِّ وَالضَّلَالَةِ» بهذه الطريقة أفسد كل مفسد على المسلمين الحق، يأتي ويطلق عليه بعض الأسماء المذمومة، كمن يطلق على التمسك بالسنة أنه تزمت أنه تطرف أنه إرهاب؛ لأجل أن ينفر من الإسلام أو من السنة، فلا شك أن هذا ظلم لكن الحقيقة تبقى الحقيقة واحدة السنة هي السنة والإسلام هو الإسلام.

يقول المؤلف: «وَإِنْ قَالَ نفاة الصِّفَاتِ: - الآن الكلام السابق كله مع من ينفي الصفات بحجة تمسكهم بمسألة التشبيه والتمثيل، الآن الشيخ سيذكر لهم شبهة أخرى، وهذه غالبًا ما يطلقها الفلاسفة والجهمية ومن تأثر بهم. - إثْبَاتُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ مُسْتَلْزِمٌ تَعَدُّدَ الصِّفَاتِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ مُمْتَنِعٌ - الآن عند بعض نفاة الصفات شبهة ثانية: أن إثبات الصفات يستلزم التركيب، وقد قالوا أولًا: أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه قالوا هنا إثبات الصفات يستلزم التركيب.

ما هو التركيب؟

التركيب في اللغة: كون الشيء مكون من شيئين ومنقسم.

أما في اصطلاح الفلاسفة: فهو ما يميز فيه وجه عن وجه أو يتميز فيه بعضه عن بعض. فعندهم تعدد المعاني مثلا: السمع البصر الكلام هذا تركيب؛ والتركيب ممتنع على الله عز وجل.

الرد: - قِيلَ: وَإِذَا قُلْتُمْ: - معاشر الفلاسفة - هُوَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ وَعَقْلٌ وَعَاقِلٌ وَمَعْقُولٌ وَعَاشِقٌ وَمَعْشُوقٌ وَلَذِيذٌ وَمُلْتَذٌّ وَلَذَّةٌ - هذه المعاني يطلقها الفلاسفة على الله، يقولون: «هُوَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ وَعَقْلٌ وَعَاقِلٌ ...الخ» نقول لهم: هذه أيضًا معاني متعددة

ومتغايرة - أَفَلَيْسَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا؟ - أليس المفهوم من إطلاقكم على الله هذه المعاني هو المفهوم أيضًا من إطلاق السمع والبصر والكلام والإرادة والعلم على الله عز وجل؟! الجميع معاني متعددة - فَهَذِهِ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَغَايِرَةٌ فِي الْعَقْلِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ عندكم - إذا كان إثبات تلك الصفات والأسماء تركيب فهذا أيضًا تركيب - وَأَنْتُمْ تُثْبِتُونَهُ وَتُسَمُّونَهُ تَوْحِيدًا، فَإِنْ قَالُوا: هَذَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَيْسَ هَذَا تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا، قِيلَ لَهُمْ: وَاتِّصَافُ الذَّاتِ بِالصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لَهَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ؛ وَلَيْسَ هُوَ تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا» الكلام فيها واحد لا فرق بين هذا وهذا.

يقول المؤلف: «وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ فِي صَرِيحِ الْعُقُولِ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى كَوْنِ الشَّيْءِ عَالِمًا هُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ قَادِرًا وَلَا نَفْسُ ذَاتِهِ هُوَ نَفْسُ كَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا ؛ فَمَنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الأخرى - هم يقولون: أن الصفات كلها شيء واحد هذه هي الأخرى والصفة هي الثالثة والصفات كلها هي الذات، والذات هي الصفات - فَمَنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الأخرى والصِّفَةُ هِيَ الْمَوْصُوفَ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ سَفْسَطَةً - **والسفسطة هي**: المغالطة العقلية الظاهرة - ثُمَّ إنَّهُ مُتَنَاقِضٌ فَإِنَّهُ إنْ جَوَّزَ ذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا هُوَ وُجُودَ هَذَا فَيَكُونُ الْوُجُودُ وَاحِدًا بِالْعَيْنِ لَا بِالنَّوْعِ - يقول: إن أصر وغالط وجوز، قال: هذا جائز، قيل له: إذًا يكون وجود الخالق هو وجود المخلوق، وأصبح الوجود كله وجود واحد بالعين لا بالنوع، ما لفرق بين الواحد بالعين والواحد بالنوع؟ الواحد بالعين: ما لا يقبل الاشتراك، والواحد بالنوع هو: ما يقبل الاشتراك. فأنتم جعلتم الوجود واحد بالعين لا بالنوع وهذا لا يقوله عاقل، الوجود يشترك فيه أكثر من موجود - وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْمُمْكِنِ هُوَ وُجُودَ الْوَاجِبِ – يعني: إذا كان انتهى الأمر بكم هذا من باب الإلزام أن الوجود واحد بالعين أصبح وجود الممكن الذي هو المخلوق هو وجود الواجب - كَانَ وُجُودُ كُلِّ مَخْلُوقٍ يُعْدَمُ بعدَ وُجُودِهِ، وَيُوجَدُ بَعْدَ عَدَمِهِ - بناءً على هذه القاعدة أصبح (وجود كل مخلوق يعدم بعد وجوده ويوجد بعد عدمه) وهذه قاعدة: أن المخلوق موجود من العدم ومآله للعدم. - هُوَ نَفْسُ وُجُودِ الْحَقِّ الْقَدِيمِ الدَّائِمِ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَقْبَلُ العدم – أي: جعلتم وجود هذا الذي وجد من لا شيء وسينتهي إلى العدم هو وجود الباقي الدائم- وَإِذَا قُدِّرَ هَذَا كَانَ الْوُجُودُ الْوَاجِبُ مَوْصُوفًا بِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَتَجْسِيمٍ وَكُلِّ نَقْصٍ وَكُلِّ عَيْبٍ - أنتم الآن فررتم من التشبيه والتجسيم ووقعتم في التشبيه والتجسيم؛ لأنه سيكون كل صفة يتصف بها المخلوق يتصف بها الخالق وهذه عقيدة أهل وحدة الوجود، ولهذا أهل وحدة الوجود وأهل الحلول والاتحاد طردوا هذا المذهب وقبلوا هذا القول من الفلاسفة وقبلوا هذا اللازم فقالوا: نعم الوجود واحد بالعين لا بالنوع، فوجود الخالق هو وجود المخلوق ووجود المخلوق هو وجود الخالق، فوصفوا الخالق بكل صفة اتصف بها المخلوق فوصفوا الله عز وجل بكل نقص وعيب وهذا في غاية الإلحاد والكفر والانحراف - كَمَا يُصَرِّحُ بِذَلِكَ (أَهْلُ وَحْدَةِ الْوُجُودِ) الَّذِينَ طَرَدُوا هَذَا الْأَصْلَ - أي عمموه – الْفَاسِدَ، وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ أَقْوَالُ نفاة الصِّفَاتِ بَاطِلَةً عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ» هذه هي النتيجة التي يريد المؤلف أن يصل إليها إبطال قول النفاة مهما ذهبوا وإلى أي شيء اختاروا وإلى أي قول لجؤوا.

يقول المؤلف: «وَهَذَا بَابٌ مُطَّرِدٌ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ النفاة لِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ الصِّفَاتِ، لَا يَنْفِي شَيْئًا فِرَارًا مِمَّا هُوَ مَحْذُورٌ إلَّا وَقَدْ أَثْبَتَ مَا يَلْزَمُهُ فِيهِ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ - يقول: قاعدة عامة: كل شخص من هؤلاء النفاة ينفي شيئًا مما أثبته النبي صلى الله عليه وسلم فرارًا من محذور هو نسجه بعقله وخياله إلا ويقع في نفس المحذور أو في شر منه، أولئك فروا من التشبيه ووقعوا في التشبيه، فروا من التجسيم ووقعوا في التجسيم فروا من التركيب فوقعوا في التركيب بل وقعوا في شر مما فروا منه - فَلَا بُدَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ مَوْجُودًا وَاجِبًا قَدِيمًا مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ وَلَا يَكُونُ فِيهَا مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ فَيُقَالُ لَهُ : هَكَذَا الْقَوْلُ فِي جميع الصِّفَاتِ - لا بد في نهاية المطاف أي واحد من هؤلاء المعطلة أن يثبت لله وجود مستقل، أثبت لله وجود مستقل! والمخلوق موجود، وقلت وجود الله عز وجل لائق به ووجود المخلوق لائق به؛ إذًا فأثبت بقية الصفات على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى كما أن هذه الصفات ثابتة للمخلوق على الوجه اللائق بالمخلوق - وَكُلُّ مَا تُثْبِتُهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَلَا بُدَّ أَنْ

يَدُلُّ عَلَى قَدْرٍ مشترك تَتَوَاطَأُ فِيهِ الْمُسَمَّيَاتُ - لا بد في أي شيء تثبته لا بد من قدر مشترك، والقدر المشترك وجوده في الذهن، فالوجود المشترك بين الخالق والمخلوق موجود بالذهن وهو ضد العدم، القدر المشترك من الحياة ضد الموت موجود في الذهن؛ لكن إذا وجدت في الخارج تقيدت وتحددت، ما هي فائدة هذا القدر المشترك؟ يقول: لا بد من وجود القدر المشترك لكي نفهم الخطاب. القدر المشترك وبعبارة مختصرة: هو المعنى العام الذي تتواطأ فيه المسميات، المعنى العام الذي في الذهن، الذي تتفق فيه المسميات، ما فائدة القدر المشترك؟ - وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا فُهِمَ الْخِطَابُ - لولا القدر المشترك هذا لما فهمنا قول الله عز وجل وهو السميع البصير، ولما فهمنا أي كلام في القرآن، لأنه لا بد من قدر مشترك من خلاله نحلل هذا المعنى في عقولنا، فالله عز وجل لما وصف نفسه في القرآن بالعلم العقل فهم العلم، وهو ضد الجهل، فالمعنى العام يشترك فيه المخلوق والخالق؛ لكن لما قيل: علم الله تخصص علم يخص الله - وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّ مَا اخْتَصَّ اللهُ بِهِ وَامْتَازَ عَنْ خَلْقِهِ أَعْظَمُ مِمَّا يَخْطِرُ بِالْبَالِ أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ» كون هذه الأشياء تتفق في الذهن في المعنى العام، لا يعني أن يكون هناك فيه تمثيل أو تشبيه له، الشيء الخاص بالله عز وجل الشيء الذي يمتاز به الله هذا أمر لا يمكن أن يخطر على الذهن بأي حال من الأحوال.

الأصل الثاني

انتقل المؤلف من الأصل الأول إلى الأصل الثاني، الأصل الأول (الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ) - الأصل الثاني ما هو؟

يقول المؤلف: «وَهَذَا يَتَبَيَّنُ (بِالْأَصْلِ الثَّانِي) وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : (الْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ) - وهذا الأصل أيضًا ممكن أن يرد به على كل معطل أيًّا كان تعطيله، أن (الْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ) هل تثبت لله ذات أو لا تثبت لله ذات؟ الذات هي الحقيقة، حقيقة الشيء. ولذلك قال خُبيب: (وذلك في ذات الإله وإن يشأ) فيخبر عن الله من باب الخبر أن له ذات. - فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ . فَإِذَا كَانَ لَهُ ذَاتٌ حَقِيقَةً لَا تُمَاثِلُ الذَّوَاتَ. فَالذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِصِفَاتٍ حَقِيقَةً لَا تُمَاثِلُ سَائِرَ الصِّفَاتِ - نقول للأشعري وللمعتزلي وللجهمي: أتثبت لله ذات؟ فإذا قال: نعم أثبت لله ذات، هو لا بد أن يقول: أثبت لله ذات؛ لأنه إذا ما أثبت لله الذات (الحقيقة) إذًا حكم على الله بالعدم، فإذا كنت تثبت لله ذات والمخلوق ذات وذات الله لائقة به وذات المخلوق لائقة به فذات الله عز وجل متصفة بصفات لائقة به سبحانه وتعالى، وليس في ذلك تشبيه ولا تجسيم. - فَإِذَا قَالَ السَّائِلُ : كَيْفَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ؟ - اعترض علينا المعطل أو الأشعري أو الجهمي أو المعتزلي **كلهم يتفقون على نفي صفة الاستواء لله** عز وجل وأهل السنة يثبتون صفة الاستواء على الوجه اللائق به سبحانه، فمن باب الاعتراض والتشغيب على أهل السنة قد يقول لك: أنت تثبت الاستواء تقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ نقول: نعم نثبت لله الاستواء، يقول: كيف استوى؟

الجواب من جنس الاعتراض:- قِيلَ لَهُ: كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ وَمَالِكٌ وَغَيْرُهُمَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - هذا الكلام مروي عن ربيعة واشتهر عن الإمام مالك وصح وثبت عن الإمام مالك رحمه الله، كما أنه أيضًا منسوب لأم سلمة؛ لكنه أُشتهر عن الإمام مالك واعتبر قاعدة في كل الصفات، وهو أن رجلاً سأل الإمام مالك، قال: الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فأطرق مالك رأسه مليًا حتى علاه الرحضاء (العرق) من شدة السؤال، لماذا؟ لأن السؤال عن الله عز وجل عن صفة من صفات الله عز وجل، ليس السؤال بالأمر السهل ليس السؤال في الوضوء أو المبيت في مزدلفة سنة أو ركن أو واجب؟ لا؛ السؤال عن الله عز وجل، كيف استوى؟ ثم رفع رأسه فقال كلمته المشهورة وتعتبر قاعدة في كل الصفات:- الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْ الْكَيْفِيَّةِ بِدْعَةٌ - الاستواء معلوم تعرفه العرب من كلامها، الاستواء: هو العلو والارتفاع، والكيف: كيفية الاستواء مجهولة لا يمكن أن ندركها، والإيمان بالاستواء وصفة الاستواء واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة، لماذا السؤال عن

الكيفية بدعة؟ - لِأَنَّهُ سُؤَالٌ عَمَّا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ وَلَا يُمْكِنُهُمْ الْإِجَابَةُ عَنْهُ» الكيفية لم يدل عليها دليل كيفية صفات الله عز وجل، صفات الله لها كيفية؛ لكن العلم بها مجهول، والسؤال عنها بدعة لماذا؟ لأنها لم تثبت بدليل لا بالقرآن ولا بالسنة ولا فيما أُثر عن الرسل، لم تثبت عن الله عز وجل كيفية صفاته كيفية النزول والسمع وكيفية البصر ولا يمكن إدراك ذلك عقلًا؛ لأن كيفية الشيء متوقفة على أمور ثلاثة:

إما أن تراه بنفسك أو بصورة، وإما أن ترى مثيله، وإما أن ينقل لك بخبر صادق. وكل هذا منتفي عن صفات الله عز وجل، فالله عز وجل لم يره أحد، وليس له مثيل، ولم ينقل أحد عن كيفية هذه الصفات، إذًا العلم بكيفية الصفة مستحيل عقلًا كما أنه متعذر شرعًا فيكون السؤال عنه بدعة، فأنت تثبت أصل الصفة وتمسك عن الكيفية كما أمسك القرآن والوحي عن ذلك.

المحاضرة (١١)

لا زال كلام المؤلف في الأصل الثاني الذي يُرد به على كل معطل وهو أن: «الْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ»

يقول المؤلف: «وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ : كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؟ - بمعنى أن هذا المعطل إذا عُرِضَ عليه إثبات الاستواء فقيل له : نحن نقول: كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا) فنثبت له صفة الاستواء ، سيعترض ويقول : «كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ؟ »

قِيلَ لَهُ : كَيْفَ هُوَ؟ - بمعنى اعكس السؤال عليه فقل له: «كَيْفَ هُوَ؟» يعني الله عز وجل. -

فَإِذَا قَالَ : لَا أَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ - بمعنى قلت له: كيف ذاته؟ سيقول لك : أنا لا أعلم كيفيته. -

قِيلَ لَهُ : وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ نُزُولِهِ - بمعنى أننا نثبت النزول كما جاء؛ لكن الكيفية لم ترد فنمسك عنها.-

إِذْ الْعِلْمُ بِكَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ الْمَوْصُوفِ - إذا كنت أنت تجهل كيفية ذاته سبحانه وتعالى فنحن أيضًا نجهل كيفية صفة هذه الذات - وَهُوَ فَرْعٌ لَهُ - أي: فرع عن العلم بكيفية الموصوف الذي هو الله - وَتَابِعٌ لَهُ ؛ فَكَيْفَ تُطَالِبُنِي بِالْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَتَكْلِيمِهِ وَاسْتِوَائِهِ وَنُزُولِهِ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ وَإِذَا كُنْت تُقِرُّ بِأَنَّ لَهُ ذاتًا حَقِيقَةً ثَابِتَةً فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُسْتَوْجِبَةً لِصِفَاتِ الْكَمَالِ لَا يُمَاثِلُهَا شَيْءٌ فَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَكَلَامُهُ وَنُزُولُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ ثَابِتٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ - بمعنى أنك إذا كنت تثبت أن له ذات ثابتة حقيقية فنحن أيضًا نثبت له هذه الصفات حقيقةً في نفس الأمر - وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا يُشَابِهُهُ فِيهَا سَمْعُ الْمَخْلُوقِينَ وَبَصَرُهُمْ وَكَلَامُهُمْ وَنُزُولُهُمْ وَاسْتِوَاؤُهُمْ»

بمعنى أننا نثبت هذه الصفات لله عز وجل على الوجه اللائق به المخالف والمباين تمامًا لما هو ثابت للمخلوق؛ لئلا نقع نحن في التشبيه، ولئلا تقع أنت في المحذور الذي فررت منه.

الآن الشيخ بدأ يناقش (الأشاعرة) على وجه الخصوص:

يقول المؤلف: «وَهَذَا الْكَلَامُ لَازِمٌ لَهُمْ – للأشاعرة - فِي الْعَقْلِيَّاتِ – أي: الصفات العقلية، أي الصفات التي يزعمون أنهم أثبتوها بناء على أن العقل أثبتها، وهي الصفات السبع - وَفِي تَأْوِيلِ السَّمْعِيَّاتِ - كما ذكرنا سابقًا أنهم يؤولون كل دليل يثبت صفةً لا تدخل ضمن هذه الصفات السبع، كما يؤولون صفة اليدين والوجه والمجيء ونحو ذلك.- فَإِنَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا وَنَفَى شَيْئًا بِالْعَقْلِ - يعني أثبت السبع الصفات ونفى ما عدها بالعقل - إِذَا أُلْزِمَ فِيمَا نَفَاهُ مِنْ الصِّفَاتِ - إذًا ألزم في بقية الصفات التي لم يثبتها - وَالَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نَظِيرَ مَا يَلْزَمُهُ فِيمَا أَثْبَتَهُ، وَلَوْ طُولِبَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْمَحْذُورِ فِي هَذَا وَهَذَا لَمْ يَجِدْ بَيْنَهُمَا فَرْقًا» إذا قيل له: فرّق لنا بين هذه الصفات التي أثبتها وبين الصفات التي نفيتها، ما المحذور فيهما؟ لم يجد فرقًا بين القسمين.

يقول المؤلف: «وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ لنفاة بَعْضِ الصِّفَاتِ دُونَ بَعْضٍ - الأشاعرة - الَّذِينَ يُوجِبُونَ فِيمَا نَفَوْهُ : إمَّا التَّفْوِيضَ؛ وَإِمَّا التَّأْوِيلَ الْمُخَالِفَ لِمُقْتَضَى اللَّفْظِ - يعني موقف الأشاعرة من الأدلة التي جاءت تثبت ما عدا هذه الصفات السبع مثل صفة الاستواء والنزول والمجيء واليدين والوجه، موقفهم من هذه النصوص:

*إما أن يفوضوا معناها إلى الله، يقولون: نحن نقرأها ونجريها على ظاهرها لكن لا نعرف معناها ولا نفسرها، وهذا هو التفويض عندهم، بمعنى يكِلون علمها إلى الله عز وجل بمعنى يقرؤون هذه الألفاظ كما يقرؤون الألفاظ الأعجمية التي لا معنى لها، فقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يقولون: نجري هذا اللفظ على ظاهره؛ لكن معناه الله أعلم به، فقسم منهم يفوضون.

*والقسم الآخر يؤولون، بمعنى يلتمسون معنى بعيد غير المعنى الظاهر، يصرفون اللفظ عن الاحتمال الراجح القريب المتبادر إلى الذهن إلى المعنى المرجوح والبعيد، يقولون: نحن لا نفوض هذا المعنى إنما نثبت بهذا اللفظ معنى، فما معنى مثلا قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يقولون معناه: ثم استولى على العرش، ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لما خلقت بقدرتي.

فالتأويل: هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح[1].

قوله: «الَّذِينَ يُوجِبُونَ فِيمَا نَفَوْهُ : إمَّا التَّفْوِيضَ ؛ وَإِمَّا التَّأْوِيلَ الْمُخَالِفَ لِمُقْتَضَى اللَّفْظِ»- هذه جملة اعتراضية بموقفهم من النصوص التي تثبت ما عدا الصفات السبع -

قَانُونٌ مُسْتَقِيمٌ - بمعنى ليس لهم قاعدة مضطردة ولا قانون واضح، يفوضون هنا، ويؤولون هنا، ويثبتون هنا على غير قاعدة مستقيمة - فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لِمَ تَأَوَّلْتُمْ هَذَا وَأَقْرَرْتُمْ هَذَا وَالسُّؤَالُ فِيهِمَا وَاحِدٌ؟ - أي: لم تأولتم ماعدا الصفات السبع، وأقررتم بالصفات السبع، والسؤال فيهما واحد كما ذكر الشيخ فيما سبق الموصوف واحد وطريق ثبوت هذه الصفة واحد وهو الوحي؟ - لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ صَحِيحٌ» يعني ليس لهم جواب صحيح وقاعدة مضطردة.

يقول المؤلف: «فَهَذَا تَنَاقُضُهُمْ فِي النَّفْيِ، وَكَذَا تَنَاقُضُهُمْ فِي الْإِثْبَاتِ ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَوَّلَ النُّصُوصَ عَلَى مَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي الَّتِي يُثْبِتُهَا - قلنا: بأن فريقًا منهم يؤولون الصفات التي لا يثبتونها، يصرفونها من هذا المعنى إلى معنى آخر يثبتونه ، المؤلف سيمثل لنا هنا بمثال: - فَإِنَّهُمْ إذَا صَرَفُوا النَّصَّ عَنْ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ مُقْتَضَاهُ إلَى مَعْنًى آخَرَ لَزِمَهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ إلَيْهِ مَا كَانَ يَلْزَمُهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ عَنْهُ» مثل: صفة المحبة صرفوها عن ظاهرها الذي هو إثبات صفة المحبة إلى معنى آخر وهو الإرادة، إرادة الإنعام أو إرادة الثواب، لَزِمَهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ إلَيْهِ وهو الإرادة -ألم يصرفوا المحبة إلى الإرادة، لماذا لم تثبتوا المحبة؟ قالوا؛ لأن ظاهرها يقتضي التشبيه، ما معنى المحبة؟ قالوا: الإرادة -قلنا أيضًا: الإرادة يستلزم من إثباتها التشبيه على حدّ قولكم، فما الفرق بين الإرادة والمحبة؟ ولهذا قال: لَزِمَهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ إلَيْهِ وهو الإرادة مَا كَانَ يَلْزَمُهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ عَنْهُ وهو المحبة فإذا كان إثبات المحبة يستلزم التشبيه فإثبات الإرادة يستلزم التشبيه، وإذا كان إثبات الإرادة لا يستلزم التشبيه فإثبات المحبة لا يستلزم التشبيه سواء بسواء.

هذا هو المثال الذي قلنا سيأتي به:

يقول المؤلف: «فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: تَأْوِيلُ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَسَخَطِهِ: هُوَ إرَادَتُهُ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ؛ كَانَ مَا يَلْزَمُهُ فِي الْإِرَادَةِ نَظِيرَ مَا يَلْزَمُهُ فِي الْحُبِّ وَالْمَقْتِ وَالرِّضَا وَالسَّخَطِ» يعني يلزمك في الإرادة ما يلزمك في المعنى الذي فررت منه.

يقول المؤلف: «وَلَوْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِمَفْعُولَاتِهِ وَهُوَ مَا يَخْلُقُهُ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ - فلو قال مثلًا: الرضا هي الجنة، والغضب هو النار - فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ فِي ذَلِكَ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ فَإِنَّ الْفِعْلَ - أنت تثبت لله فعل، فتقول: هذا الفعل لله، والفعل لا يقوم إلا بفاعل ،

[1] وسيأتي ذكره في القاعدة الخامسة إن شاء الله

ولهذا قال: - لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ أَوَّلًا بِالْفَاعِلِ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ الْمَفْعُولُ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى فِعْلِ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ - إذا فعل الله الثواب والعقاب إنما يفعله على ما يحبه ويرضاه، وهذا إثبات الصفات - وَيَسْخَطُهُ وَيُبْغِضُهُ الْمُثِيبُ الْمُعَاقِبُ»

يقول المؤلف: «فَهُمْ إِنْ أَثْبَتُوا الْفِعْلَ عَلَى مِثْلِ الْوَجْهِ الْمَعْقُولِ فِي الشَّاهِدِ لِلْعَبْدِ مَثَّلُوا - تثبتون لله فعل والعبد موصوف أيضًا بالفعل فتقعون في التشبيه الذي فررتم منه - وَإِنْ أَثْبَتُوهُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ - بأن قالوا لله فعل يليق به سبحانه وتعالى نقول: - فَكَذَلِكَ سائر الصِّفَاتُ» أي كذلك سائر الصفات التي نفيتموها.

انتهى كلام المؤلف على هذا الأصل العظيم الذي يرد به على كل معطل وهو: «الْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ»

المؤلف بيّن في أول الكلام أنه سيبين عقيدة أهل السنة والجماعة وسيرد على المخالفين بأصلين عظيمين، ومثلين مضروبين، وقاعدة جامعة، ذكر الأصلين العظيمين، والآن يذكر لنا المثلين المضروبين:

المثل الأول

يقول المؤلف: «فصلٌ وَأَمَّا (الْمَثَلَانِ الْمَضْرُوبَانِ): فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَخْبَرَنَا عَمَّا فِي الْجَنَّةِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ: مِنْ أَصْنَافِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ والمناكح وَالْمَسَاكِنِ - يعني المثل الأول ضربه لنا بواقع الجنة، فالجنة ثبت في الكتاب والسنة أن فيها أصنافًا من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن - فَأَخْبَرَنَا أَنَّ فِيهَا لَبَنًا وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَمَاءً وَلَحْمًا وَحَرِيرًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً وَفَاكِهَةً وَحُورًا وَقُصُورًا - كل هذا ثابت ولا مجال للخلاف فيه - وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إلَّا الْأَسْمَاءَ - بمعنى ذكر أن في الجنة لبن ونحن عندنا لبن، وذكر أن في الجنة عسل وعندنا في الدنيا عسل، وذكر أنهارًا وعندنا في الدنيا أنهارًا، وابن عباس –رضي الله عنهما– يقول: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، وهذا له أصل كما في البخاري في الحديث القدسي يقول الله تعالى: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ولهذا قال الراوي: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ - وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَقَائِقُ - حقائق النعيم وهذه الأشياء السابقة اللبن والخمر - الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهَا هِيَ مُوَافِقَةٌ فِي الْأَسْمَاءِ لِلْحَقَائِقِ الْمَوْجُودَةِ فِي الدُّنْيَا - فتلاحظ أنه هناك توافق في الاسم لبن ولبن وعسل وعسل- وَلَيْسَتْ مُمَاثِلَةً لَهَا - يعني لا يقول عاقل: أن لبن الدنيا مثل لبن الجنة وكذا عسلها، وذكرنا الأدلة وهذا لا خلاف فيه، علمًا أنه هناك توافق في الاسم فلبن ولبن، وعسل وعسل - بَلْ بَيْنَهُمَا مِنْ التَّبَايُنِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى، فَالْخَالِقُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَعْظَمُ مُبَايَنَةً لِلْمَخْلُوقَاتِ مِنْ مُبَايَنَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ - وهذا هو المثل الأعلى، الآن إذا كان لبن الدنيا والآخرة اتفقا في الاسم وتباينًا في الحقيقة وهما مخلوقان - مخلوق مع مخلوق - فما الظن بالخالق والمخلوق؟ قد يتفقان في الاسم العام؛ لكن بينهما من الاختلاف والتباين أعظم بأضعاف أضعاف ما بين موجودات الدنيا من موجودات الآخرة - وَمُبَايَنَتُهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ أَعْظَمُ مِنْ مُبَايَنَةِ مَوْجُودِ الْآخِرَةِ لِمَوْجُودِ الدُّنْيَا إذْ الْمَخْلُوقُ أَقْرَبُ إلَى الْمَخْلُوقِ الْمُوَافِقِ لَهُ فِي الِاسْمِ مِنْ الْخَالِقِ إلَى الْمَخْلُوقِ - يعني: المخلوق في الواقع أقرب للمخلوق إذا اتفقا في الاسم من موافقة الخالق للمخلوق - وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ» فلا يحتاج إيضاح أكثر من هذا الإيضاح.

يقول المؤلف: «وَلِهَذَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ - افترقوا فيما يتعلق بما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر، القرآن مليء بالآيات التي تتحدث عن الله عز وجل وصفاته والآيات والنصوص التي تتحدث عن الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب - ثَلَاثَ فِرَقٍ :

- فَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَأَتْبَاعُهُمْ: آمَنُوا بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِالْمُبَايَنَةِ الَّتِي بَيْنَ مَا فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مُبَايَنَةَ اللَّهِ لِخَلْقِهِ أَعْظَمُ - السلف - رحمهم الله - وسائر الأئمة أثبتوا كل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر، مع اعتقادهم بالمباينة بين موجودات الدنيا والآخرة، وأيضًا التباين بين ما للمخلوق وبين ما للخالق سبحانه وتعالى.

▪ وَالْفَرِيقُ الثَّانِي: الَّذِينَ أَثْبَتُوا مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَنَفَوْا كَثِيرًا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ الصِّفَاتِ ؛ مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ - المعتزلة ومن وافقهم، الطائفة الثانية وهم أهل الكلام أثبتوا ما أخبر الله به عن اليوم الآخر، فأثبتوا الجنة وما فيها من النعيم وما أعده الله لأهل الإيمان، فأثبتوا أصناف ما وعد الله به في الجنة على وجه الإجمال؛ لكنهم فيما أخبر الله عن نفسه من الصفات فقد نفوا ذلك أو نفوا كثيرًا منه.

الفريق الثالث نفوا هذا وهذا ، فلم يثبتوا ما أخبر الله به عن اليوم الآخر ولا ما أخبر به عن نفسه من الصفات.

▪ وَالْفَرِيقُ الثَّالِثُ : نَفَوْا هَذَا وَهَذَا كَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ أَتْبَاعِ الْمَشَّائِينَ وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ حَقَائِقَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ - الباطنية ينكرون ما أخبر الله به عن نفسه، وينكرون ما أخبر الله عن اليوم الآخر، يتأولون النصوص على غير ظاهرها، ويذكرون لها تأويلات باطلة.-

ثُمَّ إنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ - أي: كثير من الباطنية يدخلون أيضا الأوامر والنواهي في هذا الباب، بمعنى ينفون الأوامر والنواهي، فيزعمون أن ظاهر نصوص الأوامر والنواهي له معنى، وباطنها لها معنى آخر، وأن المراد هو المعنى الباطن.- فَيَجْعَلُونَ الشَّرَائِعَ الْمَأْمُورَ بِهَا وَالْمَحْظُورَاتِ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا لَهَا تَأْوِيلَاتٌ بَاطِنَةٌ تُخَالِفُ مَا يَعْرِفُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا، كَمَا يَتَأَوَّلُونَ مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، فَيَقُولُونَ: إنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ مَعْرِفَةُ أَسْرَارِهِمْ ، وَإِنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ كِتْمَانُ أَسْرَارِهِمْ ، وَإِنَّ حَجَّ الْبَيْتِ السَّفَرُ إلَى شُيُوخِهِمْ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّهَا كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ عَلَى الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ - وَتَحْرِيفٌ لِكَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَإِلْحَادٌ فِي آيَاتِ اللهِ- يقول: تأويلهم هذه التأويلات الباطلة ظاهر ومعلوم بالاضطرار بطلانه جملةً وتفصيلًا، حيث مثلًا أولوا الصيام أنه حفظ الأسرار، الحج السفر إلى مشايخهم ونحو ذلك، فكل نصوص الأوامر والنواهي يؤولونها على هذا النحو، وهذا باطل لا يقرهم عليه أهل الإسلام - وَقَدْ يَقُولُونَ الشَّرَائِعُ تَلْزَمُ الْعَامَّةَ دُونَ الْخَاصَّةِ - هذا مذهب الباطنية الغلاة، يقولون: الشرائع وظاهرها هذه الصلاة والصيام تلزم عامة الناس دون الخاصة الذين هم الأولياء عندهم والشيوخ - فَإِذَا صَارَ الرَّجُلُ مِنْ عَارِفِيهِمْ وَمُحَقِّقِيهِمْ وَمُوَحِّدِيهِمْ رَفَعُوا عَنْهُ الْوَاجِبَاتِ وَأَبَاحُوا لَهُ الْمَحْظُورَاتِ» بمعنى لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ويفعل ما شاء؛ لأنه ليس مخاطب بظاهر هذه النصوص.

يقول المؤلف: «وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الْمُنْتَسِبِينَ إلَى التَّصَوُّفِ وَالسُّلُوكِ مَنْ يَدْخُلُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ» وجد من غلاة الصوفية من دخل في هذا الباب الذي هو مذهب الباطنية، وغالبًا هم أهل وحدة الوجود، أو أهل الحلول والإتحاد.

يقول المؤلف: «وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ : هُمْ الْمَلَاحِدَةُ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى» لأنهم لا يقرون بشرع ولا بأي أمر من أمور الغيب، فينكرون هذا جملة وتفصيلًا، ولهذا كان اليهود والنصارى خيرًا منهم.

المحاضرة (١٢)

يقول المؤلف: «وَمَا يَحْتَجُّ بِهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ - أي: الباطنية الذين أوّلوا نصوص اليوم الآخر ونصوص الصفات؛ يعني ما يحتج به عموم المسلمين سواء من المعتزلة أو الأشاعرة أو السلف على هؤلاء في إنكارهم لنصوص المعاد ونصوص الأوامر والنواهي ويقولون لهم: هذه التأويلات باطلة - يَحْتَجُّ بِهِ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى مَنْ يُشْرِكُ هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ إلْحَادِهِمْ» نفاة الصفات في واقع الأمر شاركوا هؤلاء الباطنية في نفي الصفات، الباطنية نفوا الجميع، ونفاة الصفات قالوا: لا، نقتصر على نفي الصفات؛ لكن الباب واحد ولهذا يحتج عليهم أهل السنة بما احتجوا هم على الباطنية.

يقول المؤلف: «فَإِذَا أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى الصِّفَاتِ وَنَفَى عَنْهُ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ -كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ- كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْحَقَّ الَّذِي يُوَافِقُ الْمَعْقُولَ وَالْمَنْقُولَ وَيَهْدِمُ أَسَاسَ الْإِلْحَادِ وَالضَّلَالَاتِ» يعني المخرج من هذا التناقض أن تثبت ما أثبته الله

لنفسه على وفق ما جاء في الآيات البينات مع نفي مماثلة الله عز وجل لسائر المخلوقات فتسلم من هذا التناقض.

يقول المؤلف: «وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ الَّتِي فِيهَا مُمَاثَلَةٌ لِخَلْقِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مَثِيلَ لَهُ - المؤلف ختم هذا المثال بهذا الاعتراض المتوقع، ربما يقول قائل سواء من هؤلاء النفاة أو من غيرهم: كيف تمثل الله عز وجل بموجودات الدنيا وموجودات الجنة ؟! المؤلف بيّن قال: «اَللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ الَّتِي فِيهَا مُمَاثَلَةٌ لِخَلْقِهِ» والأمثال التي فيها مماثلة لخلقه هي: التمثيل الشمولي والتمثيلي - بَلْ لَهُ (الْمَثَلُ الْأَعْلَى) فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشْرَكَ هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ فِي قِيَاسِ تَمْثِيلٍ وَلَا فِي قِيَاسِ شُمُولٍ تَسْتَوِي أَفْرَادُهُ - **القياس عندنا قياسان:**

قياس التمثيل: وهو إلحاق فرع بأصل لعلة جامعة بينهما، وهذا هو القياس المشهور عند أهل الأصول، وهذا لا يجوز أن يستخدم في حق الله عز وجل.

أما قياس الشمول: فهو القياس المكون غالبًا من مقدمتين ونتيجة، وهو كما عرّفه أهل المنطق: ما اشتمل على النتيجة أو نقيضها بالقوة لا بالفعل، وهو كما ذكرت غالبًا يتكون من مقدمتين كليتين ونتيجة.

وهذان النوعان من القياس لا يجوز استخدامهما في حق الله عز وجل ، لماذا؟ لأنه يستلزم أن يندرج الخالق والمخلوق تحت أصل وفرع (قياس التمثيل) أو تحت قضية كلية يستوي أفرادها (قياس الشمول) ، وهذا لا يجوز في حق الله عز وجل.

إذن؛ ما الشيء الذي يستخدم في حق الله ؟ المثل الأعلى - وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - **ما هو المثل الأعلى ، ما ضابطه ، ما تعريفه؟** - وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ كَمَالٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ ، وَكُلَّ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ مِنْ نَقْصٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِالتَّنْزِيهِ عَنْهُ - هذا هو المثل الأعلى الذي يستخدم في حق الله عز وجل: أن كل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص ثبت للمخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه، مثال ذلك: العلم؛ بالنسبة للمخلوق كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه فيجب أن نثبته لله عز وجل، العجز صفة نقص لا كمال فيها ينزه عنه المخلوق فالخالق أولى أن ينزه عن هذه الصفة.

ما وجه إدخال المثل الأعلى أو كيف نستخدم المثل الأعلى في المثل الذي ضربه الشيخ في موجودات الجنة وموجودات الدنيا؟ - فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ مُنَزَّهًا عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ مَعَ الْمُوَافَقَةِ فِي الِاسْمِ - فإذا كان المخلوق؛ أي: موجودات الجنة منزهة عن مماثلة موجودات الدنيا مع أنهما اتفقا في الاسم؛ لبن ولبن، عسل وعسل؛ لكن ليس هذا مثل هذا - فَالْخَالِقُ أَوْلَى أَنْ يُنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ ، وَإِنْ حَصَلَتْ مُوَافَقَةٌ فِي الِاسْمِ» فكما أننا ننزه المخلوق الذي هو موجودات الجنة أن تتوافق مع موجودات الدنيا، عسل الجنة مباين تمامًا لعسل الدنيا مع الاتفاق في الاسم، فالخالق أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق ولو اتفقا في الاسم، فالخالق يسمى سميع والمخلوق يسمى سميع، اتفقا في الاسم؛ لكنه أولى بالمباينة من مباينة المخلوق للمخلوق، وبهذا نستطيع أن ننزل هذا المثل على المثل الأعلى اللائق بالله سبحانه وتعالى.

المثل الثاني

يقول المؤلف: «وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي (الْمَثَلِ الثَّانِي: الرُّوحَ) الَّتِي فِينَا فَإِنَّهَا قَدْ وُصِفَتْ بِصِفَاتٍ ثُبُوتِيَّةٍ وَسَلْبِيَّةٍ وَقَدْ أَخْبَرَتْ النُّصُوصُ أَنَّهَا تَعْرُجُ وَتَصْعَدُ مِنْ سَمَاءٍ إلَى سَمَاءٍ وَأَنَّهَا تُقْبَضُ مِنْ الْبَدَنِ وَتُسَلُّ مِنْهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنْ الْعَجِينِ» هذه كلها ثابتة في السنة وفي القرآن أن الله عز وجل وصف هذه الروح التي في كل جسد حي، الروح التي فينا القريبة منا وصفها أنها تصعد وتنزل وتعذّب وتنعّم وتسمع وترى وتُسل، إذًا هذه صفات ثابتة لهذه الروح.

يقول المؤلف: «وَالنَّاسُ مُضْطَرِبُونَ فِيهَا – أي: مختلفون في هذه الروح، وسبب الاختلاف كما سيذكر المؤلف؛ لأنها مخالفة لهذه الأجساد والأجسام المشاهدة لنا فهي أمر آخر، فاختلف الناس فيها قديمًا وحديثًا ولا زال الخلاف قائمًا في تحديد ماهية

هذه الروح، ما حقيقة هذه الروح؟

الفرقة الأولى : -

فَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَجْعَلُونَهَا جُزْءًا مِنْ الْبَدَنِ - يعني أهل الكلام بعضهم جعل الروح كجزء من البدن مثل الطحال والكبد والمعدة، قالوا: الروح مثل ذلك جزء له كيان من البدن- أَوْ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ - من أهل الكلام من جعل الروح صفة من صفات البدن كالطول والبياض والعرض - كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَنَّهَا النَّفَسُ أَوْ الرِّيحُ الَّتِي تردد فِي الْبَدَنِ - بعضهم يقول: الروح هي حقيقة النَّفَس هذا والريح الذي يتردد في الجو - وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : إنَّهَا الْحَيَاةُ أَوْ الْمِزَاجُ أَوْ نَفْسُ الْبَدَنِ» إذن الفرقة الأولى أهل الكلام الذين جعلوها جزءًا من البدن أو صفة من صفات البدن.

الفرقة الثانية : -

وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ يَصِفُونَهَا بِمَا يَصِفُونَ بِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ عِنْدَهُمْ - ما وصف واجب الوجود عند الفلاسفة؟ سبق الكلام عن ذلك، يصفون الله عز وجل دائمًا بالسلب؛ ليس بكذا ولا كذا ولا كذا، أيضًا وصفوا الروح بنفس الصفات - وَهِيَ أُمُورٌ لَا يَتَّصِفُ بِهَا إلَّا مُمْتَنِعُ الْوُجُودِ - يقول: هذه الصفات في واقع الأمر لا يوصف بها شيء موجود، بل لا يوصف بها المعدوم بل ممتنع الوجود، كيف ذلك؟ اسمع صفات الروح عند هؤلاء، نفس الصفات التي وصفوا بها الله عز وجل - فَيَقُولُونَ : لَا هِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْبَدَنِ وَلَا خَارِجَة - وقالوا في الله: لا هو داخل العالم ولا خارجه -

وَلَا مُبَايِنَةٌ لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةٌ لَهُ - قالوا في الله عز وجل: لا هو مداخل للعالم ولا مباين للعالم -

وَلَا مُتَحَرِّكَةٌ وَلَا سَاكِنَةٌ، وَلَا تَصْعَدُ وَلَا تَهْبِطُ، وَلَا هِيَ جِسْمٌ وَلَا عَرَضٌ، وَقَدْ يَقُولُونَ: أَنَّهَا لَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْمُعَيَّنَةَ وَالْحَقَائِقَ الْمَوْجُودَةَ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْكُلِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ - يعني: تدرك المعاني المشتركة لا تدرك الأشياء المقيدة المخصصة - وَقَدْ يَقُولُونَ : أَنَّهَا لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا مُبَايِنَةً لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةً، وَرُبَّمَا قَالُوا: لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي أَجْسَامِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَةً عَنْهَا، مَعَ تَفْسِيرِهِمْ لِلْجِسْمِ بِمَا لَا يَقْبَلُ الْإِشَارَةَ الْحِسِّيَّةَ، فَيَصِفُونَهَا بِأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ الْإِشَارَةُ إلَيْهَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي تُلْحِقُهَا بِالْمَعْدُومِ وَالْمُمْتَنِعِ» بمعنى هذه الصفات التي وصفوا بها الروح في واقع الأمر أن الروح بهذه الصفة هي إما معدومة أو ممتنعة.

يقول المؤلف: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : إثْبَاتُ مِثْلِ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ - إذا قال لهم المسلمون: إثبات هذه الصفات للروح، هذا أمر ممتنع في العقل كيف تقول: لا داخل العالم ولا خارجه أين هي إذن؟! لا هي داخل الجسم ولا خارجه! لاهي مباينة ولا محايدة، هذا مستحيل! ممتنع ما يقبله العقل - قَالُوا : بَلْ هَذَا مُمْكِنٌ -كيف؟ ما دليلكم؟- بِدَلِيلِ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ مُمْكِنَةٌ مَوْجُودَةٌ وَهِيَ غَيْرُ مُشَارٍ إلَيْهَا - الكليات كما ذكرنا الأشياء العامة التي غير مقيدة وغير مخصصة؛ إنسان مطلق، حيوان مطلق، هذا يقولون: موجود ولا يمكن الإشارة إليه.الشيخ سيرد عليهم - وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ كَوْنِ الْكُلِّيَّاتِ لَا تُوجَدُ كُلِّيَّةً إلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ - الكليات غير موجودة في الخارج، لا حقيقة لها، وجودها وجود ذهني - فَيَعْتَمِدُونَ فِيمَا يَقُولُونَهُ فِي الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْخَيَالِ الَّذِي لَا يَخْفَى فَسَادُهُ عَلَى غَالِبِ الْجُهَّالِ» يقول: أيضًا مذهبهم في خلق الإنسان وفي أحوال الآخرة هو على هذا المذهب الباطل.

يقول المؤلف: «وَاضْطِرَابُ النفاة وَالْمُثْبِتَةِ فِي الرُّوحِ كَثِيرٌ - يقول: اختلاف الناس واضطرابهم في الروح كثير، ما السبب؟ ما سبب الاضطراب والاختلاف؟ - وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي تُسَمَّى بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ - الروح يطلق عليها الفلاسفة: النفس الناطقة - لَيْسَتْ هِيَ مِنْ جِنْسِ هَذَا الْبَدَنِ الْمُشَاهد، وَلَا مِنْ جِنْسِ الْعَنَاصِرِ وَالْمُوَلَّدَاتِ مِنْهَا - أي الأصول التي تتكون منها أبدان بني آدم من المادة، يعني: ليست من جنس هذا البدن، ولا من جنس العناصر التي تكونت منها هذه

الأبدان - بَلْ هِيَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مُخَالِفٍ لِهَذِهِ الْأَجْنَاسِ، فَصَارَ هَؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُونَهَا إِلَّا بِالسُّلُوبِ الَّتِي تُوجِبُ مُخَالَفَتَهَا لِلْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ - هؤلاء: أي الفلاسفة؛ يُعرفونها بالسلوب (النفي)؛ لأجل أن يبعدوها تمامًا عن مشابهة الأجساد، فكل صفة ثبوتية ثبتت للجسم ينفونها عن الروح - وَأُولَئِكَ - أي أهل الكلام - يَجْعَلُونَهَا مِنْ جِنْسِ الْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ» هؤلاء غلوا وجعلوا الروح من جنس الجسم المشاهد، وأولئك نفوا عنها جميع الصفات الثابتة للأجسام.

يقول المؤلف: «وَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا جِسْمٌ أَوْ لَيْسَتْ بِجِسْمٍ يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ - هل الروح جسم أو ليست بجسم؟ يقول: هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل، لماذا؟ لأن لفظ الجسم من الألفاظ المجملة التي تحتمل أكثر من معنى، إذن لا بد أول شيء نفسر الجسم، فإذا فسرنا الجسم طبقنا هذا التفسير هل يَصدق على الروح أو لا يَصدق؟ -

فَإِنَّ لَفْظَ الْجِسْمِ لِلنَّاسِ فِيهِ أَقْوَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ اصْطِلَاحِيَّةٌ غَيْرُ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ - الجسم له معنى في اللغة عند العرب أما معناها الاصطلاحي فهم متباينون؛ فالناس متباينون في ضابط الجسم ما تعريفه؟

سيذكر أولًا تعريف أهل اللغة والقرآن نزل بلغة العرب :- فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: الْجِسْمُ هُوَ الْجَسَدُ وَالْبَدَنُ - وبهذا الاعتبار هل الروح جسم أو ليست بجسم؟ الصحيح أنها ليست بجسم لأنها ليست بدن وليست جسد.- وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالرُّوحُ لَيْسَتْ جِسْمًا ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ : الرُّوحُ وَالْجِسْمُ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ - الجسم هنا بمعنى البدن والجسد. إذًا الجسم بمعناه اللغوي لا يصدق على الروح، يعني: لا نطلق على الروح أنها جسم بالمعنى اللغوي؛ لأن الجسم بالمعنى اللغوي الجسد والبدن، والروح ليست كذلك.

أما معنى الجسم في الاصطلاح :-

وَأَمَّا أَهْلُ الْكَلَامِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : الْجِسْمُ هُوَ الْمَوْجُودُ - عند بعض أهل الكلام أن كل ما هو موجود فهو جسم - وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ - والجواهر المفردة كما يعرفها المناطقة هي: الجزء الذي لا يقبل التجزؤ لا بالفعل ولا بالقوة، وأصلًا عموم العقلاء يخالفونهم في وجود هذه الجواهر المفردة؛ لأن أهل العلم يقولون: أن كل شيء يمكن أن يتجزأ إلى أن يتلاشى وينتهي أو ينتقل من هذا العنصر إلى عنصر آخر - وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّهُ مُشَارٌ إلَيْهِ إشَارَةً حِسِّيَّةً - يقول: الجسم يمكن الإشارة إليه إشارة حسية - وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ مُرَكَّبًا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا بَلْ هُوَ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهِ وَيُقَالُ: إنَّهُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ» إذن هناك اضطراب هناك اختلاف في ضابط الروح في الاصطلاح، ولهذا لا يطلق على الروح بأنها جسم بالمعنى الاصطلاحي ولا ينفى عنها ذلك؛ إذ لابد من الاستفسار والاستفصال ماذا تقصد بالجسم؟ فإذا قلت: الجسم هو كل موجود، قلنا لك: الروح جسم بهذا المعنى؛ لأنها موجودة. وإذا قلت: أن الجسم هو ما يشار إليه، نقول لك: الروح هنا جسم بهذا المعنى؛ لأن الروح يمكن أن يشار إليها، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي سلمة: (أن الميت إذا مات وخرجت روحه تبعها البصر) بمعنى أنها ترى ويشار إليها.

يقول المؤلف: «فَعَلَى هَذَا إنْ كَانَتْ الرُّوحُ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهَا وَيَتْبَعُهَا بَصَرُ الْمَيِّتِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنَّ الرُّوحَ إذَا خَرَجَتْ تَبِعَهَا الْبَصَرُ وَأَنَّهَا تُقْبَضُ وَيُعْرَجُ بِهَا إلَى السَّمَاءِ) كَانَتْ الرُّوحُ جِسْمًا بِهَذَا الِاصْطِلَاحِ» ثم بعد ذلك رجع الشيخ إلى أصل المثل، والذي لأجله أورد المثل؛ لأنه استطرد قليلًا في بيان معاني الروح واختلاف الناس في الروح ورجع ليبين؛ لأنه أورد هذا المثل ليرد به على من نفى الصفات بحجة البعد عن التشبيه والتمثيل.

يقول المؤلف: «وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ الرُّوحَ إذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً حَيَّةً عَالِمَةً قَادِرَةً سَمِيعَةً بَصِيرَةً تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ وَتَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَنَحْوَ

ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ - هذه الصفات الآن ثابتة لهذه الروح - وَالْعُقُولُ قَاصِرَةٌ عَنْ تَكْيِيفِهَا وَتَحْدِيدِهَا - بمعنى موصوفة بهذه الصفات والعقل ما استطاع أن يحددها بالضبط أي يحدد كُنهها - لِأَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا لَهَا نَظِيرًا - لم يشاهدوا للروح نظير ومثيل - وَالشَّيْءُ إنَّمَا تُدْرَكُ حَقِيقَتُهُ بِمُشَاهَدَتِهِ أَوْ مُشَاهَدَةِ نَظِيرِهِ - وهذا تكلمنا عليه في مسألة الكيفية، وأن كيفية الشيء لا يمكن أن تدرك إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره - فَإِذَا كَانَتْ الرُّوحُ مُتَّصِفَةً بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَ عَدَمِ مُمَاثَلَتِهَا لِمَا يُشَاهَدُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِمُبَايَنَتِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ مَعَ اتِّصَافِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ - هنا طبّق المثل الأعلى على مسألة الروح وصفات الله عز وجل، إذا كانت الروح الآن موصوفة بصفات هي نفسها الصفات الثابتة لهذه الأجساد التي أمامنا، سميعة سميع، بصيرة بصير، تذهب تذهب، وهي مباينة تمامًا لهذه الأجساد المشاهدة، فمباينة الخالق للمخلوق مع الاتفاق في الاسم أعظم وأعظم - وَأَهْلُ الْعُقُولِ هُمْ أَعْجَزُ عَنْ أَنْ يَحُدُّوهُ أَوْ يُكَيِّفُوهُ مِنْهُمْ عَنْ أَنْ يَحُدُّوا الرُّوحَ أَوْ يُكَيِّفُوهَا - إذا كانت العقول عجزت واختلفت واضطربت في تحديد كُنْه الروح فمن باب أولى أن تعجز في تحديد كنه هذه الصفات - فَإِذَا كَانَ مَنْ نَفَى صِفَاتِ الرُّوحِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا لَهَا، وَمَنْ مَثَّلَهَا بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ جَاهِلًا مُمَثِّلًا لَهَا بِغَيْرِ شَكْلِهَا ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ ثَابِتَةٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ - إذا كان الجاحد معطل في صفات الروح، والممثل لها بصفات الأجساد ممثل ومشبه، وهي مع ذلك ثابتة في حقيقة الإثبات؛ يعني وجود الروح واتصافها بهذه الصفات لا يضرها جحد الفلاسفة المعطلة ولا تشبيه أهل الكلام - مُسْتَحِقَّةٌ لِمَا لَهَا مِنْ الصِّفَاتِ، فالْخَالِقُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَنْ نَفَى صِفَاتِهِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا، وَمَنْ قَاسَهُ بِخَلْقِهِ جَاهِلًا بِهِ مُمَثِّلًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثَابِتٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ مُسْتَحِقٌّ لِمَا لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» فالله سبحانه وتعالى صفاته ثابتة وحقيقية وإن جحدها من جحدها أو مثّل صفاته من مثلها.

المحاضرة (١٣)

بدأ المؤلف بالخاتمة الجامعة فقد وعدَنا أن يبين عقيدة أهل السنة ويرُد على المخالفين بأصلين عظيمين ومثلين مضروبين وخاتمة جامعة.

الخاتمة الجامعة

يقول المؤلف: «فَصْلٌ (وَأَمَّا الْخَاتِمَةُ الْجَامِعَةُ) فَفِيهَا قَوَاعِدُ نَافِعَةٌ - الخاتمة قسمها رحمه الله إلى عدة قواعد، ما هذه القواعد؟ -

القاعدة الأولى

(الْقَاعِدَةُ الْأُولَى) أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ - بمعنى أن الله عز وجل موصوف بصفات ثبوتية وبصفات منفية عنه، وبهذا يتحقق التوحيد له سبحانه وتعالى؛ لأن الاقتصار على الإثبات لا يمنع المشاركة فإذا قلنا: الله سميع بصير متكلم فقط وسكتنا لا يمنع أن يشاركه غيره في هذه الصفات، والاقتصار على النفي وحده ما هو إلا تعطيل - فَالْإِثْبَاتُ كَإِخْبَارِهِ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَالنَّفْيُ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾»

يقول الشيخ: «وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّفْيَ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ إلَّا إذَا تَضَمَّنَ إثْبَاتًا - وهذا تقدم الإشارة إليه، الآن نحن نقول: الله عز وجل موصوف بالنفي والإثبات، موصوف بصفات ثبوتية: كما ذكر المؤلف كإثبات صفة القدرة والعلم والسمع والبصر، والنفي كقوله سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لكن؛ الشيخ أراد أن يبين أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا بشرط: إذا تضمن إثباتًا، إذا كان هذا النفي يتضمن صفة ثبوتية وهو ما يسمى بالنفي غير المحض، أما إذا لم يتضمن صفة ثبوتية فهو نفي محض، يعني بعبارة أخرى أن الصورة صورة نفي-اللفظ في ظاهره نفي- لكن؛ في مضمونه إثبات، أضرب لكم مثال

حسي ثم ننتقل إلى كلام المؤلف وتطبيق ذلك على صفات الله عز وجل، إذا قلت أنا: (هذا الطالب ليس بجبان) هذا نفي، نفي صفة الجبن عنه؛ لكن مضمون هذا النفي إثبات صفة الشجاعة، فكأنني أريد أن أثبت له صفة الشجاعة؛ لكن بأسلوب آخر أن أنفي عنه ما يضادها، (هذه الطالبة ليست بقبيحة) يعني: أثبت لها الصفة التي ضد القبح (هذا الطالب ليس بكسول) أثبت له صفة الاجتهاد. - **وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ النَّفْيِ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ** - لماذا؟ -

لِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ عَدَمٌ مَحْضٌ وَالْعَدَمُ الْمَحْضُ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَمَا لَيْسَ بِشَيْءٍ هُوَ كَمَا قِيلَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ كَمَالًا - إذن السبب الأول في كون مجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن ثبوتًا لماذا؟ «لِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ عَدَمٌ مَحْضٌ ؛ وَالْعَدَمُ الْمَحْضُ لَيْسَ بِشَيْءٍ» فهو لا يُمدح لا بكمال ولا بغيره.

ثم علل المؤلف علة أخرى، قال: - **وَلِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ يُوصَفُ بِهِ الْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ** - المعدوم الشيء الغير موجود، والشيء الغير موجود وممتنع وجوده، لأن المعدوم كما ذكرنا إما أن يكون جائز الوجود أو ممتنع الوجود، فالنفي المحض يوصف به العدم والممتنع - **وَالْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ لَا يُوصَفُ بِمَدْحِ وَلَا كَمَالٍ»** فلو وصفنا الله عز وجل بالنفي المحض الذي لا يتضمن كمالًا لشبهناه بالمعدوم أو بالممتنع؛ لكن النفي إذا تضمن إثباتًا صار مدحًا.

يقول المؤلف: «**فَلِهَذَا كَانَ عَامَّةُ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ النَّفْيِ مُتَضَمِّنًا لِإِثْبَاتِ مَدْحٍ** - هذه قاعدة عامة عندنا: كل نفي مفصل ورد في صفات الله عز وجل في الكتاب والسنة فإنه يتضمن كمالًا، يتضمن مدحًا يتضمن إثبات كمال ضده، يتضمن صفة ثبوتية، وسيذكر الشيخ الآن أمثلة على ذلك: - **كَقَوْلِهِ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾** - لاحظوا هذه الآية فيها نفيان:

النفي الأول قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لا يأخذه نعاس ولا نوم هذا نفي مفصل، نفى عن نفسه صفة نقص صفة السنة وصفة النوم، وأيضًا النفي الثاني: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يكرثه ولا يثقله.

نفي صفة السنة والنوم ماذا يتضمن؟ - **فَنَفْيُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ يَتَضَمَّنُ: كَمَالَ الْحَيَاةِ وَالْقِيَامِ ؛ فَهُوَ مُبَيِّنٌ لِكَمَالِ أَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** - ولما قال: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أراد أن يؤكد على هاتين الصفتين فقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فهذا النفي يتضمن كمال الحياة وكمال القيومية - **وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أَيْ لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ** -هذا النفي ماذا يستلزم؟ - **لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَتَمَامِهَا** - كأنه أراد أن يثبت كمال القدرة، فقال: ﴿لَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ - **بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الْقَادِرِ إِذَا كَانَ يَقْدِرُ عَلَى الشَّيْءِ بِنَوْعِ كُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ، فَإِنَّ هَذَا نَقْصٌ فِي قُدْرَتِهِ وَعَيْبٌ فِي قُوَّتِهِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾** - نفي صفة عن الله؛ صفة نقص، أنه يعزب أو يغيب عنه ذرة في السموات والأرض- **فَإِنَّ نَفْيَ الْعُزُوبِ مُسْتَلْزِمٌ لِعِلْمِهِ بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** - فهذا النفي مستلزم لكمال العلم لله - **وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فَإِنَّ نَفْيَ مَسِّ اللُّغُوبِ، الَّذِي هُوَ التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ دَلَّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَنِهَايَةِ الْقُوَّةِ، بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَلْحَقُهُ مِنَ النصب والكلال مَا يَلْحَقُهُ.**

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ - نفى عن نفسه سبحانه أن تدركه الأبصار، يتضمن ماذا؟-**إِنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ الَّذِي هُوَ الْإِحَاطَةُ** - نفى أن تحيط به الأبصار - **كَمَا قَالَهُ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ وَلَمْ يَنْفِ مُجَرَّدَ الرُّؤْيَةِ** - هذه الآية عمدة للمعتزلة في نفي رؤية الله عز وجل ولا متمسك لهم فيها؛ لأن المنفي هنا هل هو الرؤية أو الإدراك؟ ما قال: لا تراه الأبصار، قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بمعنى تراه ولا تدركه والإدراك الإحاطة بالشيء ، لماذا؟ - **لأن الْمَعْدُومَ لَا يُرَى، وَلَيْسَ فِي كَوْنِهِ لَا يُرَى مَدْحٌ** - نحن عندنا قاعدة: أن الله يوصف بالكمال، وساق الآية مساق المدح قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فلو كان معناه لا تراه الأبصار فهذا ليس فيه مدح؛ لأن المعدوم لا تراه الأبصار، وإذا قلنا: أن المعدوم لا تراه الأبصار هل نمدحه بهذا؟ الجواب: لا؛ إذًا المدح في كونه

تراه الأبصار؛ ولكن لا تحيط به الأبصار، كما أن السموات يمكن أن تراها ببصرك؛ لكن لا تحيط بها، الشمس تراها ببصرك؛ لكن لا تحيط بها لا تدركها لعظمتها - إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ الْمَعْدُومُ مَمْدُوحًا وَإِنَّمَا الْمَدْحُ فِي كَوْنِهِ لَا يُحَاطُ بِهِ وَإِنْ رُؤِيَ ؛ كَمَا أَنَّهُ لَا يُحَاطُ بِهِ وَإِنْ عُلِمَ فَكَمَا أَنَّهُ إِذَا عُلِمَ لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا - يعني يُعلم ولا يحاط به علمًا لعظمته فكذلك يُرى ولا يُدرك لعظمته - فَكَذَلِكَ إِذَا رُؤِيَ لَا يُحَاطُ بِهِ رُؤْيَةً - إذًا هذا النفي متضمن لكمال عظمته ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾.

ولهذا إذا قيل لك: ما الصفة الثبوتية الذي تضمنها هذا النفي ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؟ مباشرةً تقول: كمال العظمة. كما أنك إذا قيل لك: ما الصفة الثبوتية التي تضمنها قوله سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾؟ تقول: كمال الحياة والقيومية - فَكَانَ فِي نَفْيِ الْإِدْرَاكِ مِنْ إِثْبَاتِ عَظَمَتِهِ مَا يَكُونُ مَدْحًا وَصِفَةَ كَمَالٍ، وَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ لَا عَلَى نَفْيِهَا - هذه الآية دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها كما استدل بها المعتزلة ومن سلك مسلكهم في نفي الرؤية عن الله عز وجل - لَكِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ مَعَ عَدَمِ الْإِحَاطَةِ - بمعنى يُرى ولا تحيط به الأبصار لعظمته ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ - وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا»

يقول المؤلف: «وَإِذَا تَأَمَّلْت ذَلِكَ: وَجَدْت كُلَّ نَفْيٍ لَا يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتًا هُوَ مِمَّا لَمْ يَصِفْ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ - يقول: هذه الخلاصة: أن كل نفي لم يتضمن صفة ثبوتية هذا النفي لم يصف الله عز وجل به نفسه، وهذا هو الفرق بين نفي المعطلة ونفي القرآن، نفي المعطلة لا يستلزم ثبوت، بخلاف نفي القرآن فإنه يتضمن كمالًا، يتضمن صفة ثبوتية - فَالَّذِينَ لَا يَصِفُونَهُ إِلَّا بِالسُّلُوبِ - الجهمية والفلاسفة - لَمْ يُثْبِتُوا فِي الْحَقِيقَةِ إِلَهًا مَحْمُودًا، بَلْ وَلَا مَوْجُودًا، وَكَذَلِكَ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي بَعْضِ ذَلِكَ - مثل المعتزلة والأشاعرة؛ لأنهم شاركوهم: المعتزلة شاركوهم في نفي الصفات، والأشاعرة شاركوهم في نفي بعض الصفات - كَالَّذِينَ قَالُوا إنه لَا يَتَكَلَّمُ أَوْ لَا يَرَى - وهذا قول المعتزلة - أَوْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ أَوْ لَمْ يَسْتَوِ عَلَى الْعَرْشِ - وهذا قول المعتزلة بالإضافة إلى الأشاعرة؛ لأنهم اتفقوا جميعًا على نفي صفة العلو وصفة الاستواء-.وَيَقُولُونَ : لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ وَلَا محايدا لَهُ - لاحظوا كيف استفاد المعتزلة و الأشاعرة من الفلاسفة والباطنية وغلاة الجهمية هذه القاعدة في نفي الصفة التي نفوها وهي: صفة العلو لله عز وجل، الآن غلاة المعطلة من الفلاسفة والباطنية والجهمية ذكروا هذا في معرض نفي جميع الصفات عن الله عز وجل، الأشاعرة والمعتزلة أخذوا منهم هذا القدر لنفي صفة العلو عن الله عز وجل، فقالوا: «لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ وَلَا محايدا لَهُ» لأنه اعتُرض عليهم بالعقل في إثبات صفة العلو لله عز وجل، قيل لهم: لمّا خلق الله هذا العالم خلقهُ وهو عالٍ عليه أو تحته؟ وخلقه وهو داخله أو خارجه؟ فبهتوا بهذه الحجة كيف يجاوبون؟ فجاءوا بهذه الشبهة التي استفادوها من الفلاسفة - إِذْ هَذِهِ الصِّفَاتُ يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ بِهَا الْمَعْدُومُ ؛ وَلَيْسَتْ هِيَ مُسْتَلْزِمَةً صِفَةَ ثُبُوتٍ» يعني المؤلف يقول: من قال أنه: لا داخل العالم ولا خارجه ولا محايد ولا مباين هو في واقع الأمر وصف الله عز وجل بالمعدوم بل بالممتنع.

يقول المؤلف: «وَلِهَذَا قَالَ مَحْمُودُ بْنُ سبكتكين لِمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ فِي الْخَالِقِ - هذا الأمير الصالح لما جاء عنده أحد الجهمية ووصف الله عز وجل بهذه الصفة، ماذا قال له؟ قال: - مَيِّزْ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِي تُثْبِتُهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ؟» بمعنى أن هذا الوصف الذي ذكرته هو وصف العدم، كيف تصف به الله عز وجل الثابتة له هذه الصفات حقيقةً.

يقول المؤلف: «وَكَذَلِكَ كَوْنُهُ لَا يَتَكَلَّمُ، أَوْ لَا يَنْزِلُ لَيْسَ فِي ذَلِكَ صِفَةُ مَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ - الذين نفوا عن الله صفة الكلام كالمعتزلة، والذين نفوا عن الله صفة النزول كالأشاعرة والمعتزلة وغيرهم، لما نفوا عن الله عز وجل هذه الصفات، هل في هذا النفي إثبات كمال لله عز وجل؟ أيُّ كمال في هذا كونه لا يتكلم أو لا ينزل! - بَلْ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيهَا تَشْبِيهٌ لَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ أَوْ الْمَعْدُومَاتِ - كونه لا يتكلم أو لا ينزل أنت الآن شبهت الله عز وجل بالجمادات أو بالمعدومات - فَهَذِهِ الصِّفَاتُ : مِنْهَا مَا لَا

يَتَّصِفُ بِهِ إِلَّا الْمَعْدُومُ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ إِلَّا الْجَمَادَ أو النَّاقِصُ» هذا النفي الذي وصفوا به الله عز وجل في واقع الأمر لا يوصف به إلا المعدوم أو الجماد الناقص، فهم فروا من تشبيه الله بالموجودات أو بالكائنات الحية فوقعوا في شر مما فروا منه.

يقول المؤلف: «فَمَنْ قَالَ: لَا هُوَ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَاخِلٌ لِلْعَالَمِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَالَ: لَا هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ، وَلَا قَدِيمٌ وَلَا مُحْدَثٌ، وَلَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْعَالَمِ وَلَا مُقَارِنٌ لَهُ» هذا من باب الإلزام؛ كأنه يلزم الأشاعرة ومن حذا حذوهم، هم الآن لا يقولون أن الله لا هو قائم بنفسه ولا بغيره، يقولون: الله قائم بنفسه، والله قديم، والله متقدم على العالم، يقول: قولكم: «لَا هُوَ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَاخِلٌ لِلْعَالَمِ» هو تمامًا كقول من قال: «لَا هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ وَلَا قَدِيمٌ وَلَا مُحْدَثٌ وَلَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْعَالَمِ وَلَا مُقَارِنٌ لَهُ» إذا كنتم تقولون: أن كون الشيء «لَا هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ وَلَا قَدِيمٌ وَلَا مُحْدَثٌ» أن هذا مستحيل! فكذلك قول من قال وأنتم تقولون هذا القول: «لَا هُوَ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَاخِلٌ لِلْعَالَمِ»

يقول المؤلف: «وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ وَلَا مُتَكَلِّمٍ لَزِمَهُ أَنْ يَكُونَ مَيِّتًا أَصَمَّ أَعْمَى أَبْكَمَ - وهذا إلزام المعتزلة لما نفوا عن الله عز وجل أن يوصف بالحياة والسمع والبصر والكلام، ألزمهم أهل السنة أو ألزمهم المثبتة بأنه يلزم أن تثبتون أن الله ميت إذا قلتم: ليس بحي، إذًا فالله ميت تعالى الله عن ذلك، إذا قلتم: الله عز وجل لا يسمع بمعنى أنه أصم تعالى الله عن ذلك، إذا قلتم: أن الله لا يبصر بمعنى أنه أعمى تعالى الله عن ذلك - فَإِنْ قَالَ: الْعَمَى عَدَمُ الْبَصَرِ عَمَّا مَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَقْبَلَ الْبَصَرَ، وَمَا لَا يَقْبَلُ الْبَصَرَ كَالْحَائِطِ لَا يُقَالُ لَهُ أَعْمَى وَلَا بَصِيرٌ» هذا الكلام تقدم في قضية التقابل؛ هل هو تقابل بالسلب والإيجاب أو تقابل العدم والمَلَكة، لكن المرة هذه استخدم هذه الشبهة المعتزلة، والمرة السابقة استخدمها غلاة الجهمية في مسألة الوجود والعدم، هنا استخدمها المعتزلة في نفي عموم الصفات عن الله عز وجل، فلما ألزمهم أهل السنة بأنكم إذا نفيتم عن الله السمع والبصر والكلام فقد أثبتم له: الخرس والصمم والعمى، قالوا: لا، العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر، وما لا يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير.

الرد عليه: (نفس الرد السابق).

الجواب الأول: يقول المؤلف: «قِيلَ لَهُ : هَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحْتُمُوهُ وَإِلَّا فَمَا يُوصَفُ بِعَدَمِ الْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِالْمَوْتِ والصمم وَالْعَمَى وَالْخَرَسِ - نقول: الجمادات وصفها الله عز وجل بالموت وبالصمم، وهو قادر أن يجعلها حية كما جعل عصا موسى حية تسعى. فقولكم: «الْعَمَى عَدَمُ الْبَصَرِ عَمَّا مَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَقْبَلَ الْبَصَرَ وَمَا لَا يَقْبَلُ الْبَصَرَ كَالْحَائِطِ لَا يُقَالُ لَهُ أَعْمَى» هذا اصطلاح خاص بكم، لا يوافقكم عليه عموم العقلاء ولا يوافقكم عليه أهل اللغة. إذًا الجواب الأول: أن هذا اصطلاح خاص بكم، والمصطلحات كما ذكرنا في اللقاءات السابقة الاصطلاحات اللفظية لا تغير من الحقائق العلمية شيء، كونكم اصطلحتم على هذا الأمر، لكن الحقيقة العلمية ثابتة أن الجماد يمكن أن يوصف بالموت ويمكن أن يوصف بالحياة يمكن أن يوصف بالبصر.

الجواب الثاني: - وَأَيْضًا فَكُلُّ مَوْجُودٍ يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ وَنَقَائِضِهَا فَإِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ الْجَمَادِ حَيًّا كَمَا جَعَلَ عَصَى مُوسَى حَيَّةً ابْتَلَعَتْ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ. -

الجواب الثالث:- وَأَيْضًا فَالَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْظَمُ نَقْصًا مِمَّنْ يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بهذه الصفات بِنَقَائِضِهَا ، فَالْجَمَادُ الَّذِي لَا يُوصَفُ بِالْبَصَرِ وَلَا الْعَمَى وَلَا الْكَلَامِ وَلَا الْخَرَسِ أَعْظَمُ نَقْصًا مِنْ الْحَيِّ الْأَعْمَى الْأَخْرَسِ - يعني سلمنا لكم جدلًا أن نفي البصر يلزم منه إثبات العمى عما من شأنه يقبل العمى، وما لا يقبل العمى لا يوصف بضد ذلك، نقول: سلمنا لكم جدلًا لكن؛ أيهما أشد نقصًا الذي يقبل البصر وهو فاقد للبصر كالأعمى؟ أم الشيء الذي لا يقبل البصر كالجماد كالحائط؟ بلا شك الذي لا يقبل الاتصاف بهذا الصفات فأنتم شبهتم الله عز وجل بأعظم النقص. - فَإِذَا قِيلَ : إِنَّ الْبَارِي لَا

يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِذَلِكَ كَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ وَصْفِهِ بِالنَّقْصِ أَعْظَمُ مِمَّا إِذَا وُصِفَ بِالْخَرَسِ وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - يعني: كونكم تقولون: أن الله لا يقبل نقيض هذه الصفة؛ لأنه لا يقبل الصفة في أصلها فقد جعلتم الله أعظم نقصًا ممن فقد هذه الصفات ممن يقبلها، جعلتموه أعظم نقص من الأعمى ومن الأخرس ومن الأصم- مَعَ أَنَّهُ إِذَا جُعِلَ غَيْرَ قَابِلٍ لَهَا كَانَ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا . وَهَذَا تَشْبِيهٌ بِالْجَمَادَاتِ ؛ لَا بِالْحَيَوَانَاتِ - وأيهما أسوأ أن تشبه الله عز وجل بالكائنات الحية أو بالجمادات؟ لا شك أن الأسوأ أن تشبه الله عز وجل بالجمادات على حد قولك التي لا تقبل البصر ولا نقيض البصر - فَكَيْفَ ينكر مَنْ قَالَ ذَلِكَ على غَيْرُهُ مِمَّا يَزْعُمُ أَنَّهُ تَشْبِيهٌ بِالْحَيِّ - الآن هم ينكرون على أهل السنة أنكم لما أثبتم السمع والبصر شبهتم الله عز وجل بالمخلوق الحي، نقول: وأنتم شبهتم الله عز وجل بالجماد.

الجواب الرابع: - وَأَيْضًا فَنَفْسُ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقْصٌ – يعني: بغض النظر عن المتصف بهذه الصفة، السمع صفة كمال أو صفة نقص؟ العلم صفة كمال أو صفة نقص؟ بغض النظر عن المتصف بها، فإذا كانت صفة كمال فما المانع أن يوصف الله عز وجل بها؟! - كَمَا أَنَّ إِثْبَاتَهَا كَمَالٌ، فَالْحَيَاةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ -مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ تَعْيِينِ الْمَوْصُوفِ بِهَا- صِفَةُ كَمَالٍ وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ وَالْفِعْلُ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَمَا كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَحَقُّ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ مَعَ اتِّصَافِ الْمَخْلُوقِ بِهِ؛ لَكَانَ الْمَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنْهُ» الآن اتفقنا نحن وإياكم على أن الحياة صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه فالخالق أولى أن يتصف بها من المخلوق، القدرة صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه فالخالق أولى أن يتصف بها من المخلوق، «فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ» أي لم يتصف الله عز وجل بهذه الصفة (صفة الكمال)، «مَعَ اتِّصَافِ الْمَخْلُوقِ بِهِ؛ لَكَانَ الْمَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنْهُ» إذا كان الله عز وجل لا يمكن أن يتصف بالحياة وهي صفة كمال والمخلوق متصف بهذه الصفة صار المخلوق أكمل من الخالق.

يقول المؤلف: «وَاعْلَمْ أَنَّ الجهمية الْمَحْضَةَ كَالْقَرَامِطَةِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ يَنْفُونَ عَنْهُ تَعَالَى اتِّصَافَهُ بِالنَّقِيضَيْنِ حَتَّى يَقُولُوا: لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيٍّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ - وهذا تقدم الكلام عليه وإنما كرره الشيخ هنا للتأكيد على هذه المسألة - وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخُلُوَّ عَنْ النَّقِيضَيْنِ مُمْتَنِعٌ فِي بَدَائِهِ الْعُقُولِ كَالْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ» إذا كان (الجمع) الشيء موجود معدوم في آن واحد هذا مستحيل عقلًا، أيضًا؛ كونه لا موجود لا معدوم (رفع النقيضين) هذا مستحيل عقلًا وتقدم الكلام عن هذا.

يقول المؤلف: «وَآخَرُونَ وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ فَقَطْ فَقَالُوا لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ ، وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ أُولَئِكَ مِنْ وَجْهٍ» الآن المؤلف يقارن بين من ينفي الصفة ومن ينفي النفي والإثبات، أيهما أسوأ من الآخر؟

المحاضرة (١٤)

ذكر المؤلف الذين نفوا عنه النقيضين وهم الجهمية المحضة والقرامطة الذين قالوا: «لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيٍّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ» يعني ينفون الصفة الثبوتية وينفون نقيضها.

ثم ذكر النفاة: «وَآخَرُونَ وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ فَقَطْ فَقَالُوا لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ»

الشيخ الآن يريد أن يقارن بين هاتين الطائفتين: النفاة وبين غلاة النفاة، ، أيهما أسوأ؟

يقول المؤلف: «وَهَؤُلَاءِ – الذين وصفوه بالنفي قالوا: ليس بحي ولا سميع - أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ أُولَئِكَ مِنْ وَجْهٍ وَأُولَئِكَ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهٍ» بمعنى بينهم تداخل؛ هؤلاء أعظم كفرًا من هؤلاء من وجه وهؤلاء أعظم من هؤلاء كفرًا من وجه آخر، كيف؟

الذين وصفوا الله بالنفي فقط: أعظم كفرًا من الذين سلبوا النقيضين؛ لأنه يلزم من نفيهم صفة الكمال عن الله وصفهم له

بنقيضها، فإذا قالوا: ليس بحي وسكتوا؛ فيلزم من هذا الكلام أنه ميت تعالى الله عن ذلك، وإذا قالوا: ليس بسميع يلزم منه أن يكون أصم تعالى الله عن ذلك.

أما النفاة المحضة الذين يسلبون النقيضين: فقد صرحوا بنفي صفة النقص، نفوا صفة الكمال؛ لكن لئلا يلزمهم إثبات صفة النقص قالوا: ننفي صفة النقص، فهم أقرب للتنزيه من جهة تصريحهم بنفي صفة النقص عن الله عز وجل، هذا وجه كون النفاة أعظم كفرًا من الغلاة.

«وَأُولَئِكَ - أي الغلاة الذين نفوا النقيضين - أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهٍ» لماذا؟

لأن الذين وصفوا الله بسلب النقيضين أعظم كفرًا من جهة أنهم وصفوا الله بما يتصف به الممتنعات، الشيء الذي ليس بموجود ولا ليس بموجود ولا حي ولا ليس بحي هذا ممتنع، ولا شك أن هذا أعظم كفرًا وأسوأ كونك وصفت الله بما توصف به الممتنعات الأشياء المستحيل عقلًا وجودها ، أما الذين وصفوه بالنفي فقط فقد جعلوا الله مشاركًا لسائر الموجودات في مسمى الوجود، إضافةً إلى أنهم يصرحون أن صفة النقص لا تلزمهم؛ لأنه غير قابل لأصل الصفة، في مسألة التقابل والذي سبق الكلام عنها.

يقول المؤلف: «فَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ هَذَا يَسْتَلْزِمُ وَصْفَهُ بِنَقِيضِ ذَلِكَ كَالْمَوْتِ وَالصَّمَمِ وَالْبُكْمِ - عاد الشيخ؛ لمناقشة هؤلاء النفاة الذين نفوا عن الله الحياة والسمع والبصر، قال: يلزمكم أن تصفوه بنقيض ذلك - قَالُوا: إِنَّمَا يَلْزَمُ ذَلِكَ لَوْ كَانَ قَابِلًا لِذَلِكَ - يقولوا: يلزم إثبات الموت لو كان قابلًا أصلًا للحياة؛ لكن هو غير قابل للحياة كالجماد كالجدار فلا يلزم من نفي الحياة إثبات صفة الموت، ونفي صفة البصر إثبات صفة العمى؛ لأنه غير قابل أصلًا للبصر - وَهَذَا الِاعْتِذَارُ يَزِيدُ قَوْلَهُمْ فَسَادًا» لماذا؟ لأنهم انتقلوا من تشبيه الله عز وجل كما تقدم بالشيء القابل إلى الشيء غير القابل؛ وهذا أشد نقصًا.

يقول المؤلف: «وَكَذَلِكَ مَنْ ضَاهَى هَؤُلَاءِ وَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ ، إذَا قِيلَ لهم: هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ - وهم الأشاعرة، استخدموا هذه الشبهة في نفي (صفة العلو) عن الله عز وجل، يعني استعاروا هذه الشبهة من إخوانهم المعطلة ليستخدموها سلاحًا في وجه أهل السنة لمّا أثبتوا صفة العلو، يقول: «وَكَذَلِكَ مَنْ ضَاهَى هَؤُلَاءِ» أي شابه المعتزلة والجهمية في نفي عموم الصفات، في كونه نفى صفة العلو واحتج بهذه الشبهة «وَكَذَلِكَ مَنْ ضَاهَى هَؤُلَاءِ - أي شابه هؤلاء- وَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ إذَا قِيلَ لهم هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ» يعني يستحيل عقلًا أن يكون الشيء موجودًا لا هو داخل العالم ولا خارجه؛ كما ذكرت لكم في المحاضرة السابقة، أهل السنة ألزموهم في إثبات صفة العلو؛ أن الله عز وجل لما خلق هذا العالم خلقه وهو داخل العالم أو خارجه؟! لزم أن يقولوا: أنه خلقه وهو خارج العالم، إذا خلقه وهو خارج العالم فلا بد أن يكون أعلى من العالم لا يكون العالم أعلى منه جاؤوا بهذه أو استعاروا هذه الشبهة من إخوانهم المعطلة ليردوا بها على أهل السنة في هذا الإلزام - كَمَا إذَا قِيلَ: لَيْسَ بِقَدِيمِ وَلَا مُحْدَثٍ وَلَا وَاجِبٍ وَلَا مُمْكِنٍ، وَلَا قَائِمٍ بِنَفْسِهِ، وَلَا قَائِمٍ بِغَيْرِهِ - يعني هم الآن الأشاعرة لو قلت لهم: هل يمكن أن يكون الله لا قديم ولا محدَث؟ قالوا: هذا مستحيل عقلًا، كيف؟ إما قديم أو محدث أي موجود، يقال: هل يمكن أن يكون لا واجب ولا ممكن ؟ قالوا: مستحيل إما أن يكون الموجود واجب أو ممكن، إذا قلت لهم: هل يمكن أن يكون الموجود لا قائم بنفسه ولا قائم بغيره؟ قالوا: مستحيل؛ إما أن يكون قائم بنفسه أو قائم بغيره، إذا كان هذا مستحيل فأيضًا كون الشيء لا داخل العالم ولا خارجه مستحيل هما من باب واحد - قَالُوا هَذَا إنَّمَا يَكُونُ إذَا كَانَ قَابِلًا لِذَلِكَ - هذا وجه استعارتهم هذه الشبهة من إخوانهم - وَالْقَبُولُ إنَّمَا يَكُونُ مِنْ الْمُتَحَيِّزِ - على حد قولهم: الله ليس بمتحيز فلا يمتنع نفي هذين النقيضين عنه! - فَإِذَا انْتَفَى التَّحَيُّزُ انْتَفَى قَبُولُ هَذَيْنِ الْنقِيضَيْنِ» يقولون: هذا الإلزام يكون للشيء القابل، الشيء القابل أن يكون داخل العالم أو خارجه، والشيء القابل هو

المتحيز، والله ليس بمتحيز، إذًا نفي النقيضين عن الله عز وجل ليس فيه ما يستحيل عقلًا.

الرد: **يقول المؤلف**: «فَيُقَال لَهُمْ: عِلْمُ الْخَلْقِ بِامْتِنَاعِ الْخُلُوِّ مِنْ هَذَيْنِ النَّقِيضَيْنِ هُوَ عِلْمٌ مُطْلَقٌ - يعني أطبق عليه عموم العقلاء، الآن قاطبةَ عموم الخلائق أصحاب العقول السوية والفطر السليمة مجمعون على أن الموجود يستحيل أن يجرد عن هذين النقيضين أن يكون الشيء موجود لا داخل العالم ولا خارجه هذا مستحيل - لَا يُسْتَثْنَى مِنْهُ مَوْجُودٌ - أيُّ موجود، لا تقول لي المتحيز وغير المتحيز - وَالتَّحَيُّزُ الْمَذْكُورُ - الآن لفظ التحيز من الألفاظ المجملة له أكثر من معنى - إنْ أُرِيدَ بِهِ كَوْنُ الأحياز الْمَوْجُودَةِ تُحِيطُ بِهِ فَهَذَا هُوَ الذي في الدَّاخِلُ الْعَالَمِ ؛ وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ مُنْحَازٌ عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ أَيْ مُبَايِنٌ لَهَا مُتَمَيِّزٌ عَنْهَا فَهَذَا هُوَ الْخَارِج عن العالم - إذن يلزمكم ذلك، يعني كونكم قلتم: متحيز؛ هذا من التلبيس على العامة؛ لأن المتحيز إما أن تكون الأحياز تحيز به فيكون داخل العالم، وإما أن يكون منفصل منحاز عن العالم فهو الذي خارج العالم - فَالْمُتَحَيِّزُ يُرَادُ بِهِ تَارَةً مَا هُوَ دَاخِلُ الْعَالَمِ وَتَارَةً مَا هُوَ خَارِجُ الْعَالَمِ، فَإِذَا قِيلَ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ كَانَ مَعْنَاهُ لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ - فسرتم الماء بعد الجهد بالماء، عدتم إلى النقطة الأولى، فقولكم: ليس بمتحيز هو معنى ليس بداخل العالم ولا خارجه؛ لأن المتحيز إما أن يكون داخل العالم أو خارجه - فَهُمْ غَيَّرُوا الْعِبَارَةَ - لماذا أتوا لنا بلفظ التحيز؟! لأجل التلبيس على الناس، الناس لا يعرفون كلمة (تحيز) يقول : - فَهُمْ غَيَّرُوا الْعِبَارَةَ لِيُوهِمُوا مَنْ لَا يَفْهَمُ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ أَنَّ هَذَا مَعْنًى آخَرَ - أنهم جاؤوا بشيء جديد؛ أن هناك موجود يمكن أن لا يكون لا داخل العالم ولا خارجه وهذا مستحيل عقلاً، جاءوا بلفظ التحيز هذا ليلبسوا ويموهوا على من يجهل حقيقة قولهم - وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي عُلِمَ فَسَادُهُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ ؛ كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ فِي قَوْلِهِمْ لَيْسَ بِحَيِّ وَلَا مَيِّتٍ وَلَا مَوْجُودٍ وَلَا مَعْدُومٍ وَلَا عَالِمٍ وَلَا جَاهِلٍ.» يقول: قولهم هذا كقول نظرائهم بل كقول أعدائهم؛ لأنهم يعتبرون المعتزلة والجهمية أعداء لهم، وينكرون عليهم أنهم يقولون: ليس بحي ولا ميت، يقولون: هذا مستحيل، يقول: فقولكم لا داخل العالم ولا خارجه هو قول من قال :«لَيْسَ بِحَيِّ وَلَا مَيِّتٍ وَلَا مَوْجُودٍ وَلَا مَعْدُومٍ وَلَا عَالِمٍ وَلَا جَاهِلٍ» انتهت هذه القاعدة.

القاعدة الثانية

يقول المؤلف: «الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: وهي أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ عنْ رَبِّهِ فَإِنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ سَوَاءٌ عَرَفْنَا مَعْنَاهُ أَوْ لَمْ نَعْرِفْ ؛ لِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ؛ فَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَجَبَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ الْإِيمَانُ بِهِ وَإِنْ لَمْ يُفْهَمْ مَعْنَاهُ» يقول :يجب على كل مسلم أن يثبت كل ما ثبت في الكتاب والسنة سواء عرف معناه أو لم يعرف معناه، عليه أن يثبت ذلك، لماذا ؟ لأنه خبر الصادق لأن الذي جاء به الصادق المصدوق النبي صلى الله عليه وسلم، فيجب قبول خبره ويجب الإيمان به، يقول الشيخ : «وَإِنْ لَمْ يُفْهَمْ مَعْنَاهُ» هل معنى هذا أن من نصوص الكتاب والسنة شيء لا يُفهم معناها، أو لا معنى له؟ لا، كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مفهوم المعنى، ويستحيل أن يأتي بشيء لا معنى له، لماذا؟ لأنه جاء بهذا القرآن ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وخاطب العرب خاطبهم بلسانهم، وأمرهم بتدبر القرآن كما سيأتي، وإذا أمرهم بتدبر القرآن فمعناه أمرهم بتدبر كلام مفهوم المعنى، وإلّا كيف تعطيني كلام لا معنى له وتقول: تدبر هذا الكلام؟! هذا مستحيل عقلًا، إذن ما معنى كلام الشيخ: «وَإِنْ لَمْ يُفْهَمْ مَعْنَاهُ»؟ معنى هذا الكلام ليس الناس كلهم على درجة واحدة وفي طبقة واحدة في استطاعتهم فهم كل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قد يخفى عليه شيء مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لكن لا يخفى على العالم الفلاني، وليس معنى كونه خفي علي أنه لا معنى له، لا؛ أنا أثبته وله معنى؛ لكن قد لا أدركه، ولهذا قال الشيخ: «وَإِنْ لَمْ يُفْهَمْ مَعْنَاهُ» أي لم تفهم أنت معناه؛ لكن غيرك يفهم معناه.

يقول المؤلف: «وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا ، مَعَ أَنَّ هَذَا الْبَابَ يُوجَدُ عَامَّتُهُ مَنْصُوصًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

مُتَّفَقا عَلَيْهِ بَيْنَ سَلَفِ الْأُمَّةِ» يقول: وكذلك ما ثبت بإجماع الأمة يجب إثباته؛ لكن هل يمكن أن تكون هناك صفة ثبتت بالإجماع ليس لها أصل في الكتاب والسنة؟ لا؛ ولهذا قال الشيخ: «مَعَ أَنَّ هَذَا الْبَابَ يُوجَدُ عَامَّتُهُ مَنْصُوصًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ سَلَفِ الْأُمَّةِ» وكما ذكر أهل العلم أن **فائدة الإجماع في هذا الباب**:

أولًا: لزيادة التأكيد، الأمر الثاني: أحيانًا نحتاج إليه لبيان وإيضاح الدلالة. على كل حال الإجماع حجة في هذا فما أجمعت الأمة على إثباته يجب إثباته.

يقول المؤلف: «وَمَا تَنَازَعَ فِيهِ الْمُتَأَخِّرُونَ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا فَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ، بَلْ وَلَا لَهُ أَنْ يُوَافِقَ أَحَدًا عَلَى إِثْبَاتِ لَفْظٍ أَوْ نَفْيِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مُرَادَهُ، فَإِنْ أَرَادَ حَقًّا قُبِلَ، وَإِنْ أَرَادَ بَاطِلًا رُدَّ، وَإِنْ اشْتَمَلَ كَلَامُهُ عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ لَمْ يُقْبَلْ مُطْلَقًا وَلَمْ يُرِدْ جَمِيعَ مَعْنَاهُ بَلْ يُوقَفُ اللَّفْظُ وَيُفَسَّرُ الْمَعْنَى» الألفاظ التي ورد في الكتاب والسنة إثباتها فيجب إثباتها، وألفاظ وصفات جاء في الكتاب والسنة نفيها عن الله عز وجل فيجب نفيها، هناك ألفاظ مجملة وهي ما أشار إليها المؤلف: «وَمَا تَنَازَعَ فِيهِ الْمُتَأَخِّرُونَ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا» كلمات مجملة أثبتها البعض ونفاها البعض، فلا يجوز أن تقبل بإطلاق ولا ترد بإطلاق؛ لأنها تحتمل حق وباطل، فإذا تضمنت باطل وجب ردها، وإذا تضمنت حقًّا وجب قبولها، وإذا ضمنت حقًّا وباطلًا يجب الاستفسار، وهذا هو عين المنطق، إذا كان الكلام مجمل يحتمل أكثر من احتمال فلا تقبله بإطلاق فربما قبلت الباطل، ولا ترده بإطلاق فربما رددت الحق، فلا بد من التفصيل والاستفسار.

مثّل الشيخ لهذا بمثالين :

الأمثلة كثيرة؛ لكن المؤلف أراد فقط للتمثيل وليس للحصر.

يقول المؤلف: «كَمَا تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الْجِهَةِ وَالتَّحَيُّزِ وَغَيْرِ ذَلِكَ» مثّل بلفظ (الجهة) ولفظ (التحيز)، لفظ الجهة لفظ مجمل لم يرد في الكتاب ولا في السنة لا بنفي ولا إثبات، وهو محتمل لمعان صحيحة ومحتمل لمعان باطلة، ضمَّنه بعض من أطلقه معان صحيحة، وضمَّنه البعض الآخر معاني باطلة، ولهذا لا نقبل اللفظ بإطلاق ولا نرده بإطلاق.

يقول المؤلف: «فَلَفْظُ (الْجِهَةِ) قَدْ يُرَادُ بِهِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ اللهِ فَيَكُونُ مَخْلُوقًا، كَمَا إِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ نَفْسُ الْعَرْشِ، أَوْ نَفْسُ السَّمَوَاتِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى ،كَمَا إِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ - يعني (الجهة) قد يراد بها شيء موجود غير الله عز وجل فيكون مخلوق كسائر المخلوقات، كما إذا أريد بالجهة العرش عبّر الإنسان عن العرش بالجهة، وقد يراد بالجهة ما فوق العالم؛ وهو ما ليس بموجود إلا الله عز وجل؛ فما وراء العالم إلا الله؛ وما فوق العالم إلا الله، فقد يعبر عن هذا المعنى بلفظ الجهة، وقد يعبر عن المخلوق بلفظ الجهة، ولهذا إذا قيل: الله في جهة لا يقبل بإطلاق.

لا يثبت ولا ينفى يستفسر ماذا تريد بالجهة؟ أتريد هذا العالم؟ فالله ليس في جهة؛ لأنه لا تحيط به شيء من مخلوقاته، وإذا أردت بالجهة ما فوق العالم ما وراء العالم فالله في جهة؛ ولكن الصحيح أن يقال له: عبّر باللفظ الشرعي فقل: الله في العلو، ولهذا يقبل المعنى ويرد اللفظ؛ لأنه يجب أن نلتزم الألفاظ الشرعية في هذا الباب، وهي الألفاظ الواضحة التي لا تحتمل أكثر من معنى كما هي هذه الألفاظ المحتملة - وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي النَّصِّ إِثْبَاتُ لَفْظِ الْجِهَةِ وَلَا نَفْيُهُ - يعني ليس في نصوص الكتاب والسنة نفي للفظ الجهة ولا إثبات للفظ الجهة - كَمَا فِيهِ إِثْبَاتُ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ وَالْفَوْقِيَّةِ وَالْعُرُوجِ إِلَيْهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ - الألفاظ الشرعية: إثبات العلو، إثبات أن الله مستو على العرش، إثبات أنه فوق العالم، والعروج إليه ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ - وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا ثَمَّ مَوْجُودٌ إِلَّا الْخَالِقَ وَالْمَخْلُوقَ ، وَالْخَالِقُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أي منفصل عنه - لَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ ؛ وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.»

يقول المؤلف: «فَيُقَالُ لِمَنْ نَفَى الْجِهَةَ: - يعني لمن قال: الله ليس في جهة - أَتُرِيدُ بِالْجِهَةِ أَنَّهَا شَيْءٌ مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ؟ فَاللهُ

لَيْسَ دَاخِلًا فِي الْمَخْلُوقَاتِ – لاحظ– ما قال المؤلف: الله ليس في جهة، لا نعبر بهذا اللفظ؛ بل نعبر بالمعنى الصحيح، فإذا أراد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق؛ يعني قال: إن الله ليس في جهة وأقصد بالجهة الشيء المخلوق، قيل له: الله ليس داخل في المخلوقات – أَمْ تُرِيدُ بِالْجِهَةِ مَا وَرَاءَ الْعَالَمِ؟ فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَالَمِ بَائن من الْمَخْلُوقَات – فكلامك هذا باطل.

فإذا قلت: الله ليس في جهة، وتريد بالجهة ما هو داخل العالم، نقول: معنى كلامك حق؛ لكن اللفظ مبتدع، وإذا أردت بلفظ الجهة هنا ما وراء العالم فكلامك لفظًا ومعنًى باطل؛ لأن الله في العلو ولأنك تريد أن تنفي العلو بهذا اللفظ. –

وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِمَنْ قَالَ :إن اللهُ فِي جِهَةٍ – الكلام السابق كان مع النافي، وهذا الكلام مع المثبت، إذا قال: الله في جهة، قلنا له: – أَتُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَالَمِ ؟ – فالله فوق العالم؛ لكن عبّرْ بلفظ شرعي – أَوْ تُرِيدُ بِهِ أَنَّ اللهَ دَاخِلٌ فِي شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ؟ فَإِنْ أَرَدْت الْأَوَّلَ فَحَقٌّ – فمعنى كلامك حق؛ لكن بغير هذا اللفظ– وَإِنْ أَرَدْت الثَّانِيَ فَهُوَ بَاطِلٌ.

وَكَذَلِكَ لَفْظُ المتَّحَيِّزِ : إنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّ اللهَ تَحُوزُهُ الْمَخْلُوقَاتُ فَاللهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ – إذا قال: الله متحيز ، ويريد أن المخلوقات تحوز بالله عز وجل وتحيط به سبحانه فالله أعظم وأجل – بَلْ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –كما في صحيح البخاري ومسلم – قَالَ: (يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟) وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : (وَإِنَّهُ لَيَدْحُوهَا كَمَا يَدْحُو الصِّبْيَانَ بِالْكُرَةِ) وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ) – يعني: إذا قال: إن الله عز وجل متحيز وأراد أن الله المخلوقات تحوزه فالله أجل وأعظم أن يحيط به شيء من مخلوقاته.

وَإِنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ مُنْحَازٌ عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ –منفصل عن المخلوقات– أَيْ مُبَايِنٌ لَلمخلوقات مُنْفَصِلٌ عَنْهَا لَيْسَ حَالًّا فِيهَا فَهُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا قَالَ – أي ليس بحال في المخلوقات ولا داخل في المخلوقات – أَئِمَّةُ السُّنَّةِ : فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ» – لاحظ– لا نعبر نحن بهذا اللفظ؛ ولهذا نقول: أنت المعنى الذي أردته حق؛ لكن اللفظ الذي عبرت به لفظ باطل.

وبهذا انتهى المؤلف من القاعدة الثانية.

المحاضرة (١٥)

القاعدة الثالثة

يقول رحمه الله: «الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: إذَا قَالَ الْقَائِلُ : ظَاهِرُ النُّصُوصِ مُرَادٌ أَوْ ظَاهِرُهَا لَيْسَ بِمُرَادٍ – هذه من الألفاظ المجملة إذا قال لنا قائل: ظاهر النص هل هو مراد أو ليس بمراد؟

ما هو ظاهر النص؟ الظاهر: هو مدلول النص المفهوم بمقتضى الخطاب العربي، مدلول النص المفهوم بظاهره على وفق خطاب العرب، هذا الظاهر مثلاً: إذا قلت: (أخرج) ظاهر النص الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة هو الخروج من القاعة هذا الظاهر، ظاهر نصوص الكتاب والسنة هل هو مراد لله ولرسوله أو ليس بمراد؟ هل لما أطلقوا هذه الألفاظ أرادوا المعاني هذه الظاهرة التي تبادرت إلى أذهاننا أول مرة؟ أضرب لك مثال ثاني: (أسد) ما ظاهر هذا النص؟ لما أطلق أسد أول ما يتبادر إلى ذهنك مباشرة أن الأسد هو الحيوان المفترس، لكن قد يكون له معنى آخر بعيد وهو الرجل الشجاع، فهل ظاهر الكلام هذا مرادي لما أطلقت أنا كلمة أسد أو أريد المعنى البعيد، كذلك لما أقول (البحر) ظاهر النص شيء وهناك معنى بعيد مثلاً يقال: للرجل الكريم البحر، فإذا أطلقت كلمة (البحر) هل أنا أريد المعنى هذا القريب أو أريد المعنى البعيد؟ فإذا قلت مثلاً قدمت من البحر ما الشيء الذي مباشرة يتبادر إلى ذهنك أول مرة؟ إني قدمت من البحر المعروف الماء، هذا هو ظاهر النص، هذا هو

مدلول النص، فهل ظاهر نصوص الكتاب والسنة هذه المعاني القريبة التي تتبادر إلى أذهاننا مباشرة إذا قرأناها ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ مباشرة تبادر إلى ذهني العلو والارتفاع ، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ تبادر مباشرة إلى ذهني الصفة الحقيقية لله عز وجل ، وهو ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهو ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تبادر إلى ذهني المعنى الظاهر مباشرة هل هذا مراد؟ أو هناك معنى بعيد هو المراد وهذا الظاهر غير مراد؟

هذا ما سيتكلم عليه المؤلف هنا -

فَإِنَّهُ يُقَالُ : لَفْظُ الظَّاهِرِ فِيهِ إجْمَالٌ وَاشْتِرَاكٌ - يعني لفظ الظاهر من الألفاظ المجملة التي لابد فيها من التفصيل، فلا يقال: ظاهر النص مراد أو ليس بمراد حتى يبين معنى الظاهر ومدلول الظاهر ومراد من أطلق هذا اللفظ - فَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا التَّمْثِيلُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، أَوْ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِمْ ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ – إذا قال إنسان: ظاهر النص المقصود به: هو ما يماثل صفة المخلوقين ظاهر قول الله ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ظاهر هذا النص اليدين الثابتة للمخلوق، الشيخ يقول: «فَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا التَّمْثِيلُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ أَوْ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِمْ فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ» ما قال ظاهر النص غير مراد، هذا المعنى غير مراد.- وَلَكِنَّ السَّلَفَ وَالْأَئِمَّةَ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَ هَذَا ظَاهِرَهَا - إذا كنت تعتقد أن ظاهر النص يدل على هذا الشيء فاعتقادك مفهوم خاطئ وليس هذا بظاهر النص ولهذا قال الشيخ: «وَلَكِنَّ السَّلَفَ وَالْأَئِمَّةَ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَ هَذَا ظَاهِرها» التمثيل ليس هو ظاهر النصوص حاشا وكلا، لماذا؟ -وَلَا يَرْتَضُونَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ كُفْرًا وَبَاطِلًا - أما إذا قلنا: ظاهر النص هو التمثيل، فقد جعلنا ظاهر نصوص الصفات وظاهر نصوص أحاديث الصفات كفرًا، وظاهرها الباطل، وهذا يستحيل - وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ الَّذِي وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ لَا يَظْهَرُ مِنْهُ إلَّا مَا هُوَ كُفْرٌ أَوْ ضَلَالٌ» بمعنى أن ظاهر النص ليس هو التمثيل، وإذا قلت: أن ظاهر النص هو التمثيل، قلنا لك: جعلت ظاهر نصوص الصفات كفر وباطل، وهذا يستحيل على الله عز وجل.

يقول المؤلف: «وَالَّذِينَ يَجْعَلُونَ ظَاهِرَهَا ذَلِكَ يَغْلَطُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ : - إذًا الذين جعلوا ظاهر النص هو التمثيل أخطأوا من جهتين؛ وغلطوا من جهتين:.- تَارَةً يَجْعَلُونَ الْمَعْنَى الْفَاسِدَ ظَاهِرَ اللَّفْظِ؛ حَتَّى يَجْعَلُوهُ مُحْتَاجًا إلَى تَأْوِيلٍ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ. - الخطأ الأول: أنهم جعلوا المعنى الفاسد هو ظاهر النص، فيقولون: لابد له من تأويل حتى نسلم من هذا الظاهر. - وَتَارَةً يَرُدُّونَ الْمَعْنَى الْحَقَّ الَّذِي هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ» يعتقدون أن ظاهر هذا النص الذي هو إثبات حقيقة اليد هو المعنى الباطل هو التشبيه؛ فيردونه فيقعون في باطل آخر.

المؤلف يريد أن يمثل على: من جعل ظاهر اللفظ المعنى الفاسد، ثم يقول إذًا يحتاج إلى تأويل، ذكر هذه الأمثلة الثلاثة:

يقول المؤلف: «فَالْأَوَّلُ كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ : (عَبْدِي جُعْت فَلَمْ تُطْعِمْنِي) الْحَدِيثَ وَفِي الْأَثَرِ الْآخَرِ : (الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ أَوْ قَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) وَقَوْلِهِ : (قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ) - ذكر الأمثلة الثلاثة: عبدي جعت فلم تطعمني، والحجر الأسود، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن - فَقَالُوا : قَدْ عُلِمَ أَنْ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا أَصَابِعُ الْحَقِّ» بدأ أولاً بحديث: (قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن) وهذا من أسلوب اللف والنشر؛ يعني بدأ بالأخير، الآن جعلوا ظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن) أن قلوب العباد مُماسة لأصابع الرحمن، قالوا: إذًا هذا النص يحتاج إلى تأويل، نرد عليهم فنقول: مفهومكم هذا خطأ ما في حاجة أصلًا تحتاجون إلى التأويل؛ لأن المفهوم الأصلي خاطئ فأنتم بنيتم باطلًا على باطل، مفهوم خاطئ وبنيتم عليه نتيجة خاطئة، أنتم جعلتم ظاهر النص هو التشبيه؛ جعلتم ظاهر النص أن القلوب مماسة لأصابع الرحمن، ثم قلتم: يحتاج إلى تأويل.

يقول المؤلف: «فَيُقَالُ لَهُمْ : لَوْ أَعْطَيْتُمْ النُّصُوصَ حَقَّهَا مِنْ الدَّلَالَةِ لَعَلِمْتُمْ أَنَّهَا لَمْ تَدُلَّ إلَّا عَلَى حَقٍّ،

أَمَّا (الْحديث) فَقَوْلُهُ: (الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ لَيْسَ هُوَ صِفَةً لِلَّهِ وَلَا هُوَ نَفْسُ يَمِينِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : (يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) - الآن أخذ الحديث الحجر الأسود يمين الله في الأرض، هم قالوا: ظاهر النص أن الحجر هو ذات صفة الله عز وجل، إذًا يحتاج إلى تأويل،

الجواب عن ذلك يقول: صريح في أن الحجر الأسود لا يظهر منه إثبات أن الحجر الأسود إثبات صفة لله عز وجل، لماذا؟ قال: لأنه قال: (يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) قيده في الأرض - وَقَالَ: (فَمَنْ قَبَّلَهُ وَصَافَحَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) - لو كان المقصود أنه صفة لله الذي يظهر منه أنه صفة لله لقال من قبّله وصافحه فقد صافح الله وقبل يمينه؛ إنما قال: فكأنما صافح الله وقبل يمينه. - وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشَبَّهَ لَيْسَ هُوَ الْمُشَبَّهَ بِهِ فَفِي نَفْسِ الْحَدِيثِ بَيَانُ أَنَّ مُسْتَلِمَهُ لَيْسَ مُصَافِحًا لِلَّهِ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ نَفْسَ يَمِينِهِ فَكَيْفَ يُجْعَلُ ظَاهِرُهُ كُفْرًا لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إلَى التَّأْوِيلِ . مَعَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ إنَّمَا يُعْرَفُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؟ - يقول: أولاً ظاهر النص لا يدل على أن الحجر الأسود صفة لله عز وجل بالقيدين الذين ذكرهما المؤلف: (يمين الله في الأرض ومن قبله وصافحه فكأنما) فالمسألة فيها تشبيه ما قال: فقد قبله وصافحه، الأمر الثاني أيضًا أنه مروي عن ابن عباس وفي ثبوته نظر. انتهى من الكلام على هذا الحديث، إذًا هذا الحديث لا يشهد لهم وليس بحجة لهم أن ظاهر النص هو التشبيه ويحتاج إلى تأويل، نقول: ظاهر النص لا يدل على التشبيه؛ لأنه ليس في صفات الله عز وجل، ولا يؤخذ من الحديث إثبات صفة من صفات الله عز وجل - وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ : فَهُوَ فِي الصَّحِيحِ مُفَسَّرًا : (يَقُولُ اللَّهُ عَبْدِي جُعْت فَلَمْ تُطْعِمْنِي؟ فَيَقُولُ: رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُك وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ : أَمَا عَلِمْت أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ فَلَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي. عَبْدِي مَرِضْت فَلَمْ تَعُدْنِي فَيَقُولُ: رَبِّ كَيْفَ أَعُودُك وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ : أَمَا عَلِمْت أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ) - الحديث صحيح وليس محل نظر في ثبوته؛ لأنه في صحيح مسلم؛ لكن هم قالوا: ظاهر النص يدل على أن الله تعالى جاع ومرض؛ إذًا يحتاج إلى تأويل، نقول: ليس هذا ظاهر النص، ولو أكملتم الحديث وضممتم آخره إلى أوله لفسر الحديث نفسه بنفسه، ولما دل على هذا المفهوم الخاطئ الذي تبادر إلى أذهانكم. - وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْرَضْ وَلَا يَجُعْ، وَلَكِنْ مَرِضَ عَبْدُهُ وَجَاعَ عَبْدُهُ، فَجَعَلَ جُوعَهُ جُوعَهُ، وَمَرَضَهُ مَرَضَهُ، مُفَسِّرًا ذَلِكَ بِأَنَّك لَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي، وَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ - لو كان نسبة الجوع لله عز وجل تعالى الله عن ذلك لقال: لو أطعمته لشبعت، يقول: ولو عدته لوجدتني عنده - فَلَمْ يَبْقَ فِي الْحَدِيثِ لَفْظٌ يَحْتَاجُ إلَى تَأْوِيلٍ - إذًا ظاهر النص ليس فيه تشبيه وتمثيل فلا يحتاج إلى تأويل كما يزعم هؤلاء.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ) -قالوا: ظاهر النص أن القلوب مماسة لأصابع الرحمن إذًا النص يحتاج إلى تأويل - فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ أَنَّ الْقَلْبَ مُتَّصِلٌ بِالْأَصَابِعِ وَلَا مُمَاسٌّ لَهَا، وَلَا أَنَّهَا فِي جَوْفِهِ، وَلَا فِي قَوْلِ الْقَائِلِ: (هَذَا بَيْنَ يَدَيَّ) مَا يَقْتَضِي مُبَاشَرَتَهُ لِيَدَيْهِ - قول الشخص في لغة العرب هذا الشيء بين يدي؛ لا يعني أنه مماس أو موجود الآن بين يدي، أليس الملك يقول: جيشي بين يدي، التاجر يقول: أموالي بين يدي وهي قد لا تكون موجودة عنده، عقاري بين يدي، مزارعي بين يدي، فلا يلزم المماسة ولا يلزم أن تكون محصورة بين اليدين، فإذا كان هذا في حق المخلوق ففي حق الله عز وجل أولى.

مثّل بمثال من القرآن، يقول:- وَإِذَا قِيلَ: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ مُمَاسًّا لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ»

الله عز وجل ذكر أن السحاب بين السماء والأرض، فهل معنى هذا أن السحاب مماس للسماء مماس للأرض؟ لا يلزم من ذلك، فقول النبي صلى الله عليه وسلم: (القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن) لا يلزم منها المماسة أو أن تكون في جوف الأصابع.

يقول المؤلف: «وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا الْقَوْلَ - أي قول من يجعل ظاهر النص هو التشبيه والتمثيل ثم يقول: يحتاج إلى تأويل يشبه هذه القاعدة أيضًا أمثلة أخرى - أَنْ يُجْعَلَ اللَّفْظُ نَظِيرًا لِمَا لَيْسَ مِثْلَهُ – يعني: تأتي بلفظ تقول هذا اللفظ مثل هذا اللفظ وهما مختلفان، لماذا؟ أوقع اللبس عندك بسبب أحيانًا الحروف اتحدت وهذا ليس بصحيح، فمن أسرار اللغة العربية أن اللفظ الواحد يأتي بمعاني متعددة كل معنى يتحدد على وفق سياق الكلام.

يمثل الشيخ يقول :-

كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ -كما في سورة ص - فَقِيلَ: هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ - كما في سورة يس، يعني جعلوا هذه الآية نظير هذه الآية، لماذا؟ جعلوها لأجل نفي صفة اليد عن الله عز وجل، قالوا: من قال لكم أن آية ص ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ دليل على إثبات صفة اليدين لله هي مثل قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ لينفوا عن الله صفة اليد، المؤلف الآن سيبين الفرق بين هاتين الآيتين وعلى غيرها فقس، الآن ذكر لنا مثال كنموذج، أنهم أحيانًا يجعلون اللفظ نظيرًا لما ليس بنظير له - فَهَذَا لَيْسَ مِثْلَ هَذَا لِأَنَّهُ هُنَا - في يس ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ - أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى الْأَيْدِي فَصَارَ شَبِيهًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ - أضاف الفعل لأيدي الناس.- وَهُنَا - سورة ص - أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿بِيَدَيَّ﴾ - أضاف الفعل لنفسه، أما يس أضاف الفعل لليدين هذا هو الفرق الأول، ويكفي هذا الفرق أن نقول: هذه الآية ليست مماثلة لهذه الآية؛ لأنه سيذكر عدة فروق. إذًا؛ الفرق الأول أن في الآية الأولى آية يس أضاف الفعل للأيدي، وآية ص أضاف الفعل لنفسه كقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾

الفرق الثاني: - وَأَيْضًا : فَإِنَّهُ هُنَا - في سورة ص ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ - ذَكَرَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ - (خَلَقْتُ) وَفِي الْيَدَيْنِ ذَكَرَ لَفْظَ التَّثْنِيَةِ - (بِيَدَيَّ) بلفظ المثنى، الآن هذا الفرق الثاني والثالث - كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ - فالآية تشبه قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ لأنه ثنّى هنا اليدين.

وَهُنَاكَ أَضَافَ الْأَيْدِيَ إِلَى صِيغَةِ الْجَمْعِ - أي في سورة يس ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ (أيدينا) ما قال: (يدي) - فَصَارَ كَقَوْلِهِ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ، وَهَذَا فِي (الْجَمْعِ) نَظِيرُ قَوْلِهِ : ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ و﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ فِي (الْمُفْرَدِ) -الجمع مثل المفرد- فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذْكُرُ نَفْسَهُ تَارَةً بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا، وَتَارَةً بِصِيغَةِ الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ - يعني الله عز وجل يذكر نفسه أحيانًا بالمفرد، وأحيانًا يذكر نفسه بصيغة الجمع كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وأمثال ذلك كثير.

وَلَا يَذْكُرُ نَفْسَهُ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ قَطُّ، لِأَنَّ صِيغَةَ الْجَمْعِ تَقْتَضِي التَّعْظِيمَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ - لا يمكن أن يذكر نفسه بصيغة التثنية؛ لأنها تدل على الحصر، وأما إذا عبر عن نفسه بصيغة الجمع هذا من باب التعظيم - ولله المثل الأعلى- كقول الملك أو الأمير: نحن فعلنا كذا، نحن عملنا كذا، من باب تعظيم نفسه - وَرُبَّمَا تَدُلُّ عَلَى مَعَانِي أَسْمَائِهِ – أي: له أكثر من اسم- وَأَمَّا صِيغَةُ التَّثْنِيَةِ فَتَدُلُّ عَلَى الْعَدَدِ الْمَحْصُورِ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنْ ذَلِكَ - يعني لا يذكر نفسه بصيغة التثنية، إما يذكر بصيغة المفرد لدلالة على التوحيد، أو بصيغة الجمع للدلالة على التعظيم - فَلَوْ قَالَ: (ما منعك أَنْ تسجد لِمَا خَلَقْتُ يَدِي) لَكَانَ كَقَوْلِهِ : ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ و ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ - يعني لو جاءت آية ص بهذه الصيغة (لِما خلقتُ يَدِيْ) قلنا: كلامكم سليم أنها كقوله سبحانه: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ لكن؛ - وَلَوْ قَالَ: (خَلَقْتُ بيدي) بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ لَكَانَ مُفَارِقًا لَهُ - لآية يس - فَكَيْفَ إِذَا قَالَ: (خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)؟ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ - أضاف الفعل لنفسه وبصيغة الإفراد، وثنى اليد بصيغة التثنية - هَذَا – أي: إثبات اليدين لله- مَعَ دَلَالَاتِ الْأَحَادِيثِ الْمُسْتَفِيضَةِ بَلْ الْمُتَوَاتِرَةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ،

كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ - يعني يقول وإثبات اليدين لله عز وجل ليست متوقفة على ورود هذه الآية وإن كانت صريحة في إثبات اليدين فإنها ثبت لله بآيات وأحاديث أخرى- مِثْلُ قَوْلِهِ: (الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا) وَأَمْثَالُ ذَلِكَ» .

المحاضرة (١٦)

لا زال الكلام حول كلام المؤلف في القاعدة الثالثة: هل ظاهر النص مراد أم ليس بمراد؟

يقول المؤلف: «وَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَ النُّصُوصِ الْمُتَنَازَعِ فِي مَعْنَاهَا مِنْ جِنْسِ ظَاهِرِ النُّصُوصِ الْمُتَّفَقِ عَلَى مَعْنَاهَا - وَالظَّاهِرُ هُوَ الْمُرَادُ فِي الْجَمِيعِ - فَإِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ مُرَادٌ، كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِهَذَا الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ كَعِلْمِنَا وَقُدْرَتُهُ كَقُدْرَتِنَا - الكلام الآن مع الأشعري الذي يثبت بعض الصفات وينكر البعض الآخر.

يقول: «وَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَ النُّصُوصِ الْمُتَنَازَعِ فِي مَعْنَاهَا -أي ماعدا الصفات السبع مثل ظاهر قول الله عز وجل ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾ أو ظاهر قوله سبحانه: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أو قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ -مِنْ جِنْسِ ظَاهِرِ النُّصُوصِ الْمُتَّفَقِ عَلَى مَعْنَاهَا -أي الصفات السبع مثل ظاهر قول الله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير﴾ ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إثبات العلم ظاهر هذه الآية المثبتة للعلم، - وَالظَّاهِرُ هُوَ الْمُرَادُ فِي الْجَمِيعِ -هذه جملة اعتراضية يبين المؤلف مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يعتقدون أن ظاهر النص مراد في الجميع في الصفات السبع وما عدا الصفات السبع،- فَإِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا عَلَى ظَاهِرِهِ -لأن هذه الصفات من الصفات المتفق عليها بين أهل السنة وبين الأشاعرة، فالكل الآن متفق على أن هذين النصين على ظاهرهما -وَأَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ مُرَادٌ- أي ظاهر هذين النصين الذين أثبتا العلم والقدرة لله عز وجل- كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِهَذَا الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ كَعِلْمِنَا وَقُدْرَتُهُ كَقُدْرَتِنَا» بمعنى أنهم لما اعتقدوا أن ظاهر النص في هاتين الصفتين مراد لم يريدوا ولم يعتقدوا أن ظاهرهما يدل على إثبات العلم لله عز وجل كالعلم المنسوب للمخلوق، أو إثبات القدرة لله عز وجل على حد ما هو ثابت للمخلوق.-

وَكَذَلِكَ لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ حَقِيقَةً عَالِمٌ حَقِيقَةً قَادِرٌ حَقِيقَةً - أيضا هذه الصفات الثلاث من الصفات التي يثبتها الأشاعرة ويوافقون أهل السنة على إثباتها - لَمْ يَكُنْ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ مِثْلُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي هُوَ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ - لما اثبتوا هذه الصفات أثبتوها على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى، ليس على الحد الثابت للمخلوق؛ فالمخلوق حياته وعلمه وقدرته تخصه وعلى ما يليق به، بخلاف حياة وقدرة وعلم الخالق - فَكَذَلِكَ إِذَا قَالُوا فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾ ، ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ -لاحظ- هذه الصفات الثلاث الثابتة في هذه الآيات الثلاث هي من الصفات التي ينكرها الأشاعرة (المحبة، الرضا، الاستواء) هذه الصفات الثلاث لا تدخل ضمن الصفات السبع التي يثبتها الأشاعرة - أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ - هذا مذهب أهل السنة؛ أن هذه النصوص المثبتة لهذه الصفات على ظاهرها، تُجرى على ظاهرها على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى - لَمْ يَقْتَضِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ اسْتِوَاءً كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ ، وَلَا حُبًّا كَحُبِّهِ ، وَلَا رِضًا كَرِضَاهُ - بمعنى أن أهل السنة لما أجروا هذه النصوص على ظاهرها كما أجروا نصوص الحياة والعلم والقدرة على ظاهرها لم يقتضي ذلك أنهم أثبتوا لله استواء كاستواء المخلوق أو حب كحب المخلوق أو رضا كرضا المخلوق.

فَإِنْ كَانَ الْمُسْتَمِعُ يَظُنُّ أَنَّ ظَاهِرَ الصِّفَاتِ تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ لَزِمَهُ أَنْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ظَاهِرِ ذَلِكَ مُرَادًا، وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا مَا يَلِيقُ بِالْخَالِقِ وَيَخْتَصُّ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَفْيُ هَذَا الظَّاهِرِ، وَنَفْيُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا إِلَّا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى النَّفْيِ ؛ وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ وَلَا السَّمْعِ مَا يَنْفِي هَذَا إِلَّا مِنْ جِنْسِ مَا يَنْفِي بِهِ سَائِرَ الصِّفَاتِ فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِي الْجَمِيعِ وَاحِدًا» يقول: «فَإِنْ كَانَ الْمُسْتَمِعُ يَظُنُّ أَنَّ ظَاهِرَ الصِّفَاتِ تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ -بمعنى إذا اعتقد أن ظاهر هذه النصوص المثبتة لهذه الصفات التي ينكرها أنه يلزم من إجراء هذه النصوص على ظاهرها أن يكون لله عز وجل صفات كصفات المخلوق- لَزِمَهُ أَنْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ظَاهِرِ ذَلِكَ مُرَادًا -بمعنى أن يكون ظاهر جميع النصوص، نصوص الصفات والصفات السبع، ما لفرق بين قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير﴾ وبين قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾؟ المصدر واحد، والمخاطب واحد، واللغة واحدة، فلماذا قلتم هذا النص على ظاهره وهذا النص ليس على ظاهره؟ أو أن هذا النص يدل على إثبات هذه الصفة على الوجه اللائق بالله عز وجل، أما هنا فإن ظاهر النص يقتضي إثبات صفة مثل صفة المخلوق؟ - وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا مَا يَلِيقُ بِالْخَالِقِ وَيَخْتَصُّ بِهِ -بمعنى إذا كان يعتقد أن ظاهر النصوص المثبتة للصفات السبع على ما يليق بالله عز وجل- لَمْ يَكُنْ لَهُ نَفْيُ هَذَا الظَّاهِرِ وَنَفْيُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا إِلَّا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى النَّفْيِ ؛ وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ وَلَا السَّمْعِ مَا يَنْفِي هَذَا إِلَّا مِنْ جِنْسِ مَا يَنْفِي بِهِ سَائِرَ الصِّفَاتِ فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِي الْجَمِيعِ وَاحِدًا» الشاهد: المؤلف يريد أن يبين مدى تناقض هؤلاء في جعل ظاهر بعض النصوص مراد وظاهر بعض النصوص ليس بمراد، هذا هو مقصوده -رحمه الله- وبيَّن أن هذا تناقض بيِّن.

المؤلف الآن سيمثل بمثال واقعي:

«وَبَيَانُ هَذَا أَنَّ صِفَاتِنَا مِنْهَا مَا هِيَ أَعْيَانٌ وَأَجْسَامٌ وَهِيَ أَبْعَاضٌ لَنَا كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مَعَانٍ وَأَعْرَاضٌ وَهِيَ قَائِمَةٌ بِنَا؛ كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ - يقول: «وَبَيَانُ هَذَا - أي بيان ما تقدم من أن ظاهر نصوص الصفات مراد؛ لأن ظاهرها على الوجه اللائق بالله عز وجل، هذا المقصود بهذه الإشارة - أَنَّ صِفَاتِنَا مِنْهَا مَا هِيَ أَعْيَانٌ وَأَجْسَامٌ - بمعنى لو نظرنا إلى صفات المخلوق لوجدنا أن بعضها أعيان، وأن بعضها أجسام- وَهِيَ أَبْعَاضٌ لَنَا -يعني بعض من كل - كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ -هذه أجسام؛ الآن صفة الوجه بالنسبة للإنسان جسم، وصفة اليد بالنسبة للإنسان جسم- وَمِنْهَا مَا هُوَ مَعَانٍ وَأَعْرَاضٌ وَهِيَ قَائِمَةٌ بِنَا كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ» هذه الصفات بالنسبة لنا هي صفات معانٍ وأعراض، صفة عرض، **والعرض** كما يعرفه أهل الكلام هو: الذي لا يقوم بنفسه ولا يبقى زمانين.

يقول المؤلف: «ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّبَّ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ لَمْ يَقُلِ الْمُسْلِمُونَ إِنَّ ظَاهِرَ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مِثْلُ مَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا - يقول الآن هذه الصفات التي هي الحياة والعلم والقدرة مما يتفق عليه الأشاعرة مع أهل السنة في إثباتها، يقول: ظاهر هذا النص مراد، لكن هل قال قائل: أن ظاهر هذه النصوص يقتضي أن يكون هذا العلم والقدرة والحياة من جنس ما هو ثابت للمخلوق؟ وعلى ما هو مفهوم ممن هو ثابت للمخلوق؟ - فَكَذَلِكَ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ بِيَدَيْهِ لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ غَيْرَ مُرَادٍ - بمعنى أن الله عز وجل لما قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فهذا الظاهر مراد؛ لكن على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، بمعنى أن هذا النص يثبت صفة اليدين لله عز وجل كما أن تلك الصفات تثبت لله العلم والقدرة والحياة. - لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ كَمَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا بَلْ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ تُنَاسِبُهُ» لم يكن ظاهر ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ كما هو ثابت للمخلوق، بمعنى أن اليدان اللتان جاءتا في النص لم تكن من جنس ما هو ثابت للمخلوق؛ لأن كل صفة تناسب الموصوف بها، فاليد المنسوبة للمخلوق تناسبه واليد المنسوبة للخالق تناسبه سبحانه وتعالى.

يقول المؤلف: «فَإِذَا كَانَتْ نَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةُ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ - وهذا تقدم الكلام عليه (الْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ) فإذا كان لله ذات سبحانه وتعالى لائقة به سبحانه لا تماثل ولا تشابه ذوات المخلوقين فكذلك صفات هذه الذات - فَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ لَيْسَتْ كَصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَنِسْبَةُ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَيْهِ كَنِسْبَةِ صِفَةِ الْخَالِقِ إِلَيْهِ - بمعنى أن كل موصوف يوصف بما يناسبه من هذه الصفة - وَلَيْسَ الْمَنْسُوبُ -أي الصفة- كَالْمَنْسُوبِ - بمعنى ليست صفة المخلوق كصفة الخالق-وَلَا الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ -أي الموصوف- كَالْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ - ولا الخالق مثل المخلوق - كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ - هنا التشبيه على ماذا؟ على الرؤية، فرؤيتنا لله عز وجل يوم القيامة كرؤيتنا للشمس والقمر- وَلَمْ يُشَبِّهْ الْمَرْئِيَّ بِالْمَرْئِيِّ» بمعنى هنا التشبيه لم يقع على المرئي لم يشبه الله نفسه أو لم يشبه النبي صلى الله عليه وسلم ربه بالشمس والقمر، لا؛ الكلام منصب على الرؤية، ولهذا الصحابة سألوا عن الرؤية قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا؟ فقال: إنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر، أيضًا لاحظ (كاف) التشبيه دخلت على المرئي أم على الرؤية؟ على الرؤية، إذًا التشبيه هنا في الرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي، والتشابه في عدة[1] جوانب:

* العلو لأننا نرى الشمس والقمر من أعلى.
*الأمر الثاني: عدم الازدحام وعدم الضيق وعدم الضيم بحيث يراه البعض ولا يراه البعض الآخر، فكلنا نرى ذلك مخليًا به.
* أيضًا الوضوح.
* أيضًا عدم الإدراك فالله عز وجل يُرى ولا تدركه الأبصار كما أن الشمس والقمر نراها لكن لا نحيط بهما رؤيةً.

القاعدة الرابعة

يقول المؤلف: «وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِالْقَاعِدَةِ الرَّابِعَةِ وَهُوَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ أَوْ كَثِيرٍ مِنْهَا ؛ أَوْ أَكْثَرِهَا أَوْ كُلِّهَا أَنَّهَا تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ ذَلِكَ الَّذِي فَهِمَهُ فَيَقَعُ فِي (أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ) مِنْ الْمَحَاذِيرِ: - إذًا المؤلف في هذه القاعدة يوضح المحاذير التي يقع فيها من يتوهم أن مدلول نصوص الصفات هو التمثيل، سواء كان هذا الشخص أشعريًا يثبت البعض وينفي البعض، أو كان معتزليًا أو جهميًا ينفي الجميع. فالمؤلف يريد أن يرد على هؤلاء الذين زعموا أن هذه الصفات الثابتة للخالق أنه يلزم من إثباتها لله عز وجل الوقوع في التمثيل، بمعنى إذا أثبت لله عز وجل صفة الرضا قال الأشعري أنا لا أفهم من الرضا إلا بما هو ثابت للمخلوق. يقول: من نفى هذه الصفات أو توهم في بعض هذه الصفات أو في أكثرها أو في كلها أنها تماثل صفات المخلوق فإنه يقع في أربعة أنواع من المحاذير، سيذكرها الشيخ تفصيلًا، ثم يجملها، ثم يجملها:-

أَحَدُهَا كَوْنُهُ مثلَ مَا فَهِمَهُ مِنْ النُّصُوصِ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَظَنَّ أَنَّ مَدْلُولَ النُّصُوصِ هُوَ التَّمْثِيلُ - بمعنى أنه لمّا قرأ قول الله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ اعتقد أن اليدين في هذا النص تماثل يد المخلوق، ولهذا وقع في المحذور الأول: أنه جعل مدلول النص يدل على التمثيل، يعني يعتقد أن ظاهر هذا النص يدل على إثبات اليدين الثابتة للمخلوق، إذن المحذور الأول ما هو؟ وقوعه في كونه لم يفهم من ظاهر النص إلا ما هو ثابت للمخلوق، إذن النتيجة أن دلالة هذا النص وظاهر هذا النص عنده يدل على التمثيل هذا هو المحذور الأول -

الثَّانِي: أَنَّهُ إذَا جَعَلَ ذَلِكَ هُوَ مَفْهُومَهَا وَعَطَّلَهُ - يعني جعل ظاهر هذا النص هو التمثيل ويريد أن ينفي هذا التمثيل، «وَعَطَّلَهُ» عطّل مدلول هذا النص؛ الضمير هنا يعود على المدلول «إذَا جَعَلَ ذَلِكَ هُوَ مَفْهُومَهَا» أي المدلول الذي هو التمثيل، وعطل دلالة النص - بَقِيَتْ النُّصُوصُ مُعَطَّلَةً عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِاَللَّهِ - إذن وقع أولًا في التمثيل؛ اعتقد أن ظاهر النص التمثيل، ثم عطل النص عن ظاهره، فعطل النص عن دلالتها عن إثبات صفات الله عز وجل - فَيَبْقَى مَعَ

[1] نطق الشيخ أنها ثلاثة جوانب وذكر أربعة

جِنَايَتِهِ عَلَى النُّصُوصِ ؛ وَظَنِّهِ السَّيِّئِ الَّذِي ظَنَّهُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِمَا هُوَ التَّمْثِيلُ الْبَاطِلُ ، قَدْ عَطَّلَ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي كَلَامِهِمَا مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ وَالْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى - لأنه اعتقد أن الله ورسوله خاطبوا العباد بما ظاهره التمثيل، وهذا ظن سيء بالله عز وجل؛ لأن هذا فيه التلبيس، يعني اعتقد أن الله تعالى عن ذلك لبّس على الخلق عندما خاطبهم بنص ظاهره هو التمثيل. يقول: «حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِمَا هُوَ التَّمْثِيلُ الْبَاطِلُ - يقول: مع هذا الظن السيء - قَدْ عَطَّلَ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي كَلَامِهِمَا مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ وَالْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى» كما أنه ظن بالله وبرسوله ظنًّا سيئًا عندما اعتقد أن ظاهر كلامهما يدل على التمثيل مع ذلك مع هذا الظن مع هذا المحذور انتقل إلى محذور ثاني وهو تعطيل النص عن دلالته لِما دل عليه من إثبات صفات الكمال لله عز وجل، وبناء عليه فقد عطل الله عز وجل عن الصفات. -

الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَنْفِي تِلْكَ الصِّفَاتِ عَنِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ فَيَكُونُ مُعَطِّلًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ - المحذور الثالث إذا اعتقد أن ظاهر النص هو التمثيل وأن دلالة النص هذا هو التمثيل، فهو يريد أن ينزه الله على حد زعمه عن التمثيل فينفي عن الله هذه الصفات، فيقول: الله عز وجل لا يوصف بالمحبة ولا يوصف بالرضا ولا يوصف بالغضب وليس له يدين ولا وجه، يأتي الجهمي والمعتزلي ويزيد على ذلك يقول: وأيضًا ولا تثبت له صفة العلم ولا القدرة ولا الإرادة ولا الحياة فيكون قد عطل الرب عما يستحقه من الصفات هذا المحذور الثالث. -

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَصِفُ الرَّبَّ بِنَقِيضِ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنْ صِفَاتِ الْأَمْوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ أَوْ صِفَاتِ الْمَعْدُومَاتِ» سبق أن قرر المؤلف فيما سبق أن المعطل إذا نفى عن الله عز وجل صفة لزمه إثبات نقيضها، فإذا قال: أن الله عز وجل ليس بسميع فيلزمه أن يكون الله -تعالى الله عن ذلك- أصم، ليس بحي يلزم من ذلك أن يكون ميتًا، فانتقل من تشبيه الله بالمخلوقات الحية إلى تشبيه -كما قال المؤلف هنا- بصفات الموات أو الجمادات أو المعدومات إذا قال الله عز وجل ليس بموجود فرارًا من إثبات صفة الوجود، إذن نخلص إلى أن المحذور الرابع الذي وقع فيه الشخص الذي اعتقد أن ظاهر النصوص هو التمثيل أنه يثبت لله عز وجل نقيض صفات الكمال الثابتة لله وهذا من باب الإلزام كما تقدم.

المحاضرة (١٧)

لا زلنا مع كلام المؤلف في القاعدة الرابعة وهي المحاذير التي تلزم مَن اعتقد أن ظاهر نصوص الصفات يلزم عليه التمثيل، المؤلف ذكر المحاذير الأربع تفصيلًا ثم الآن يريد أن يُجمِل هذه المحاذير الأربع.

يقول المؤلف: «فَيَكُونُ قَدْ عَطَّلَ بِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الرَّبُّ وَمَثَّلَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَعَطَّلَ النُّصُوصَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ الصِّفَاتِ وَجَعَلَ مَدْلُولَهَا هُوَ التَّمْثِيلَ بِالْمَخْلُوقَاتِ» يقول: «فَيَكُونُ قَدْ عَطَّلَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا - بمعنى أنه عطل الله عز وجل عما يستحقه من صفات الكمال، وهذا هو المحذور الثالث الذي ذكره المؤلف ضمن المحاذير السابقة. - وَمَثَّلَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ - هذا هو المحذور الرابع، قلنا أنه إذا نفى عن الله صفات الكمال فيلزمه أن يثبت لله نقيض ذلك من صفات الجمادات والموات والمعدومات، فإذا نفى عن الله صفة الحياة فيلزمه أن يثبت صفة الموت لله سبحانه وتعالى - وَعَطَّلَ النُّصُوصَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ الصِّفَاتِ - وهذا هو المحذور الثاني؛ لأنه ذكر أن المحذور الثاني أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها أو عطله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه، إذن هذا هو المحذور الثاني عطل هذا النص عن دلالته، يقول:- وَجَعَلَ مَدْلُولَهَا هُوَ التَّمْثِيلَ بِالْمَخْلُوقَاتِ» وهذا هو المحذور الأول.

المؤلف الآن رجع يوجز لنا المحاذير الأربعة السابقة؛ لكن بعملية لف ونشر، الآن أيضًا أراد أن يكرر لنا هذه المحاذير

الأربعة لكن باختصار المختصر:

يقول المؤلف: «فَيُجْمَعُ فِي كَلَامِ اللهِ وَفِي اللهِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ يَكُونُ مُلْحِدًا فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ»

«فَيُجْمَعُ فِي كَلَامِ اللهِ وَفِي اللهِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ» هذا هو المحذور الثاني والثالث في الله وفي كلام الله، بمعنى عطل الله عن الصفات وعطل كلامه عن مدلوله.

قوله: «وَالتَّمْثِيلِ» هذا هو المحذور الأول والرابع؛ لأنه أوّل ومثّل ما فهمه من النص، يعني انقدح في ذهنه أن ظاهر هذا النص هو التمثيل، الرابع قلنا: أنه مثّل الله عز وجل بالجمادات والمعدومات؛ لأنه إذا نفى عن الله صفات الكمال فقد مثله بالجمادات والمعدومات، إذن في هذا السطر أو نصف السطر جمع هذه المحاذير الأربعة.

يقول: «فَيَكُونُ مُلْحِدًا فِي أَسْمَائِهِ» هذا هو المحذور الثالث والرابع؛ لأنه عطل الله عز وجل عن أسمائه وصفاته، ووصفه بنقيض ذلك، فيكون ملحدًا في أسمائه.

يقول: «وَآيَاتِهِ» المحذور الأول والثاني، لأنه فهم من مدلول النص التمثيل، وأراد أن ينفي هذا المفهوم، فهذا إلحاد في آيات الله عز وجل، كما أن الثالث والرابع إلحاد في أسمائه وصفاته.

سيمثل على وقوع الشخص المعطل في هذه المحاذير الأربعة، سيمثل لنا بمثال واقعي: -

المثال الأول:

يقول المؤلف: «مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ النُّصُوص كُلَّهَا دَلَّت عَلَى وَصْفِ الْإِلَهِ بِالْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ» بمعنى أن النصوص أثبتت لله عز وجل صفة العلو وصفة الاستواء، صفة الاستواء ثبتت في سبعة مواضع في كتاب الله عز وجل ابتداء من سورة الأعراف، وأما العلو فالقرآن مليء بالأدلة الدالة على إثبات صفة العلو حتى قال بعض أصحاب الإمام الشافعي: (في القرآن أكثر من ثلاث مائة دليل تدل على إثبات صفة العلو لله عز وجل).

يقول المؤلف: «فَأَمَّا عُلُوُّهُ وَمُبَايَنَتُهُ لِلْمَخْلُوقَات فَيُعْلَمُ بِالْعَقْلِ الْمُوَافِقِ لِلسَّمْعِ؛ وَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ فَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِهِ هُوَ السَّمْعُ - الشيخ هنا أراد أن يفرق بين هاتين الصفتين من جهة طريق ثبوتهما، فالعلو صفة عقلية بمعنى ثبتت بالسمع والعقل؛ ثبتت بالأدلة السمعية بالوحي إضافة إلى ثبوتها بدلالة العقل، بخلاف الاستواء فإنه من الصفات الخبرية، بمعنى أنها ثبتت بالنص فقط. ولهذا قال الشيخ:- وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَصْفٌ لَهُ بِأَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنَهُ وَلَا مُدَاخِلَهُ» هذه شبهة من نفى عن الله صفة العلو تمسك بهذه الشبهة التي سبق الكلام عنها في مسألة الحيز وعدم الحيز، وهي يقول: أنه لا نجد في الكتاب ولا في السنة بأن الله وصف نفسه بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباين ولا مداخل لهذا العالم.

يقول المؤلف: «فَيَظُنُّ الْمُتَوَهِّمُ أَنَّهُ إِذَا وُصِفَ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ كَانَ اسْتِوَاؤُهُ كَاسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى ظُهُورِ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ - فيظن هذا المعطل الذي توهم أن ظاهر قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ هو التمثيل؛ فيعتقد أنه إذا وصف الله عز وجل بالاستواء فيلزم من هذا أن يكون استواؤه سبحانه كاستواء المخلوق على ظهور الفلك والأنعام، يعني كجلوس المخلوق على ظهر السفينة أو ظهر الدابة - كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ فَيَتَخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ، كَحَاجَةِ الْمُسْتَوِي عَلَى الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ، فَلَوْ غَرِقَتْ السَّفِينَةُ لَسَقَطَ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا وَلَوْ عَثَرَتْ الدَّابَّةُ لَخَرَّ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا.

فَقِيَاسُ هَذَا أَنَّهُ لَوْ عَدِمَ الْعَرْشُ لَسَقَطَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الآن المستوي على السفينة أو على الدابة أليس محتاجًا إليها؟ فيعتقد أنه إذا وصف الله بالاستواء على العرش فإنه يكون محتاجًا للعرش كحاجة هذا المخلوق للمخلوق. يقول: «فَلَوْ

غَرِقَتْ السَّفِينَةُ لَسَقَطَ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا وَلَوْ عَثَرَتْ الدَّابَّةُ لَخَرَّ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا - لأنه محتاج إليها المخلوق - فَقِيَاسُ هَذَا - يعني إذا قاس استواء الخالق على استواء المخلوق يقول:- أَنَّهُ لَوْ عَدِمَ الْعَرْشُ لَسَقَطَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» يعني يتبادر إلى ذهنه أنه إذا أثبت لله صفة الاستواء فيلزم منه أن يكون كاستواء المخلوق على ظهر الدابة بمعنى يكون محتاج إلى هذه الدابة ، لما تبادر إلى ذهنه هذا الفهم الباطل، ماذا عمل؟ -

ثُمَّ يُرِيد بِزَعْمِهِ أَنْ يَنْفِيَ هَذَا - ينفي هذا المفهوم الباطل - لَيْسَ اسْتِوَاؤُهُ بِقُعُودٍ وَلَا اسْتِقْرَارٍ - بمعنى يريد أن ينفي الاستواء الثابت لله عز وجل؛ لأنه لم يفهم من هذا الاستواء إلا ما هو ثابت للمخلوق؛ لكن لو أثبت استواءً لائقًا بالله عز وجل لما تبادر إلى ذهنه هذا الفهم الخاطئ.-

وَلَا يُعْلَمُ أَنَّ مُسَمَّى الْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ يُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ؛ فَإِنْ كَانَتْ الْحَاجَةُ دَاخِلَةً فِي ذَلِكَ: فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الِاسْتِوَاءِ وَالْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَلَيْسَ هُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَوِيًا وَلَا مُسْتَقِرًّا وَلَا قَاعِدًا، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي مُسَمَّى ذَلِكَ إلَّا مَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ فَإِثْبَاتُ أَحَدِهِمَا وَنَفْيُ الْآخَرِ تَحَكُّمٌ» المؤلف يريد أن يثبت أن هذا تفريق بين المتماثلات وأن الاستواء إذا كان في حق المخلوق يلزم منه الحاجة فإنه في حق الله عز وجل لا يلزم منه الحاجة.

يقول المؤلف: «وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ بَيْنَ مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْقُعُودِ فُرُوقًا مَعْرُوفَةً، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنْ يُعْلَمَ خَطَأُ مَنْ يَنْفِي الشَّيْءَ مَعَ إثْبَاتِ نَظِيرِهِ» يقول: بمعنى ألّا يُجعل الاستواء والاستقرار والقعود شيئًا واحدًا، فبينهم عموم وخصوص، فلا يلزم من الاستواء القعود، كما أنه لا يلزم من القعود الاستقرار، ولا يلزم من الاستقرار القعود.

يقول المؤلف: «وَكَانَ هَذَا الْخَطَأُ مِنْ خَطَئِهِ فِي مَفْهُومِ اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُ اسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى ظُهُورِ الْأَنْعَامِ وَالْفُلْكِ - يقول: الذي أوقعه في هذا الخطأ وهذا التناقض كونه لم يفهم من الاستواء إلا ما هو ثابت للمخلوق. – وَلَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِك؛ لِأَنَّهُ أَضَافَ الِاسْتِوَاءَ إلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ كَمَا أَضَافَ إلَيْهَا سَائِرَ أَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ. - قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ لا يدل على أن استواء الله عز وجل على العرش كاستواء المخلوق على ظهور الفلك والأنعام. فكما أنه أضاف إلى نفسه الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر؛ فقد أضاف إلى نفسه الاستواء، فإذا كان العلم والقدرة والإرادة على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى ولا تُماثل إرادة وقدرة وعلم المخلوق؛ فكذلك استواءه سبحانه وتعالى، ولم يذكر استواءً مطلقًا، بل ذكر استواءً أضافهُ إلى نفسه، فنفهم من ذلك أن هذا الاستواء لائقٌ به سبحانه وتعالى وأنه منزه عن الحاجة، فالله عز وجل لا يحتاج إلى شيء من المخلوقات كما هي الحال بالنسبة للمخلوق إذا كان مستويًا على الدابة أو مستويًا على هذا الكرسي، فهو محتاج إلى هذا الكرسي ولهذا إذا زال هذا الكرسي أو لو سقط هذا الكرسي لسقط من عليه، الله عز وجل يختلف تمامًا عن هذا - فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ ثُمَّ اسْتَوَى كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ قَدَّرَ فَهَدَى، وَأَنَّهُ بَنَى السَّمَاءَ بِأَيْدٍ، وَكَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ يَسْمَعُ وَيَرَى وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. فَلَمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً مُطْلَقًا يَصْلُحُ لِلْمَخْلُوقِ، وَلَا عَامًّا يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوق، كَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ - بمعنى أنه لما ذكر الاستواء الذي أضافه إلى نفسه لم يذكر هذا الاستواء بإطلاق أو ذكره عامًّا يصلح للخالق والمخلوق، لا، ذكر استواءً وأضافه إلى نفسه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. يقول: «كَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ» لما ذكر صفة العلم أضافها إلى نفسه، ولهذا قلنا: أن هذا العلم ثابت لله على الوجه اللائق به سبحانه.- وَإِنَّمَا ذَكَرَ اسْتِوَاءً أَضَافَهُ إلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ»

يقول المؤلف: «فَلَوْ قُدِّرَ عَلَى وَجْهِ الْفَرْضِ الْمُمْتَنِعِ أَنَّهُ هُوَ مِثْلُ خَلْقِهِ - تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ- لَكَانَ اسْتِوَاؤُهُ مِثْلَ اسْتِوَاءِ خَلْقِه - يقول: -ولله المثل الأعلى- لو افترضنا على وجه الفرض الممتنع، من باب الافتراض الذي لا يمكن أن يقع! أن الله مثل خلقه، إذا أثبتنا له الاستواء قلنا: أن استواءه كاستواء المخلوق؛ لكن نحن نقول: أن الله عز وجل لا يماثل المخلوق بوجه

من الوجوه- أَمَّا إِذَا كَانَ هُوَ لَيْسَ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ، بَلْ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَنْ الْخَلْقِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْعَرْشِ وَلِغَيْرِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَهُوَ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا اسْتِوَاءً يَخُصُّهُ، لَمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ وَلَا يَصْلُحُ لَهُ ، كَمَا لَمْ يَذْكُرْ فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ وَسَمْعِهِ وَخَلْقِهِ إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِهِ - يقول: كما أنه ذكر هذه الصفات وأضافها إلى نفسه، وقلنا: أن هذه خاصة بالله عز وجل فكذلك الاستواء، لم يذكره مطلقًا وعامًّا، بل ذكره وأضافه إلى نفسه، فيكون على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى. - فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ - لأن الذي نفى عن الله صفة الاستواء قال: يلزم من هذا أن يكون الله محتاجًا إلى العرش، نقول: هذا الوهم الفاسد لم يتبادر إلى ذهنك ولم تقل به إلا لمّا اعتقدت أن استواء الخالق مثل استواء المخلوق. - وَأَنَّهُ لَوْ سَقَطَ الْعَرْشُ لَخَرَّ مَنْ عَلَيْهِ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. هَلْ هَذَا إِلَّا جَهْلٌ مَحْضٌ وَضَلَالٌ مِمَّنْ فَهِمَ ذَلِكَ - بمعنى فهم أن هذا هو ظاهر النص ودلالة النص- وتَوَهَّمَهُ أَوْ ظَنَّهُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ وَمَدْلُولَهُ، أَوْ جَوَّزَ ذَلِكَ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الْغَنِيِّ عَنْ الْخَلْقِ؟ بَلْ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ جَاهِلًا فَهِمَ مِثْلَ هَذَا أَو تَوَهَّمَهُ لَبُيِّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَدُلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ أَصْلًا ،كَمَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى نَظَائِرِهِ فِي سَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ» بمعنى المؤلف يريد أن يصل إلى نتيجة محصلها أن دلالة هذا النص وظاهر هذا النص لا يدل على هذا المفهوم الخاطئ الباطل الذي تبادر إلى ذهن هذا المعطل، أن ظاهر قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أنه يدل على أن الله محتاج إلى العرش، أن الاستواء هذا استواء كاستواء المخلوق، يقول: ليس هذا هو مدلول النص، وليس هو ظاهر النص، بل لو توهم أو ظن شخص جاهل هذا الظن لبُيِّن له أن هذا خلاف العلم الصحيح والحقيقة الثابتة.

المثال الثاني:

يقول المؤلف: «فلما قَالَ سُبْحَانَه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ - أي بقوة - فَهَلْ يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ بِنَاءَهُ مِثْلُ بِنَاءِ الْآدَمِيِّ الْمُحْتَاجِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى زُبُلٍ وَمَجَارِفَ وأَعْوَانٍ وَضَرْبِ لَبِنٍ وَجَبلِ طِينٍ إِلَى غَيْرِهِ؟» الآن المخلوق إذا أراد أن يقيم بناءً احتاج إلى هذه المُعينات؛ يحتاج إلى طين وإلى مجارف وإلى ماء وإلى أعوان، فهل يتوهم متوهم أن الله عز وجل لما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أنه احتاج إلى هذه الأمور؟ لا يقول هذا مسلم، إذا كان هذا في هذا؛ لأن هذا خاص بالله فكذلك سائر الصفات.

يقول المؤلف: «ثُمَّ قَدْ عُلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَالَمَ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ وَلَمْ يَجْعَلْ عَالِيَهُ مُفْتَقِرًا إِلَى سَافِلِهِ - هذا الآن الشيخ يريد أن يدلّل لنا بدليل عقلي يرُدّ على هذا الوهم الفاسد الذي تبادر إلى ذهن هذا المعطل، المعطل لماذا نفى عن الله صفة الاستواء الثابتة له؟ لاعتقاده أنه إذا أثبت الاستواء لله فمعناه أن الله محتاج إلى العرش، المؤلف يقول: العقل يدل على خلاف ذلك، كيف ذلك؟ يقول: «ثُمَّ قَدْ عُلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَالَمَ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ» فلا يلزم من كون الشيء فوق الشيء أن يكون محتاجًا إليه، ما يلزم أن يكون الشيء فوق الشيء أن يكون الشيء العالي محتاج لما هو أسفل منه. مثال ذلك، يقول: - فَالْهَوَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إِلَى أَنْ تَحْمِلَهُ الْأَرْضُ، وَالسَّحَابُ أَيْضًا فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إِلَى أَنْ تَحْمِلَهُ - ليس مفتقرًا إلى أن الأرض تحمل السحاب - وَالسَّمَوَاتُ فَوْقَ الْأَرْضِ - الآن السموات عالية على الأرض، فهل هي محتاجة إلى الأرض!؟ - وَلَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَى حَمْلِ الْأَرْضِ لَهَا؛ فَالْعَلِيُّ الْأَعْلَى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ إِذَا كَانَ فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَى خَلْقِهِ أَوْ عَرْشِهِ؟ - وهذا هو المثل الأعلى، فإذا كان المخلوق يكون عاليًا على المخلوق وليس محتاجًا لما هو أسفل منه؛ فالخالق من باب أولى أن يكون عاليًا على خلقه وعلى عرشه وليس محتاجًا لهما - كَيْفَ يَسْتَلْزِمُ عُلُوُّهُ عَلَى خَلْقِهِ هَذَا الِافْتِقَارَ وَهُوَ لَيْسَ بِمُسْتَلْزَمٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ؟ - إذا كان المخلوق يعلو على المخلوق ولا يلزم منه افتقار العالي للسافل؛ فكيف هذا في حق الخالق سبحانه وتعالى!؟ - وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا ثَبَتَ لِمَخْلُوقٍ مِنْ الْغِنَى عَنْ غَيْرِهِ فَالْخَالِقُ سُبْحَانَهُ أَحَقُّ بِهِ»

وهذا هو المثل الأعلى، وقلنا: وهو القياس الأولى، أن كل كمال ثبت لمخلوق فالخالق أولى به.

مثال ثالث:

يقول المؤلف: «وَكَذَلِكَ قَوْلُه: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ مُقْتَضَى هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ اللهُ فِي دَاخِلِ السَّمَوَاتِ فَهُوَ جَاهِلٌ ضَالٌّ بِالِاتِّفَاقِ - المؤلف يقول: إذا توهم الإنسان أن مقتضى هذه الآية ومدلولها ومقتضاها أن يكون الله داخل السموات فهو جاهل وضال، وليس ظاهر هذه الآية يدل على هذا المفهوم الباطل، وسيوضح الشيخ هذا تفصيلًا – وَإِنْ كُنَّا إِذَا قُلْنَا : إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ يَقْتَضِي ذَلِكَ – هذه مسألة خلافية، الشيخ ذهب إلى ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن الشمس والقمر داخل السموات[1] ؛ لأنه يقول: «وَإِنْ كُنَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ» بمعنى أنها داخلة في السموات، والنصوص حقيقةً ليست صريحةً في هذا ولا في هذا، فيُحتمل أن تكون داخل السموات ويُحتمل أن تكون خارج السموات، فالله عز وجل أعلم بالحقيقة، فالسماء قد يراد بها العلوّ كما سيأتي، وقد يراد بها هذه السماء المبنية المعهودة، فقد يكون قول القائل: (الشمس والقمر في السماء) كما جاء في بعض النصوص أنها داخل السموات وتكون (في) ظرفية، وقد يراد بالسماء هنا العلو فيكون معنى الكلام أن الشمس والقمر في جهة العلو، الشاهد: أن الشيخ هنا كأنه يميل إلى ما يذهب إليه أكثر المفسرين أنها داخل السموات والأرض – فَإِنَّ حَرْفَ (فِي) مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَهُوَ بِحَسَبِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ» بمعنى أن (في) حرف جر له أكثر من معنى، ونحن نعرف في لغة العرب والتي جاء القرآن بها أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، وتأتي أحيانًا بمعانٍ متعددة، الذي يحدد المعنى المراد سياق الكلام.

المحاضرة (١٨)

لا زال كلام المؤلف –رحمه الله– حول القاعدة الرابعة، ذكرنا فيما سبق أن المؤلف ذكر قول الله عز وجل: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ وذكر أن ظاهر هذا النص لا يدل على أن الله عز وجل يكون في داخل السموات، وذكر أيضًا أن (في) تأتي في أكثر من معنى؛ فهي متعلقة بما قبلها وما بعدها، وهي بحسب المضاف والمضاف إليه.

يقول المؤلف: «وَلِهَذَا يُفَرَّقُ بَيْنَ كَوْنِ الشَّيْءِ فِي الْمَكَانِ، وَكَوْنِ الْجِسْمِ فِي الْحَيِّزِ، وَكَوْنِ الْعَرَضِ فِي الْجِسْمِ، وَكَوْنِ الْوَجْهِ فِي الْمِرْآةِ، وَكَوْنِ الْكَلَامِ فِي الْوَرَقِ - لاحظوا؛ الآن (في) جاءت في كل هذه الجمل؛ لكن في كل جملة لها معنى خاص يختلف عن المعنى الآخر؛ (فكون الشيء في المكان) مثلًا: كون زيد في البيت بمعنى هذا أنه يتسع له ولغيره، البيت هذا يتسع لزيد ولغيره، إذا قلنا: (زيد في البيت) بمعنى أنه ممكن أن مع زيد غيره، (وكون الجسم في الحيز) بمعنى أن الجسم شغل الفراغ – جميع الفراغ- فالحيز لا يتسع لغير هذا الجسم فهو متحيز عليه، فإذا قلنا: (الجسم في الحيز) بمعنى أن هذا الجسم استهلك هذا الفراغ كاملًا فلا يتسع لغيره، لاحظوا حرف الجر هو واحد، (الشيء في المكان) و(الجسم في الحيز) و (العرَض في الجسم) أي: العرَض قائم بالجسم؛ لأن العرَض لا يقوم بغيره، و(الوجه في المرآة)، هل معناه أن ذات الوجه انتقلت إلى المرآة؟ لا، صورة الوجه في المرآة، (الكلام في الورق) هل معناه أن نفس اللفظ انتقل إلى الورق؟ لا، رسمه في الورق –

فَإِنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ خَاصِّيَّةً يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ حَرْفُ (فِي) مُسْتَعْمَلًا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ. - بمعنى: أن حرف (في) استخدم في هذه الجمل كلها؛ لكن في كل جملة معنىً يختص به –

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ لَقِيلَ فِي السَّمَاءِ، وَلَوْ قِيلَ: الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ لَقِيلَ الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ؛ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ دَاخِلَ السَّمَوَاتِ بَلْ وَلَا الْجَنَّةُ – قد يقول قائل: العرش في السماء أم في الأرض؟

[1] ذكر الشيخ السموات والأرض ويبدو أنها زلة لسان ويقصد السموات فقط

يقول القائل: لا، العرش في السماء، فهل معنى هذا أن العرش داخل السماوات؟ الجواب: لا، فالأدلة دلت على أن العرش أعلى المخلوقات، وسقف المخلوقات، كذلك الجنة في السماء أم في الأرض؟ لقيل: في السماء، ولا يلزم من أن تكون الجنة داخل السماوات، معلوم أن الفردوس هي أعلى الجنان - وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهَا أَعْلَى الْجَنَّةِ وَوَسَطُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ) فَهَذِهِ الْجَنَّةُ سَقْفُهَا الَّذِي هُوَ الْعَرْشُ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ. مَعَ أَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ - يعني فوق جميع الأفلاك بما فيها السماء، ومع ذلك نقول: العرش في السماء، الجنة في السماء.- وَالسَّمَاءُ يُرَادُ بِهِ (الْعُلُوُّ) سَوَاءٌ كَانَ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ أَوْ تَحْتَهَا - الآن رجع الكلام إلى معنى قوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾، باختصار نحن نوجز الكلام على ما سيذكره المؤلف:

إما أن نحمل (في) على ظاهرها ويكون السماء هنا معناه (العلو) وهذا ثابت في لغة العرب، فيكون معنى قوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أأمنتم من في العلو. ما الدليل على أن السماء تطلق ويراد بها العلو؟ -

قوله سبحانه: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾» أي من جهة (العلو) من أعلى، إذن يكون معنى الآية: أأمنتم من في العلو أن يخسف بكم الأرض، هذا إذا حملنا (في) على ظاهرها وعلى بابها، فنقول: السماء تطلق ويراد بها (العلو).

يقول المؤلف: «وَلَمَّا كَانَ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِ الْمُخَاطَبِينَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى؛ وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ أَنَّهُ فِي الْعُلُوِّ وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ - يقول: لما استقر في نفوس المخاطبين أن الله عز وجل موصوف بالعلو المطلق؛ صار مباشرة مفهوم قوله سبحانه: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: أأمنتم من في العلو، أو فوق كل شيء. - وَكَذَلِكَ الْجَارِيَةُ لَمَّا قَالَ لَهَا: أَيْنَ اللَّهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، إنَّمَا أَرَادَتْ الْعُلُوَّ، مَعَ عَدَمِ تَخْصِيصِهِ بِالْأَجْسَامِ الْمَخْلُوقَةِ وَحُلُولِهِ فِيهَا - كما ثبت في صحيح مسلم، بمعنى لم تُرِد الجارية أن الله -عز وجل- حالٌّ في مكان مخلوق، ويحيط به شيءٌ مخلوق - تعالى الله عن ذلك- بل أرادت العلو، لما قال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، أشارت إلى السماء، في جهة العلو - وَإِذَا قِيلَ: الْعُلُوُّ فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ مَا فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، فَمَا فَوْقَهَا كُلِّهَا هُوَ فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ظَرْفٌ وُجُودِيٌّ يُحِيطُ بِهِ، إذْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ إلَّا اللَّهُ، كَمَا لَوْ قِيلَ: الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ فِي شَيْءٍ آخَرَ مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ - بمعنى إذا قلنا: أن الله -عز وجل- في السماء بمعنى في العلو المطلق، فلا يلزم أن يكون هناك ظرف شيء مخلوق آخر يحيط بالله -عز وجل-، لا؛ لأنه ما ثَمَّ فوق العالم إلا الله -عز وجل- ليس هناك مخلوق آخر، كما أنا إذا قلنا العرش في السماء بمعنى أعلى المخلوقات، فلا يلزم منه أن يكون هناك مخلوق آخر يحيط بهذا العرش أو فوق العرش، إذن؛

الاحتمال الأول:

أن نُجري (في) على بابها، ونقول معنى السماء (العلو) كما هو معهود في لغة العرب.

الاحتمال الثاني:-

وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ السَّمَاءَ الْمُرَادُ بِهَا الْأَفْلَاكُ كَانَ الْمُرَادُ إنَّهُ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ - لو قال لنا المعترض: لا، أنا لا أفهم من السماء - يعني عاند وكابر - إلا هذه الأفلاك المبنية، السماء المعهودة، قلنا: لا بأس، إذًا معنى (في) في قوله إذا أردت أن تحمل السماء على الاحتمال الثاني هذه السماء المعهودة المبنية، نقول: تكون (في) بمعنى (على) وحروف الجر كما أسلفت ينوب بعضها عن بعض، ما دليلكم على أن (في) تطلق ويراد بها (على)؟ الأدلة كثيرة؛ منها قوله سبحانه: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ماذا تفهم من هذا الكلام؟ أي سيروا على الأرض، وليس سيروا في جوف الأرض.-

وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ - ما معناه؟ لأصلبنكم على جذوع النخل ليس في جوف جذوع النخل، إذا

قلت: فلان في السطح، ماذا تفهم من هذا الكلام؟ في جوف السطح أو على السطح؟ على السطح، إذن يكون معنى هذه الآية إذا أردت أن تحمل السماء على أنها السماء المعهودة المبنية بهذه الطباق؛ فيكون ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أأمنتم من على السماء، وينتهي الإشكال، وينتهي هذا الوهم الباطل الذي اعتقدت أن ظاهر النص يدل على أن السماء محيطة بالله عز وجل - وَكَمَا قَالَ : ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وَيُقَالُ : فُلَانٌ فِي الْجَبَلِ وَفِي السَّطْحِ وَإِنْ كَانَ عَلَى أَعْلَى شَيْءٍ فِيهِ»

القاعدة الخامسة

قال المؤلف: «الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ أَنَّا نَعْلَمُ مَا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ - الله عز وجل خاطبنا بكتابه، والنبي صلى الله عليه وسلم خاطبنا بسنته، هل كل ما في هذين الوحيين وما تضمنه هذا المُنَزَّل وهذا الوحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هل الجميع معلوم لنا أم نعلم منه شيئًا ونجهل شيئًا آخر؟ بلا شك، المؤلف أعطانا القاعدة أولًا، أننا نعلم من وجه ونجهل من وجه،

سيدلل على النوعين: -

فإن الله قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ وَقَالَ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ الْكِتَابِ كُلِّهِ -

هذه الآيات التي فيها الأمر بالتدبر دليل على الشق الأول؛ وهو أننا نعلم ما أخبرنا الله به من وجه، كيف ذلك؟

الله -عز وجل- لمّا أمرنا بتدبر كلامه دون أن يستثني من ذلك شيء، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ ، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ لم يستثنِ من ذلك شيء، إذا أمرنا الله بالتدبر فهذا دليل على أنه معلوم، إذ ليس من اللائق أن نؤمر بتدبر كلام لا نفهم معناه، كما لو أعطيت إنسان كلامًا أعجميًّا لا يجيد لغة الأعاجم وقلتُ له: تدبر هذا الكلام! لرَدَّ عليَّ مباشرة: أنا لا أعرف معناه حتى أتدبره. فالتدبر فرعٌ عن العلم به وعن فهم معناه. فهذه الأدلة التي أمرنا الله بتدبر كتابه فيها تدل على أنه معلوم من هذا الوجه. وهذه القاعدة هي رد على المفوضة، كما أن جزءًا منها رد على أهل التأويل.-

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ الآية» - **هذه الآية دليل على الشق الثاني وهو دون وجه.**

نعلم ما أخبرنا الله به من وجه؛ لكن دون وجه دليل على أن هناك شيء مما جاء به الوحي غير معلوم لنا ومفهوم المعنى، فلا يمكن أن يكون في القرآن شيء لا يُفهم معناه؛ لأن الله أمرنا بتدبره كاملًا دون استثناء، والتدبر فرعٌ عن فهم المعنى، فهو مفهوم المعنى؛ لكن هناك ما يُجهل العلم به، وسيأتي تفصيل ذلك، فما هو الشيء المجهول؟ هي قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ الشاهد : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يعلم تأويل هذه الآيات المتشابهات إلا الله، الآيات المتشابهات ليست في واقع الأمر أنها ألفاظ مجردة لا يفهم منها شيء لكنها ليست معلومة من كل وجه، بل هي معلومة من وجه دون وجه، يتضح هذا بمعرفة معنى التأويل الذي لا يعلمه إلا الله وهو الحقيقة على ما سيأتي، فالوجه الذي نعلمه هو الذي نصل إليه بالتدبر، والوجه الذي لا نعلمه هو الذي استأثر الله بعلمه.

إذن الآيات الأولى التي فيها الأمر بتدبر القرآن دليل على الشق الأول من القاعدة: نعلم ما أخبرنا الله به من وجه.

هذه الآية آية آل عمران ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ تدل على الشق الثاني، الشاهد منها: ﴿وَمَا

﴿يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذه الآية فيها قراءتان:

قراءة الجمهور الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي وما يعلم تأويل المتشابه إلا الله.

يقول المؤلف: «وَجُمْهُورُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا عَلَى أَنَّ الْوَقْفَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَهَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ - يقول المؤلف: «وَهُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ - كعائشة -رضي الله عنها- وعروة بن الزبير والحسن البصري والضحاك ومالك ونافع ويعقوب والكسائي والأخفش والفراء وسهل بن محمد وأبو عبيد وعمر بن عبد العزيز، فكل هؤلاء قرأوا بالوقف على لفظ الجلالة.- وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:- هذا استدلال من المؤلف بقول ابن عباس على أن في القرآن ما لا يعلمه إلا الله، دليل على هذا الشق الثاني من القاعدة. يقول:- التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا - لأن القرآن نزل بالكلام العربي، فإذا قيل: السماء، العرب تفهم معنى السماء، إذا قيل في القرآن: (فسيروا) تفهم العرب معنى السير.- وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ- وهي الأمور المتعلقة بأصول الإيمان: الأمر بالصلاة، الأمر بالزكاة، الأمر بالحج، هذا لا يعذر أحد بجهالته من أهل الإيمان؛ لأن الإيمان والإسلام لا يتم إلا بذلك.- وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ - هذا خاص بأهل العلم؛ مثل: العام والخاص، والمقيد والمطلق، والناسخ والمنسوخ، فهناك في القرآن ما لا يعلمه إلا الراسخون في العلم. - وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ» وهذا هو الشاهد من هذا الأثر.

المحاضرة (١٩)

لا زال الكلام حول «الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ أَنَّا نَعْلَمُ مَا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ»

يقول المؤلف: «وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَطَائِفَةٍ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ - مجاهد وبعض المفسرين قرأوا بالوصل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فتكون (الواو) هنا عاطفة، أما على قراءة الجمهور (الواو) استئنافية والكلام مستأنف ما بعدها، مجاهد ومن معه يعتقدون أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، وعند معرفة معنى التأويل نلاحظ أنه لا خلاف بين القولين، ظاهر الخلاف أنهما متعارضان، ابن عباس ومن معه يعتقدون أنه لا يعلم تأويله إلا الله، مجاهد لا، لما قرأ بالوصل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يعتقد أن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه، فظاهر الخلاف أنه متناقض؛ لكن في الحقيقة أنه ليس -ولله الحمد- ثمة تناقض ولا اختلاف، لماذا؟ للاختلاف في معنى التأويل.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ ضابط هذا التأويل - مفهوم التأويل - فعلى قول ابن عباس نعم يجب الوقف، وعلى قول مجاهد لا، لا مانع من الوصل، وسيأتي الكلام على هذا، الشاهد أن هناك قراءة أخرى وهي الوصل وهي قراءة مجاهد ومن معه. -

وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْ تَفْسِيرِهَا» بمعنى: الشاهد من إيراد المؤلف لأثر مجاهد هذا أن مجاهد سأل ابن عباس عن تفسير كل القرآن، بمعنى أن جميع ما في القرآن مفهوم المعنى، ليس هناك في القرآن ما لا يُفهم معناه، ويقول عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية، لم يستثن من ذلك حرفًا واحدًا، هذا يدل على ماذا؟ على أن كل ما في القرآن مفهوم المعنى، وأن الراسخين يمكن أن يعلموا المتشابه؛ لكن على معنى أن التأويل هو التفسير وليس الحقيقة على ما سيأتي.

يقول المؤلف: «وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ - هذا هو الجواب، يقول عندما ننظر، الآن الكلام حول ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ لفظ التأويل، ابن عباس ومن معه يقولون: هذا خاص بما لا يعلم تأويله إلا الله، أما الراسخون في العلم فيقولون آمنا

به ويُسلِّمون، مجاهد لا، يقول الراسخون في العلم يعلمون تأويله، الشيخ يقول ما في منافاة، ما في خلاف بين القولين، القولان متفقان، كيف ذلك؟ - فَإِنَّ لَفْظَ (التَّأْوِيلِ) قَدْ صَارَ بِتَعَدُّدِ الِاصْطِلَاحَاتِ مُسْتَعْمَلًا فِي ثَلَاثَةِ مَعَانٍ:- يقول: لنقف عند ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ التأويل هذا ما معناه؟ لو لم يكن له إلا معنى واحد لقلنا: نعم القولان متعارضان وليس بمتفقين؛ لكن لما رجعنا إلى معنى التأويل الذي جرى الحديث حوله يقول الشيخ: وجدنا أن التأويل له ثلاثة معانٍ: معنيان شرعيان جاءا في الكتاب والسنة، وهذا هو الكلام يدور حول هذين المعنيين؛ لكن الشيخ ذكر المعنى الثالث لتتميم الفائدة؛ ولأنه أصبح متداولًا ومشهورًا.-

أَحَدُهَا - وَهُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ :- أحد معاني التأويل اشتُهِر عند المتكلمين وعند من كتب في أصول الفقه، وهذا ليس له مستند لا في الكتاب ولا في السنة ولا في لغة العرب، إنما اصطلاح اصطُلِح عليه، فيؤخذ كمصطلح علمي، ما معناه عند هؤلاء؟-

أَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ؛ لِدَلِيلِ يَقْتَرِنُ بِهِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَنَاهُ أَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ نُصُوصِ الصِّفَاتِ وَتَرْكِ تَأْوِيلِهَا؛ وَهَلْ هَذَا مَحْمُودٌ أَوْ مَذْمُومٌ وَحَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ؟ - ترك الشيخ الجواب؛ لأنه ليس هذا مكان بحث هذه المسألة. إذن المعنى الأول من معاني التأويل صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا ما اصطلح عليه المتكلمون وأهل أصول الفقه، بأن يُصرف اللفظ عن الاحتمال الراجح والاحتمال القريب إلى المعنى البعيد لدليل يقترن به، ذكر أن هذا هو المشهور عند المتأخرين وهو الذي عناه أكثر من تكلم في تأويل نصوص الصفات، إذا قيل: هل نصوص الصفات تُأوَّل بكذا أو لا تُأوَّل بكذا؟ مقصودهم أن يصرفوا نص الصفات عن معناه القريب عن ظاهرها إلى معنى بعيد، مثل: استوى: استولى، مثل اليد بالقدرة، أو اليد بالنعمة، مثل ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وجاء أمره، فهذا من التأويل،؛ لأنه صُرِف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر، الصحيح أنه إذا اقترن به دليل صحيح فالتأويل صحيح؛ لكن إذا كان الدليل فاسد فالتأويل فاسد، فالذين أوَّلو الاستواء بالاستيلاء واليد بالنعمة دليلهم فاسد، ولهذا تأويلهم فاسد. الشيخ يقول: «وَهَلْ هَذَا مَحْمُودٌ أَوْ مَذْمُومٌ وَحَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ ؟» إن كان الدليل الذي اقترن به حق فالتأويل حق، ويكون محمودًا، وإن كان الدليل الذي صُرِف اللفظ عن ظاهره بسببه إلى المعنى البعيد كان هذا الدليل ليس بصحيح فهذا التأويل يعتبر مذموم وباطل. -

وَالثَّانِي: أَنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ - الثاني من معاني التأويل، لاحظوا؛ الثاني والثالث هو التأويل الشرعي، هذا لفظ التأويل الوارد في الكتاب والسنة وفي لغة العرب جاء على وفق هذين المعنيين على ما سيأتي، فيطلق التأويل ويراد به: التفسير - وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَى اصْطِلَاحِ مُفَسِّرِي الْقُرْآنِ - يقول: غالب المفسرين الذين يفسرون القرآن إذا قالوا: قال أهل التأويل؛ فمقصودهم قال أهل التفسير - كَمَا يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَمْثَالُهُ مِنْ الْمُصَنِّفِينَ فِي التَّفْسِيرِ : (وَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ التَّأْوِيلِ) - الإمام محمد بن جرير الطبري إمام المفسرين-رحمه الله- في كتابه جامع البيان؛ الذي هو تفسير القرآن دائمًا يقول: واختلف علماء التأويل ومقصوده واختلف علماء التفسير.-

وَمُجَاهِدٌ إمَامُ الْمُفَسِّرِينَ؛ - قَالَ الثَّوْرِيُّ: (إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ) وَعَلَى تَفْسِيرِهِ يَعْتَمِدُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلَ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمْ- فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ فَالْمُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ - الشيخ جاء بهذه الجملة الاعتراضية ليبين أن مجاهد لما قال: أن تأويل المتشابه يعلمه الراسخون في العلم فمقصوده التفسير؛ تفسير الكلام، وهذا لا خلاف، حتى ابن عباس ومن معه من الجمهور لا يخالفون في هذا، أنه إذا كان المقصود بالتأويل هو التفسير فالراسخون في العلم يعلمون تفسير الآيات، ولهذا ابن عباس فسر القرآن كاملًا لمّا عرضه عليه مجاهد. يقول: «فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ فَالْمُرَادُ بِهِ

مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ» فإذا قال: أنه يعلم المتشابه، وأن المتشابه يعلمه الراسخون في العلم فمقصوده التفسير، والشاهد على هذا المعنى من معاني التأويل قوله سبحانه: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ في صاحبي يوسف، معناه نبئنا بتفسيره، وأيضًا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللَّهُمَّ فقهه في الدين وعلمه التأويل) معناه وعلمه التفسير في حق ابن عباس رضي الله عنه، فهنا في هذه الآية وفي هذا الحديث أطلق التأويل وأراد به التفسير. -

الثَّالِثُ مِنْ مَعَانِي التَّأْوِيلِ: هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَؤُولُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فَتَأْوِيلُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِ الْمَعَادِ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِيهِ مِمَّا يَكُونُ مِنَ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - العرب يطلقون التأويل ويريدون به الحقيقة التي يؤل إليها الكلام، ما المراد بتأويل القرآن؟ حقيقة هذه الأخبار التي فيه، فالقرآن مليء بأخبار المعاد والجنة والنار، فإذا كانت حقيقةً عينًا يوم القيامة هنا جاء تأويل هذا الخبر، ولهذا أضرب لكم مثالًا تقريبيًّا إذا قلت لكم: غدًا سأجري الاختبار للطلاب، هذا خبر، تأويل هذا الخبر إذا جاء غدًا وفعلًا أُجري الاختبار، صار هذا الفعل لما خرج حقيقة للعيان هو تأويل الخبر السابق، غدًا سنسافر إلى مكة، هذا الآن مجرد خبر، أين التأويل لهذا الخبر؟ إذا سافرنا غدًا إلى مكة فهذا هو تأويل هذا الخبر، ولهذا الله -عز وجل- قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلى الآن لم يأتِ تأويله، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ إذا قام الناس لرب العالمين وشاهد الكفار الحقيقة عاينوها فعلًا، فيه كتاب، فيه موازين، فيه حساب، فيه جنة، فيه نار؛ قالوا: قد جاءت رسل ربنا بالحق، الذي أخبرونا به في القرآن هذا تأويله.- كَمَا فِي قِصَّةِ يُوسُفَ لَمَّا سَجَدَ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ وَقَالَ: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ فَجَعَلَ عَيْنَ مَا وُجِدَ فِي الْخَارِجِ هُوَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا» يعني صارت حقيقة لما سجدوا وخرّوا له سجّدًا، هو ذكر في صغره: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ أنه رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رآهم له ساجدين، هذا لا زال خبرًا، في نهاية المطاف لما تولى مصر وقدم إليه أبواه وإخوته خرّوا له سجّدًا تحية واحترامًا التفت إلى أبيه وقال: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ هذه هي الحقيقة خرجَت وظهرَت. يعني الحقيقة التي وجدت في الخارج هي تأويل الرؤيا.

رجع الشيخ إلى شرح الثاني والثالث لمزيد من الإيضاح:

يقول المؤلف: «فَالتَّأْوِيلُ الثَّانِي: هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ، وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُفَسَّرُ بِهِ اللَّفْظُ حَتَّى يُفْهَمَ مَعْنَاهُ، أَوْ تُعْرَفَ عِلَّتُهُ أَوْ دَلِيلُهُ - إذن التأويل بالمعنى الثاني: التفسير، تفسير اللفظ؛ لأجل أن نفهم المعنى؛ لكن حقيقة هذا اللفظ قد تظهر وقد لا تظهر، فالله -عز وجل- إذا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تفسير هذا اللفظ، تأويل هذا اللفظ بمعنى التفسير: العلو والارتفاع، فنحن نعلم أن العرب إذا قالوا: استوى فلان على هذا الشيء بمعنى علا وارتفع؛ لكن حقيقة الاستواء، كُنْه هذا الاستواء كيفية هذا الاستواء، هذا من الحقيقة التي لا يعلمها إلا الله، من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله (من النوع الثاني من التأويل).-

وَهَذَا التَّأْوِيلُ الثَّالِثُ هُوَ عَيْنُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ -رضي الله عنها-: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي) يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ تَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ - بمعنى يطبق القرآن، فالقرآن أمره ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ هذا أمر، لا زال هذا أمر، كيف الإنسان يحقق هذا فعلًا عمليًا؟ إذا فعله، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- لمّا قيل له فسبح بحمد ربك صار يكثر من قول: (سبحانك اللَّهُمَّ ربنا وبحمدك اللَّهُمَّ اغفر لي) في سجود وركوعه، فهذا النوع أو هذا التأويل لفظ التأويل هنا مثال وشاهد على القسم الثالث وهو الحقيقة، ولهذا إذا قلت لك: (اخرج) هذا أمر، تأويل هذا الأمر: خروجك، كُلْ: هذا أمر، تأويل هذا الأمر: الأكل الفعلي. -

وَقَوْلُ سُفْيَانَ بْنِ عيينة: السُّنَّةُ هِيَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ - قول سفيان السنَّة بمعنى أن تطبق الأمر والنهي، هذه هي سنة النبي صلى الله عليه وسلم إذا أمرك بأمر تفعله، وإذا نهاك عن شيء تنتهي عنه، بمعنى تطبّق وتفعل - فَإِنَّ نَفْسَ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ هُوَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ بِهِ - فالله إذا أمرنا بالصلاة، تأويل ذلك: فعل الصلاة - وَنَفْسَ الْمَوْجُودِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ هُوَ تَأْوِيلُ الْخَبَرِ» والله إذا أخبرنا بأمر فوقع الخبر؛ هذا تأويله، أخبرنا مثلًا: بنزول عيسى بن مريم آخر الزمان، تأويل هذا: إذا نزل فعلًا، أخبرنا بخروج المسيح الدجال، تأويل هذا الخبر: خروجه فعلًا -

يقول المؤلف: «وَالْكَلَامُ خَبَرٌ وَأَمْرٌ - يعني كلام العرب ينقسم إلى: خبر وأمر، وهذا ذكرناه في أول الرسالة، فالخبر تأويله وجود المخبر، والأمر تأويله فعل المأمور به - وَلِهَذَا يَقُولُ أَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُ: (الْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيلِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ) - بتأويل النصوص الشرعية الفقهاء أعلم، فإذا أمرنا الله -عز وجل- بالصلاة، الصلاة عند أهل اللغة معناها الدعاء؛ لكن عند الفقهاء أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، فالفقهاء أعلم بتأويل المعنى الشرعي أو الأمر الشرعي في القرآن والسنة.- كَمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ - اشتمال الصمّاء عند أهل اللغة أن يلف الإنسان على نفسه ثوبًا ويجعل يديه من الداخل بحيث لا يكون له منفذًا، أخذوا هذا من الصمم وهو انسداد الأذن، والشيء الأصمّ الذي لا منفذ فيه، فهم يقولون: معنى اشتمال الصمّاء أن يلف الإنسان على نفسه الرداء فلا يكون فيه منفذ ليديه-النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن اشتمال الصمّاء- عرفنا الآن معنى اشتمال الصمّاء عند العرب، ما معناها عند الفقهاء؟ قالوا: أن يلتحف الإنسان بالثوب الواحد يجعل طرفيه على عاتقيه، ثوب واحد يجعله على عاتقيه، النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى أن يشتمل أو يلبس هذه اللبسة خشية أنه إذا رفع يديه انكشفت عورته، إذن الفقهاء يفهمون من هذا المعنى ما لا يفهمه أهل اللغة - لِأَنَّ الْفُقَهَاءَ يَعْلَمُونَ نَفْسَ مَا أُمِرَ بِهِ وَنَفْسَ مَا نَهَى عَنْهُ ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَقَاصِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَعْلَمُ أَتْبَاعُ بُقْرَاط وَسِيبَوَيْهِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ مَقَاصِدِهِمَا مَا لَا يُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ اللُّغَةِ؛ وَلَكِنَّ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، بِخِلَافِ تَأْوِيلِ الْخَبَرِ» الأمر والنهي لا بد للمسلم أن يعرف تأويله لأجل أن يُطَبِّق؛ لأن هذا هو المقصود أن تطبق أن تفعل، بخلاف الخبر ما يلزم أن تعلم تأويله، أنت تؤمن بهذا الخبر، لكن تعلم تأويله ما يلزم.

المحاضرة (٢٠)

لا زال كلام المؤلف حول: «الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ أَنَّا نَعْلَمُ مَا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ» كما ذكرنا في آخر المحاضرة السابقة أن تأويل الأمر والنهي لازم للمسلم بخلاف تأويل الخبر؛ لأن المطلوب منه أن يفعل ما أُمِر به وأن ينتهي عما نُهِي عنه، بخلاف الخبر.

ثم قال المؤلف: «إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ؛ فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْغَنِيَّةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، هُوَ حَقِيقَةُ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ، الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الصِّفَاتِ، وَتَأْوِيلِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ هُوَ نَفْسُ مَا يَكُونُ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ - إذن تأويل ما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات هو حقيقة هذه الأسماء والصفات، وهذا مما استأثر الله بعلمه ولا يعلمه أحد من البشر، كما أن تأويل ما أخبر الله به من الوعد والوعيد من الجنة والنار والحساب والعذاب ونطق الأيدي والأرجل والصراط على متن جهنم والحوض ... إلى آخره؛ تأويل ذلك هو حقيقة هذه الأشياء، وهذا أيضًا مما لا يعلمه إلا الله، عِلمًا أننا نعرف معناه؛ لكن حقيقته مجهولة - وَلِهَذَا مَا يَجِيءُ فِي الْحَدِيثِ نَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ وَنُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ؛ لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ تُشْبِهُ مَعَانِيهَا مَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَحْمًا وَلَبَنًا، وَعَسَلًا وَمَاءً وَخَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَهَذَا يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًى؛ وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ - يقول:

ولهذا ما يجيء في القرآن نعمل بالمحكم ونؤمن بالمتشابه، ونعتقد أن ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر حق على حقيقته وأن فيه ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه نحن في الدنيا، وإلا ما يكون للخطاب أي معنى، لو خاطبنا الله عز وجل بألفاظ لا نفقه ولا ندري ولا ندرك لها معنى لسمعنا هذا الكلام (الوحي) كما نسمع الكلام الأعجمي، ولكان الأمر بتدبر هذا الكلام من تحميل ما لا يطاق، كيف تأمرني بتدبر كلام لا أفهم معناه؟! وفهم المعنى متوقف على أن أخاطَب بألفاظ أُدرِك معناها لتشابه الألفاظ المستخدمة عندي، ولهذا قال الشيخ: «أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ تُشْبِهُ مَعَانِيهَا مَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَحْمًا وَلَبَنًا وَعَسَلًا وَمَاءً وَخَمْرًا» الله –عز وجل– أخبر أن هذه الأصناف موجودة في الجنة، ونحن نعلم في الدنيا ما هو اللحم وما اللبن وما هو الماء وما هو الخمر، فهناك تشابه في المعنى الآن؛ لكن الحقيقة هذا ما لا يعلمه إلا الله. يقول: «وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ كَحَقِيقَتِهِ» يعني ليست حقيقة ما في الجنة كحقيقة ما في الدنيا، كما أن حقيقة هذه الأسماء المنسوبة والصفات المضافة إلى الله –عز وجل– ليست كالصفات والأسماء المضافة إلى البشر – فَأَسْمَاءُ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ أَوْلَى، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَسْمَاءِ الْعِبَادِ وَصِفَاتِهِمْ تَشَابُهٌ – في المعنى العام، في المعنى الكلي، وهذا سبق الكلام إليه، نحن نعلم أن الحياة ضد الموت، وأن الوجود ضد العدم، وأن السمع ضد الصمم، وأن البصر ضد العمى، هذا المعنى العام يشترك فيه الخالق والمخلوق؛ لكن حقيقة السمع مختلفة تمامًا، فالسمع المنسوب لله والمضاف لله –عز وجل– مباين تمامًا للسمع المضاف إلى المخلوق – أَنْ لَا يَكُونَ لِأَجْلِهَا الْخَالِقُ مِثْلَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ. وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْغَائِبِ لَا يُفْهَمُ إنْ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالْأَسْمَاءِ الْمَعْلُومَةِ مَعَانِيهَا فِي الشَّاهِدِ، وَيُعْلَمُ بِهَا مَا فِي الْغَائِبِ بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ بِمَا فِي الشَّاهِدِ؛ مَعَ الْعِلْمِ بِالْفَارِقِ الْمُمَيِّزِ، وَأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِنْ الْغَيْبِ أَعْظَمُ مِمَّا يُعْلَمُ فِي الشَّاهِدِ الآن الله لمّا أخبرنا عن نفسه وأخبرنا عما يستحقه من الأسماء والصفات؛ أضاف لنفسه بعض الصفات وأضاف لنفسه بعض الأسماء، هذا أمر غيبي كما أخبرنا عن الجنة وما فيها هذا أمر غيبي غير مشاهد لنا، كيف نفهم هذا الأمر الغيبي؟ الله لما خاطبنا بهذه الألفاظ وبهذا الكلام أراد منا فهم المعنى، كيف نفهم المعنى؟ لا يمكن أن يُفهم المعنى إلا بأن يُعبَّر بألفاظ ماذا؟ قال الشيخ: تتشابه بما هو معلوم لنا. – وَفِي الْغَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ – قوله : «وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْغَائِبِ» كالإخبار بما يستحقه من الأسماء والصفات أو الإخبار عن الجنة والنار «لَا يُفْهَمُ إنْ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالْأَسْمَاءِ الْمَعْلُومَةِ مَعَانِيهَا فِي الشَّاهِدِ» المشاهد لنا، إذا قال لبن؛ نحن نعلم ما هو اللبن، إذا قال عسل في الجنة فيها أنهار من عسل مصفى؛ نعرف ما هو العسل، إذا قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ نفهم ما هو معنى السمع وما هو معنى البصر، «وَيُعْلَمُ بِهَا مَا فِي الْغَائِبِ» يعني هي الوسيلة التي نعلم بها ما في الغيب، «بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ بِمَا فِي الشَّاهِدِ؛ مَعَ الْعِلْمِ بِالْفَارِقِ الْمُمَيِّزِ» ليس معناه أن يكون الشيء الغائب هذا مثل الشيء المشاهد لنا، لا، لأن هناك آيات ونصوص أخرى تبين أن هناك بون شاسع بين الاثنين وفارق كبير جدًّا بين الاثنين، «وَأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِنْ الْغَيْبِ أَعْظَمُ مِمَّا يُعْلَمُ فِي الشَّاهِدِ» يقول: «وَفِي الْغَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» وهذا جاء في الحديث الصحيح كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) يقول أبو هريرة – رضي الله عنه–: (اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. – فَنَحْنُ إذَا أَخْبَرَنَا اللهُ بِالْغَيْبِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ عَلِمْنَا مَعْنَى ذَلِكَ وَفَهِمْنَا مَا أُرِيدَ مِنَّا فَهْمُهُ بِذَلِكَ الْخِطَابِ وَفَسَّرْنَا ذَلِكَ – فسَّرنا معنى اللبن، فسَّرنا معنى النهر، فسَّرنا معنى الحوض، هذا مفهوم ومعلوم لنا؛ لكن حقيقته مختلفة؛ لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها)، ولهذا لا يمكن مهما تخيلت ومهما تصورت من الحقيقة لن تخطر على بالك الحقيقة، فإذا كان هذا في حق المخلوق ففي حق الخالق من باب أولى – وَأَمَّا نَفْسُ الْحَقِيقَةِ الْمُخْبَرِ عَنْهَا مِثْلَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ بَعْدُ – هذا يكون يوم القيامة– إنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَذَلِكَ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا

يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ عَنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قَالُوا: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ.

وَكَذَلِكَ قَالَ رَبِيعَةُ شَيْخُ مَالِكٍ قَبْلَهُ: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَمِنْ اللهِ الْبَيَانُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْإِيمَانُ فَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْلُومٌ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ مَجْهُولَةٌ»

لاحِظ؛ أثبت معنى الاستواء، الاستواء معلوم، معلوم في لغة العرب ومعناه العلو والارتفاع والصعود، فنحن لما قال الله -عز وجل- لنا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فهمنا ما هو معنى الاستواء؛ العلو والارتفاع، بمعنى معنى الاستواء معلوم؛ لكن حقيقة الاستواء، كُنْه الاستواء هذا مجهول، الكيف مجهول.

يقول المؤلف: «وَمِثْلُ هَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةُ، يَنْفُونَ عِلْمَ الْعِبَادِ بِكَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ اللهُ إِلَّا اللهُ، فَلَا يَعْلَمُ مَا هُوَ إِلَّا هُوَ- سبحانه وتعالى- وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَى نَفْسِك) وَهَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: (اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك سَمَّيْت بِهِ نَفْسَك أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مَنْ خَلْقِك أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَك) وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ وَقَدْ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّ لِلَّهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ فَمَعَانِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِهَا فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ» الشيء الذي أخبرنا الله به نعلم معناه؛ لكن كيفيته وحقيقته الله أعلم، وما استأثر الله بعلمه لا نعلم معناه ولا كيفيته.

يقول المؤلف: «وَاَللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَنَا أَنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. فَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعْنَى ذَلِكَ وَنُمَيِّزُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَبَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا اتَّفَقَتْ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ذَاتِ اللهِ مَعَ تَنَوُّعِ مَعَانِيهَا - إذن لمّا أخبرنا الله -عز وجل- بهذه الأسماء والصفات، وأضافها إلى نفسه، أنه سميع بصير عليم قدير غفور رحيم، ذكر الشيخ: نحن نفهم ونفرق ونميز بين السمع والبصر، وبين العلم والقدرة، وبين الرحمة والعلم، إلى غير ذلك، علمًا أن كلها متفقة في دلالتها على ذات واحدة فالموصوف بها هو الله، والمسمى بها هو الله عز وجل؛ لكن لكل صفة معنى يختلف عن الصفة الثانية؛ السمع يختلف عن البصر، البصر يختلف عن العلم، العلم يختلف عن القدرة، كذلك الأسماء - فَهِيَ – أي: الأسماء - مُتَّفِقَةٌ مُتَوَاطِئَةٌ مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ - أي من حيث دلالتها على ذات واحدة فهي متفقة متواطئة، الكل يرجع إلى ذات واحدة، فالذات الواحدة؛ ذات الله –عز وجل- هي الموصوفة بجميع هذه الصفات، فهي متفقة متواطئة، وهي المسمَّى بهذه الأسماء - مُتَبَايِنَةٌ مِنْ جِهَةِ الصِّفَاتِ - يعني متباينة مختلفة من جهة المعاني، فهذه الأسماء وإن دلت على ذات واحدة فلها معانٍ متعددة؛ فالسميع غير البصير، والحي غير القدير.

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ: مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ وَالْمَاحِي وَالْحَاشِرِ وَالْعَاقِبِ. وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ مِثْلُ: الْقُرْآنِ وَالْفُرْقَانِ وَالْهُدَى وَالنُّورِ وَالتَّنْزِيلِ وَالشِّفَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا هَلْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَرَادِفَةِ -لِاتِّحَادِ الذَّاتِ- أَوْ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَبَايِنَةِ لِتَعَدُّدِ الصِّفَاتِ؟ - الشيخ يقول: مثل أسماء النبي صلى الله عليه وسلم كما ثبت أن له مجموعة من الأسماء؛ أحمد ومحمد والماحي والحاشر، كذلك القرآن: الفرقان، الهدى، النور، له عدة أسماء، فهي من حيث الذات، من حيث دلالتها على الذات متفقة متواطئة؛ فمحمد وأحمد والحاشر والعاقب كلها ترجع إلى ذات النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ذات واحدة، القرآن الفرقان النور يرجع إلى هذا الكتاب الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لكن من حيث المعاني لا، أحمد يختلف عن الحاشر، والحاشر يختلف عن العاقب. يقول: ولهذا اختلف الناس أو تنازعوا في هذه الأسماء هل هي من قبيل المترادفة لاتحاد الذات؟ هل الأسماء هذه تكون مترادفة؟ أم متباينة لتعدد الصفات؟

الترادف: اختلاف اللفظ واتحاد المعنى؛ كالأسد والليث، كلها معناها واحد لكن مختلفة في الألفاظ، أما **المتباينة**: فهي اختلاف اللفظ والمعنى، فهل هذه الأسماء مترادفة أم متباينة؟ -

كَمَا إِذَا قِيلَ: السَّيْفُ وَالصَّارِمُ وَالْمُهَنَّدُ وَقُصِدَ بِالصَّارِمِ مَعْنَى الصَّرْمِ وَفِي الْمُهَنَّدِ النِّسْبَةُ إِلَى الْهِنْدِ؛ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهَا مُتَرَادِفَةٌ فِي الذَّاتِ مُتَبَايِنَةٌ فِي الصِّفَاتِ» يعني هل هذه الأسماء من قبيل الترادف أم من قبيل التباين؟

إذا نظرنا إلى الذات قلنا: مترادفة، وإذا نظرنا إلى الصفات قلنا: متباينة، فلا يقال: أنها متباينة بإطلاق، ولا يقال: أنها مترادفة بإطلاق، لا يقال: متواطئة بإطلاق، ولا يقال: متباينة بإطلاق؛ فهي من حيث الدلالة على الذات متواطئة، كلها تدل على ذات واحدة المتصف بها واحد والمسمى بها واحد.

يقول المؤلف: «وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ اللهَ وَصَفَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ؛ وَالْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَخُصُّ بَعْضَهُ - الله عز وجل وصف القرآن في آيات بأنه كله محكم كما قال: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، ووصفه بأنه كله متشابه ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾، ووصف بعضه بالإحكام وبعضه بالتشابه كما في آية آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ -

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْكَمَ آيَاتِهِ كُلَّهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ - وسيأتي أنه أخبر أن بعضه محكم وبعضه متشابه.

إذن هناك معنى للإحكام العام، ومعنى للتشابه العام، ومعنى للإحكام الخاص والتشابه الخاص، وليس هناك تعارض ولا تناقض.-

وَالْحُكْمُ: هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ - هذا معنى الحكم في اللغة - فَالْحَاكِمُ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ، وَالْحُكْمُ فَصْلٌ بَيْنَ الْمُتَشَابِهَاتِ عِلْمًا وَعَمَلًا ، إِذَا مُيِّزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ النَّافِعِ وَتَرْكَ الضَّارِّ، فَيُقَالُ: حَكَمْت السَّفِيهَ وَأَحْكَمْته، إِذَا أَخَذْت عَلَى يَدِهِ، وَحَكَمْت الدَّابَّةَ وَأَحْكَمْتهَا ، إِذَا جَعَلْت لَهَا حَكَمَةً وَهُوَ مَا أَحَاطَ بِالْحَنَكِ مِنْ اللِّجَامِ، وَإِحْكَامُ الشَّيْءِ إتْقَانُهُ؛ فَإِحْكَامُ الْكَلَامِ إتْقَانُهُ بِتَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنْ الْكَذِبِ فِي أَخْبَارِهِ، وَتَمْيِيزِ الرُّشْدِ مِنْ الْغَيِّ فِي أَوَامِرِهِ - إذن الحُكم في اللغة معناه: الفصل.

أما في **الاصطلاح**: فهو إحكام الكلام وإتقانه بحيث يتميز الصدق فيه من الكذب -هذا ما يتعلق في الأخبار- ويتميز الرشد من الغي في الأوامر.

فالقرآن بهذا المعنى كله محكم متقن ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي أُتقِنت آياته، ليس فيه كذب، ليس فيه غي، ولذلك سماه الله عز وجل - فَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ حَكِيمًا بِقَوْلِهِ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ فَالْحَكِيمُ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ، كَمَا جَعَلَهُ يَقُصُّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ، وَجَعَلَهُ مُفْتِيًا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أَيْ: مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَمُبَشِّرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ - إذن القرآن كله محكم،

ما معنى الإحكام العام؟

الإحكام العام: هو الإتقان، فهو مطرد في بلاغته وانتظامه في سِلْك الفصاحة، ومستوٍ في أجزاء كلماته في أداء المعنى من غير حشوٍ يُستغنى عنه أو نقصان يُخلّ به، وألفاظه وأحكامه ومعانيه متقنة بألفاظ ظاهرة بيّنة لا خلل فيها بوجه من الوجوه.

ما معنى التشابه العام؟ -

وَأَمَّا التَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ فَهُوَ ضِدُّ الِاخْتِلَافِ الْمَنْفِيِّ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وَهُوَ الِاخْتِلَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ - إذن التشابه العام هو ضد هذا الاختلاف المذكور في الآية - فَالتَّشَابُهُ هُنَا -أي العام- هُوَ تَمَاثُلُ الْكَلَامِ وَتَنَاسُبُهُ بِحَيْثُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا - لا يناقض بعضه بعضًا - فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ لَمْ يَأْمُرْ بِنَقِيضِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ- إذا أمرك ببر الوالدين مثلا لا يأمرك بنقيض ذلك في موضع آخر، إذا أمرك بترك الربا لم يأمرك بنقيضه في موضع آخر- بَلْ يَأْمُرُ بِهِ – أي: يأمر بهذا الأمر في موضع آخر- أَوْ بِنَظِيرِهِ -بمثيله- أَوْ بِمَلْزُومَاتِهِ؛ وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ بَلْ يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يَنْهَى عَنْ نَظِيرِهِ أَوْ عَنْ لَوَازِمِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَسْخٌ» فهذا معنى التشابه العام،

إذن؛ نخلُص إلى نتيجة كلية: أن الإحكام العام هو الإتقان العام الذي وُصِف به القرآن،

وأن التشابه العام الذي وُصِف به القرآن هو تماثل الكلام وتناسبه بحيث يُصَدِّق بعضه بعضًا.

المحاضرة (٢١)

لا زال كلام المؤلف حول القاعدة الخامسة، وكان كلامه في المحاضرة السابقة حول وصف القرآن بأنه كله محكمًا وبأنه كله متشابهًا، ووصفه في آية أخرى أن بعضه محكم وبعضه متشابه، وذكرنا معنى الإحكام الذي يعمُّه وهو إتقان الكلام.

«وأمَّا التشابه- الذي يعمُّه فمعناه - هُوَ تَمَاثُلُ الْكَلَامِ وَتَنَاسُبُهُ: بِحَيْثُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ لَمْ يَأْمُرْ بِنَقِيضِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ؛ بَلْ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ بِنَظِيرِهِ أَوْ بِمَلْزُومَاتِهِ ؛ وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بَلْ يَنْهَى عَنْهُ أَوْ عَنْ نَظِيرِهِ أَوْ عَنْ مَلْزُومَاتِهِ» بمعنى أن لا يكون هناك تناقض هذا معنى التشابه العام الذي وصف الله به كتابه ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾.

«وَكَذَلِكَ إِذَا أَخْبَرَ بِثُبُوتِ شَيْءٍ لَمْ يُخْبِرْ بِنَقِيضِ ذَلِكَ» يعني إذا أخبر أنَّ هذا الشيء ثابت ، أخبر مثلًا بإرسال نوح إلى قومه لم يخبر في موضع آخر بنقيض ذلك، أو أخبر أنَّ آدم أكل من الشجرة لم يخبر بنقيض ذلك بأنه لم يأكل من الشجرة.

«بَلْ يُخْبِرُ بِثُبُوتِهِ أَوْ بِثُبُوتِ مَلْزُومَاتِهِ وَإِذَا أَخْبَرَ بِنَفْيِ شَيْءٍ لَمْ يُثْبِتْهُ بَلْ يَنْفِيهِ أَوْ يَنْفِي لَوَازِمَهُ» يعني إذا أخبر بنفي شيءٍ ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ يعني اليهود نسبوا السحر لسليمان، الله عز وجل نفاه عنه هنا، لا يمكن أن يُثبت ذلك في موضع آخر «بَلْ يَنْفِيهِ أَوْ يَنْفِي لَوَازِمَهُ» إذن التشابه الذي يعمُّه ضد الاختلاف.

«بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُتَنَاقِضِ الَّذِي يُضَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» يأمر بشيء ثم يأمر بنقيضه، يأمر بشيء ثم ينهى عنه في موضع آخر، ينهى عن شيء ثم يأمر بنقيضه في موضع آخر.

«فَيُثْبِتُ الشَّيْءَ تَارَةً وَيَنْفِيهِ أُخْرَى أَوْ يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ فَيَمْدَحُ أَحَدَهُمَا وَيَذُمُّ الْآخَرَ فَالْأَقْوَالُ الْمُخْتَلِفَةُ هُنَا : هِيَ الْمُتَضَادَّةُ. وَالْمُتَشَابِهَةُ : هِيَ الْمُتَوَافِقَةُ» إذن التشابه العام الذي وصف به القرآن هو تماثل الكلام وتناسقه.

«وَهَذَا التَّشَابُهُ يَكُونُ فِي الْمَعَانِي وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَلْفَاظُ» يعني التشابه الموصوف به القرآن هنا لا يلزم أن يكون في الألفاظ لكن هو متشابه في معانيه وإن اختلفت ألفاظه.

«فَإِذَا كَانَتْ الْمَعَانِي يُوَافِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُعَضِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُنَاسِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَشْهَدُ بَعْضُهَا لِبَعْضِ وَيَقْتَضِي بَعْضُهَا بَعْضًا : كَانَ الْكَلَامُ مُتَشَابِهًا -يعني العبرة هنا بالمعاني وليست بالألفاظ- بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُتَنَاقِضِ الَّذِي يُضَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا - هَذَا التَّشَابُهُ الْعَامُّ : لَا يُنَافِي الْإِحْكَامَ الْعَامَّ» الشيخ يقرر لنا العلاقة بين الإحكام العام والتشابه العام ، هل هي علاقة تضاد –

تناقض- أم علاقة تلازم؟

«فَهَذَا التَّشَابُهُ الْعَامُّ : لَا يُنَافِي الْإِحْكَامَ الْعَامَّ» ليس ضد الإحكام العام، كما أنَّ الله عز وجل وصف القرآن بأنه كله محكم وصفه بأنه كله متشابه لا يعني هذا أن يكون الإحكام هنا ضد التشابه فيكون في كلام الله تناقض واختلاف.

«هَذَا التَّشَابُهُ الْعَامُّ: لَا يُنَافِي الْإِحْكَامَ الْعَامَّ بَلْ هُوَ مُصَدِّقٌ لَهُ فَإِنَّ الْكَلَامَ -وجه كون الإحكام العام لا ينافي التشابه العام وجه ذلك -فَإِنَّ الْكَلَامَ الْمُحْكَمَ - ما معنى المحكم هنا؟ المتقن هو الذي -يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا» وهذا هو معنى التشابه ، إذن لا يوجد تنافي، أصلا الكلام ما يكون محكم متقن إلا بأن يوصف بأنه متشابه بالمعنى العام بمعنى يُصدِّق بعضه بعضًا ولا ينافي بعضه ولا يناقض بعضه بعضًا، هذا ما يتعلق بالتشابه العام والإحكام العام.

ولا يجوز أن يكون التشابه العام يناقض الإحكام العام؛ لأنه يلزم عليه أن يكون كلام الله عز وجل متناقضًا يعني: لو قال قائل: إن العلاقة بين الإحكام العام والتشابه العام في وصف القرآن بذلك أنَّ هذا يناقض هذا أو أن هذا ينافي هذا ؛ لكان كلام الله -تعالى الله عن ذلك- متناقضًا كيف؟ لأنه وصف القرآن كله بأنه محكم، وصف القرآن كله بأنه متشابه فإذا كان هذا ينافي هذا صار كلام الله عز وجل متناقض وحاشاه ذلك، قلنا: أنَّ هذا لا ينافي ذاك إذ الكلام المحكم المتقن هو الذي يُصدِّق بعضه بعضًا وهو الذي يشهد بعضه لبعض.

بعد هذا انتقل المؤلف للكلام على التشابه الخاص والإحكام الخاص الذي وُصف به بعض القرآن من هذا النوع وبعض القرآن من هذا النوع.

«بِخِلَافِ الْإِحْكَامِ الْخَاصِّ ؛ فَإِنَّهُ ضِدُّ التَّشَابُهِ الْخَاصِّ» الله عز وجل قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ عندنا بعض الآيات محكمة وبعض الآيات متشابهه هذا يسمى إحكام خاص وتشابه خاص بخلاف الإحكام العام والتشابه العام.

العلاقة بين الإحكام الخاص والتشابه الخاص:

الشيخ أعطانا النتيجة مباشرة:

«بِخِلَافِ الْإِحْكَامِ الْخَاصِّ ؛ فَإِنَّهُ ضِدُّ التَّشَابُهِ الْخَاصِّ» الإحكام الخاص مُناقِض للتشابه الخاص ولهذا ما جعل الله عز وجل أن القرآن كله محكم إحكام خاص أو متشابه تشابه خاص قال: لا، ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إذن فيه إحكام خاص وتشابه خاص.

«وَالتَّشَابُهُ الْخَاصُّ -الآن الشيخ يريد أن يُعرِّف التشابه الخاص- مُشَابَهَةُ الشَّيْءِ لِغَيْرِهِ مِنْ وَجْهٍ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ إِنَّهُ هُوَ أَوْ هُوَ مِثْلُهُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ»

إذن؛ ما معنى التشابه الخاص؟ التشابه: هو اشتباه الشيء بالشيء من وجه مع مخالفته له من وجه آخر بحيث يشتبه على بعض الناس، يعتقد أن هذا يشبه ذاك الشيء؛ لكن الحقيقة أنه مختلف تمامًا هذا يسمى التشابه الخاص.

ولهذا قال الله عز وجل عما في الجنَّة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اشتبه عليهم، ظنُّوا أنه مثل الذي في الدنيا؛ لكن تبيَّن أنَّ الحقيقة مخالفة تمامًا.

مثاله: مثال بسيط؛ لو أتيت بنوع من أنواع الفاكهة التي صُنعت من البلاستك ونظرت إليها تفاحة اشتبه عليك أن هذه تفاحة تفاح معروف؛ لكن لمَّا ناولتك هذه التفاحة ولمست هذه التفاحة أدركت أنها نعم تشابه التفاح الحقيقي في شكلها في لونها؛ لكن في المادة لا، مختلفة في الطعم مختلف، وهذا هو التشابه الخاص أن يشبه الشيء بالشيء في جانب، لكن يختلف معه في جانب آخر، ولهذا يقع هذا الاشتباه على بعض الناس لماذا؟ لأنه يظن أنَّ هذا الشيء مثل هذا الشيء هذا معنى التشابه الخاص.

«وَالْإِحْكَامُ -أي الإحكام الخاص -هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا» معنى الإحكام الخاص هو الفصل بين الشيئين المُشتبهين كونه اشتبه عليك هذا الأمر، كيف تفرق بين هذا وهذا؟ كيف تصل إلى الحقيقة؟ بالإحكام الخاص فالإحكام الخاص هي الأداة التي تُفرِّق بها بين هذه المشتبهات.

«هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا بِحَيْثُ لَا يَشْتَبِهُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ وَهَذَا التَّشَابُهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِقَدْرٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ مَعَ وُجُودِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا» هذا سبب التشابه الخاص، لو سُئلت كيف وقع التشابه الخاص؟ وقع بسبب القدر المشترك.

الآن أرجع لمثالي، هذه التفاحة القدر المشترك اللون العام -الشكل العام- فهو الذي أوقعك في كونك كنت تعتقد أن هذه تفاحة حقيقية، إذن منشأ التشابه الخاص من أين أتى؟ كيف حصل؟ من القدر المشترك، الذي حصل بسبب الألفاظ المشتركة.

«ثُمَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَهْتَدِي لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمَا» لا يستطيع الفصل بين هذه الأمور المشتبهة فيكون مشتبهًا عليه، يستمر هذا الاشتباه عليه؛ لأنه ما استطاع الفصل- ما وُفق للإحكام الخاص يعني ما كل الناس يوفق للإحكام الخاص الذي يستطيع به أن يفرق بين الأشياء المشتبهة فيَظل في هذا الاشتباه.

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتَدِي إِلَى ذَلِكَ ؛ فَالتَّشَابُهُ الَّذِي لَا يَتَمَيَّزُ مَعَهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ» يعني الاشتباه الذي لا يمكن أن يتميز فيه الحق من الباطل أو يتميز بعضه عن بعض هذا من الأمور النسبية بمعنى أنها من الأشياء التي قد تشتبه على بعض الناس فيكون في حقه تشابه حقيقي، وقد لا يشتبه على بعض الناس فيكون تشابه نسبي ، فهو يختلف من شخص إلى آخر.

«بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ» قد مثلا يشتبه عليك معنى هذه الآية بمعنى هذه الآية، قد يشتبه عليك تعارض هذه الآية مع تعارض الآية، ولا تستطيع التفريق بينهما؛ لكن إذا اطلَّع على هذا الكلام وعلى هذه الآيات أهل العلم -الراسخون في هذا الأمر ممن أنار الله بصائرهم- بلا شك أنه لا يشتبه عليهم هذا الأمر، ويوضحون الفصل بين الشيئين وهذا هو الإحكام الخاص.

«وَمِثْلُ هَذَا يَعْرِفُ مِنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مَا يُزِيلُ عَنْهُمْ هَذَا الِاشْتِبَاهَ كَمَا إذَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مَا وُعِدُوا بِهِ فِي الْآخِرَةِ بِمَا يَشْهَدُونَهُ فِي الدُّنْيَا فَظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُهُ» يعني بعض الناس لما يقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ﴾ يشتبه عليه أن العسل مثل عسل الدنيا؛ لأنه لا يعرف من العسل إلا هذا العسل؛ لكن إذا عُرض هذا على أهل العلم ممن رسخت أقدامهم في تفهم كلام الله وكلام رسوله أدرك أن البون شاسع لماذا ؟ لأنه ضمَّ إلى هذه الآية الآية الأخرى استخدمها هنا هذا الإحكام الخاص ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أيضًا يُهدى إلى الإحكام الخاص في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر).

«فَظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُهُ فَعَلِمَ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ مُشْبِهًا لَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ» لو لم يكن من التشابه الاسم العام.

«وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الشُّبَهُ الَّتِي يَضِلُّ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ وَهِيَ مَا يَشْتَبِهُ فِيهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ» سبب ضلال كثير ممن ضل من هذه الأمة ومن غيرها وجود بعض الشُبه، هذه الشُبه أحيانًا تكون متعلقة بالله عز وجل أحيانًا متعلقة بملائكته أحيانًا متعلقة بكتبه أحيانًا متعلقة برسله أحيانًا متعلقة باليوم الآخر أحيانًا بالقضاء والقدر، فيطرأ للإنسان شبهه، فيشتبه عليه الأمر فإذا لم يزل هذا الاشتباه بالإحكام الخاص، وإلا صار هذا الاشتباه سببًا لضلال هذا الإنسان.

فالممثلة على سبيل المثال لما سمعوا قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ انقدح في أذهانهم أن السمع الثابت لله عز وجل كسمع المخلوق؛ فاشتبه عليهم الأمر فوقعوا في التمثيل فوقعوا في هذا الضلال؛ لكن أهل العلم ممن أنار الله بصائرهم ضمُّوا إلى هذه الآية صدرها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وضمُّوا لهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. القدرية النُفاة لما نفوا عموم مشيئة الله عز وجل وعموم خلقه لأفعال العباد بناءً على ما اشتبه عليهم من قوله سبحانه: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ

يَسْتَقِيمَ﴾ لما اشتبه عليهم من معنى الظلم فأرادوا أن يُنزِّهوا الله عز وجل عن هذا الظلم؛ لكن غفلوا ولهذا وقعوا في هذا الضلال حيث جعلوا مع الله خالقين ونفوا عموم مشيئة الله عز وجل وعموم خلقه؛ لكن من أنار الله بصيرته ضمَّ هذا إلى هذا ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ .

ثم عرَّفوا الظلم الحقيقي في لغة العرب وأنه لا ينطبق على الله عز وجل.

«وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الشُّبُهَاتِ لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ لِلشَّيْءِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ بِمَا لَا يُشْبِهُهُ فِيهِ» مثل الظلم لما نفوا عن الله عز وجل عموم المشيئة وعموم الخلق بالنسبة للقدرية النُفاة المعتزلة، لماذا؟ لأنهم قاسوا الله على خلقه وهذا قياس فاسد فهذا القياس الفاسد من الشُبهات لما قاسوا الله على خلقه وقعوا في الضلال.

«فَمَنْ عَرَفَ الْفَصْلَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ: اهْتَدَى لِلْفَرْقِ الَّذِي يَزُولُ بِهِ الِاشْتِبَاهُ وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ» إذا وفق الإنسان للفصل بين الشيئين ما يشتبه عليه هذا الأمر وهذا الأمر، الله عز وجل له ما يخصه والمخلوق له ما يخصه، الجنة لها ما يخصها والدنيا لها ما يخصها، إذا عرف الإنسان هذا الإحكام الخاص زال عنه هذا الاشتباه ولا وقع في الضلال كما وقع غيره في هذا الضلال.

«وَمَا مِنْ شَيْئَيْنِ» هو الآن يريد أن يُحدد لنا أنَّ عموم الضلال الذي وقعت فيه الأمة إنَّما وقع بسبب التشابه الخاص من جهة هذا النوع من التشابه.

«وَمَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا وَيَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَيَفْتَرِقَانِ فِي شَيْءٍ» أي شيئين افترضهما لا بد أن يكون هناك قاسم مشترك بينهما، وقاسم فارق بينهما، يشتركان في شيء ويختلفان في شيء آخر.

«فَبَيْنَهُمَا اشْتِبَاهٌ مِنْ وَجْهٍ وَافْتِرَاقٌ مِنْ وَجْهٍ وَلِهَذَا كَانَ ضَلَالُ بَنِي آدَمَ مِنْ قِبَلِ التَّشَابُهِ» المقصود بالتشابه الخاص وليس التشابه العام.

«وَالْقِيَاسِ الْفَاسِدِ لَا يَنْضَبِطُ» لأنَّ القياس الفاسد هو نوع من التشابه ونتيجة من نتائج التشابه.

«كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : أَكْثَرُ مَا يُخْطِئُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّأْوِيلِ وَالْقِيَاسِ ؛ فَالتَّأْوِيلُ: فِي الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ ، وَالْقِيَاسُ: فِي الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ» بمعنى التأويل هو الذي يوقع في التشابه في الأدلة النقلية، أمَّا القياس فهو الذي يوقع في التشابه والاشتباه في الأدلة العقلية.

«وَهُوَ كَمَا قَالَ وَالتَّأْوِيلُ الْخَطَأُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَشَابِهَةِ، وَالْقِيَاسُ الْخَطَأُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَعَانِي الْمُتَشَابِهَةِ» التأويل متعلق غالبًا بالألفاظ ،ولهذا يلجأ الإنسان أن ينقل هذا اللفظ من معناه إلى معنى آخر، بينما القياس متعلق بالمعاني وليس بالألفاظ، دائمًا القياس يُنظر إلى المعنى بغضِّ النظر عن اللفظ، ولهذا لاحظوا مثلا: لما قاس أهل العلم الرز على البر في جريان الربا اللفظ مختلف تماما هذا رز وهذا بر؛ لكن قاسوا في المعنى وجدوا أن هناك معاني متحدة متشابهة فنزَّلوا الحكم على الجميع.

«وَقَدْ وَقَعَ بَنُو آدَمَ فِي عَامَّةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ حَتَّى آلَ الْأَمْرُ إِلَى مَنْ يَدَّعِي التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مِنْهُمْ إِلَى أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ فَظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ فَجَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ عَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَبْعَدُ عَنْ مُمَاثَلَةِ شَيْءٍ وَأَنْ يَكُونَ إيَّاهُ أَوْ مُتَّحِدًا بِهِ ؛ أَوْ حَالًّا فِيهِ مِنْ الْخَالِقِ مَعَ الْمَخْلُوقِ».

خلاصة ما سبق: أنَّ الله عز وجل وصف القرآن بالإحكام العام والتشابه العام والعلاقة بينهما علاقة تلازم بحيث أنَّ التشابه العام لا ينافي الإحكام الخاص، ووصف بعض القرآن بالإحكام ووصف بعضه بالتشابه هذا الإحكام الخاص والتشابه الخاص والعلاقة بينهما علاقة تضاد، وعرفنا معنى الإحكام العام والتشابه العام والإحكام الخاص والتشابه الخاص، ثم ذكر المؤلف أن عامة ضلال بني آدم إنما وقع بسبب التشابه الخاص، وأنَّ القياس نتيجة لهذا التشابه الخاص أو هو نوع من التشابه الخاص

الذي أوقع من وقع في الضلال فيما أوقعه فيه.

بعد ذلك انتقل المؤلف ليذكر لنا أمثلة عملية لبعض طوائف الضلال التي ضلَّت بسبب التشابه الخاص، ومن أعظم الطوائف ضلالًا وانحرافًا أهل وحدة الوجود الذين يقولون: أن الوجود واحد، وجود الخالق هو وجود المخلوق ووجود المخلوق هو وجود الخالق تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ولعلنا نتحدث عن هذا تفصيلًا وكيف وقع هؤلاء في هذا الضلال الذي ذكر شيخ الإسلام أنه لم يقع في أي أمة من الأمم كما وقع عند هؤلاء ، ولهذا ذكر أن كفرهم أعظم من كفر اليهود والنصارى.

المحاضرة (٢٢)

لازال حديثنا مع كلام الشيخ في القاعدة الخامسة وذكر الشيخ كما تقدم أقسام التشابه والإحكام المتعلق بكتاب الله عز وجل فذكر الإحكام العام والتشابه العام، والإحكام الخاص والتشابه الخاص، ثم ذكر أن عامة من ضلَّ في باب التوحيد إنما ضلَّ من باب التشابه الخاص؛ وسيضربُ أمثلة الآن على هذا الضلال الذي وقع في بعض فرق الأمة بسبب التشابه الخاص.

«وَقَدْ وَقَعَ بَنُو آدَمَ فِي عَامَّةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ حَتَّى آلَ الْأَمْرُ بِمَنْ يَدَّعِي التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مِنْهُمْ إِلَى أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ فَظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ، فَجَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ عَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَبْعَدَ عَنْ مُمَاثَلَةِ شَيْءٍ أو يَكُونَ إِيَّاهُ أَوْ مُتَّحِدًا بِهِ ؛ أَوْ حَالًّا فِيهِ مِنْ الْخَالِقِ مَعَ الْمَخْلُوقِ»

«وَقَدْ وَقَعَ بَنُو آدَمَ فِي عَامَّةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ -يعني الطوائف التي ضلَّت بسبب التشابه الخاص ، تنوعت هذه الضلالات وكثرت طرقها لكن السبب واحد: وهو التمسك بالتشابه الخاص دون الرجوع إلى الإحكام الخاص لإزالة هذا الاشتباه. - حَتَّى آلَ الْأَمْرُ بِمَنْ يَدَّعِي التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مِنْهُمْ- هؤلاء أسوأ الفرق التي ضلت بسبب التشابه الخاص وصل الأمر وآل الأمر بهم وهم يدَّعون أنهم أهل التوحيد وأهل التحقيق- أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ -يعني التبس عليهم وجود الله عز وجل بوجود سائر الموجودات علمًا أنه ليس ثمة أعظم ولا أبعد ولا أكثر فرقًا بين وجود الرب ووجود المخلوق؛ ومع ذلك التبس عليهم الأمر واختلطت المفاهيم فالتبس هذا الوجود، كيف آل بهم الأمر؟ - فَظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ فَجَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ عَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ- جعلوا المخلوقات هي الخالق، وجود هذا المخلوق هو وجود الخالق سبحانه وتعالى- مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَبْعَدَ عَنْ مُمَاثَلَةِ شَيْءٍ -يعني ليس هناك ثمة فرق أعظم من الفرق بين وجود الخالق ووجود المخلوق ، ومع ذلك التبس هذا الأمر عليهم- أَوْ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَوْ مُتَّحِدًا بِهِ؛ أَوْ حَالًّا فِيهِ مِنْ الْخَالِقِ مَعَ الْمَخْلُوقِ» الشيخ هنا يقصد أهل وحدة الوجود، والكلام هذا مُتضِّمن لمذهب الحلولية والاتحادية.

الحُلول ينقسم إلى قسمين: حُلول عام وحُلول خاص، كما أنَّ الاتحاد ينقسم إلى: اتحاد عام واتحاد خاص.

الحلول الخاص: كقول بعض النصارى؛ أنَّ اللاهوت حلّ في الناسوت كحلول الماء في الإناء.

وكقول مثلًا غُلاة الرافضة: أن الإله حلّ في روح عليّ وسائر الأئمة هذا هو الحلول الخاص.

الاتحاد الخاص: كقول بعض النصارى؛ اتحد اللاهوت في الناسوت فصارا شيئًا واحد.

الاتحاد العام: كقول أصحاب وحدة الوجود: أنَّ الله هو هذه الموجودات.

إذن؛ هذه الكثرة التي نشاهدها وهذا التنوع قالوا: هذا بحسب الظاهر أما الحقيقة فهي واحدة وجود الله عز وجل وجود هذا المخلوق وهذا المخلوق وهذا المخلوق -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا- هذا هو الاتحاد العام.

الحلول الخاص[1] : كقول بعض قدماء الجهميَّة: أنَّ الله عز وجل حالٌّ في كل مكان.

ما الفرق بين الحلول والاتحاد؟ أو الفرق بين الوحدة والاتحاد؟

*الوحدة تعني: أنَّ الشيئين شيءٌ واحد في الأصل، يعني ليس ثمَّ هناك شيء وهذا شيء لا، اتحدت هذه الأشياء وصارت شيء واحد، أما الاتحاد فلا فعندهم أنَّ الشيئين كانا منفصلين ثم صارا شيئًا واحدًا بعد أن لم يكن.

*أيضًا من الفروق أنَّ القول بالحلول يتضمن تميز الوجودين وإثباتهما، بمعنى نثبت هذا الموجود ونثبت هذا الموجود، ونميز هذا الموجود ونميز هذا الموجود؛ لكن أحد هذين الموجودين حلَّ في الآخر.

مثاله: الماء والكأس، هذا موجود وهذا موجود، فإذا وضعنا الماء في الكأس نقول: حلَّ الماء في الكأس فهذا هو الحلول، وكمثل الروح والجسد عندنا روح مستقلة وجسد مستقل فإذا صارت الروح في الجسد، قلنا: حلت الروح في الجسد فهذا معنى الحلول.

أما الاتحاد فلا؛ فليس ثمة هناك أكثر من وجود، الوجود واحد.

مثاله: إذا امتزج اللبن بالماء صارا شيئا واحدا، ليس عندنا موجودان بل ثمة موجود واحد.

الشيخ يقول: أنَّ هذه الطائفة التبس عليها الوجود؛ فظنت أنَّ وجود الخالق هو وجود المخلوق سواءً «أَنْ يَكُونَ إيَّاهُ» يعني أن يكون هو الوجود، «أَوْ مُتَّحِدًا بِهِ» يعني بعد أن لم يكن متحد اتحد بهذا الوجود، «أَوْ حَالًّا فِيهِ»

الشاهد: أنهم لم يستطيعوا أن يفرقوا بين الخالق والمخلوق، وهذا من أعظم الضلال والانحراف، ووقع هؤلاء في هذا الضلال والانحراف بسبب الاشتباه الخاص، الاشتباه الخاص أين هو؟

ورد إليهم من اشتباه الوجود والوجود؛ اشتبه عليهم الوجود والوجود.

«فَمَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِم وُجُودُ الْخَالِقِ بِوُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ حَتَّى ظَنُّوا وُجُودَهَا وُجُودَهُ ؛ فَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ ضَلَالًا مِنْ جِهَةِ الِاشْتِبَاهِ»

يعني أعظم الناس ضلالًا وانحرافًا بسبب الاشتباه من اشتبه عليه وجود الخالق ووجود المخلوق؛ فزعم أنَّ وجود الخالق هو وجود المخلوق بمعنى أنه لم يستطع أن يفرق بين الوجودين، اشتبه عليه وجود هذا ووجود هذا، وهؤلاء كما أسلفت هم أهل الحلول والاتحاد، وهم أعظم الناس ضلالًا؛ ضلوا وانحرفوا بسبب هذا الاشتباه.

«وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ» هذا هو منشأ الضلال عند هؤلاء، لو قيل لك: من أين أتاهم هذا الضلال؟ كيف وقعوا في هذا الضلال؟ ما سبب هذا الضلال؟

تقول: أنهم رأوا أنَّ الموجودات تشترك في مسمى (الوجود) رأوا أن الله موجود وسائر المخلوقات موجودة إذن فيه اشتراك، اشتراك في ماذا؟ في مسمى الوجود، إذن؛ التبس عليهم الاشتراك في مسمى الوجود.

«وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ فَرَأَوْا الْوُجُودَ وَاحِدًا» هم لمَّا رأوا أنَّ الموجودات يجمعها مسمى (الوجود) ما استطاعوا أن يفرِّقوا فظنُّوا أن الوجود واحد، واحد في ماذا؟ واحد في العين أم النوع؟

لا؛ واحد في العين وليس في النوع، سبق الكلام على الفرق بين الواحد في العين والواحد في النوع.

«وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ» الواحد بالعين كما قلنا: هو ما لا يُتصوَّر فيه الاشتراك، مثل وجودك أنت، أنت أيها الطالب أو أنتِ أيتها الطالبة وجودك ما يشترك معك غيرك في هذا الوجود، وجودي أنا لا يشترك معي أحد في وجودي هذا هو الواحد بالعين.

أما الواحد بالنوع: فهو ما يُتَصوَّر فيه الاشتراك مثل مطلق الوجود، مطلق الوجود: أنا وأنت وزيد وعمرو وهذه الطاولة وهذا

[1] قال الأستاذ: الاتحاد الخاص وأظنه سبق لسان

الكرسي كلنا نشترك في هذا المسمى، هذا يسمى واحد بالنوع، هم التبس عليهم مُسمَّى الوجود الذي اشترك فيه الخالق والمخلوق؛ لأن الخالق موجود والمخلوق موجود، إذًا اشتركا في مسمى الوجود فالتبس عليهم بدل أن يجعلوا الوجود واحد بالنوع يقبل الاشتراك جعلوه واحد بالعين، ولهذا قالوا: عين وجود الله هو عين وجود المخلوق فوقعوا في هذا الضلال الذي لم تعرف الأمة بل الأمم ضلالًا أسوأ منه؛ لأنهم اعتقدوا أن كل ما في هذا الوجود ما نشاهده وما لا نشاهده مما يتصف بالوجود هو الله تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

إذن؛ هذه أعظم الطوائف التي ضلَّت من جهة الاشتباه، سبب ضلالها كما قال المؤلف: أنهم رأوا أنَّ الموجودات تشترك في مسمى الوجود فرأوا الوجود واحدًا، واحدًا بماذا؟ واحدًا بالعين وليس واحدًا بالنوع، عندنا فرق كبير جدًّا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع كما ذكرت لكم، لمَّا أقول: (هذا الكرسي) هذا واحد بالعين ما يشترك معه غيره؛ لكن لما أقول: (كرسي) مطلق، هذا تشترك فيه مجموعة كراسي، لمَّا أقول: (سميع) يشترك في هذا الاسم كل من اتصف بهذا الاسم؛ لكن لما أقول: (هذا الطالب السميع) تحدد هذا واحدًا بالعين لا يشاركه فيه غيره.

«وَآخَرُونَ تَوَهَّمُوا» هذه هي الطائفة الثانية التي ضلَّت بسبب الاشتباه الخاص.

«وَآخَرُونَ تَوَهَّمُوا أَنَّهُ إِذَا قِيلَ: الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ لَزِمَ التَّشْبِيهُ وَالتَّرْكِيبُ فَقَالُوا: لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ فَخَالَفُوا مَا اتَّفَقَت عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ مَعَ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ مِنْ أَنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إِلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ».

الطائفة الثانية: الجهميَّة والفلاسفة والمعتزلة، هذه الطائفة الثانية التي ضلَّت بسبب الاشتباه الخاص، ما منشأ الضلال عندهم، ما الشيء الذي أوقعهم في هذا الضلال والانحراف؟

منشأه قال المؤلف: **«أَنَّ الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ**- أنَّ الموجودات إذا كانت تشترك في مُسمَّى الوجود- **لَزِمَ التَّشْبِيهُ وَالتَّرْكِيبُ»** والتشبيه هي شُبهة من نفى الصفات من المعتزلة والجهمية؛ قالوا: لا نثبت شيئًا من الصفات لئلا نقع في التشبيه؛ لئلا نشبه الخالق بالمخلوق، وشبهة التركيب -وهذه تقدم الكلام عنها- هي الشبهة التي أدلى بها الفلاسفة وربما تأثر بها بعض الجهمية؛ وقالوا: أنه يلزم من إثبات الصفات أن يكون الله مركبًا، التركيب يعني التجزؤ، إذن منشأ الضلال عندهم أنَّ الموجودات تشترك في مطلق الوجود كما أنَّ بنو آدم يشتركون في مُسمَّى إنسان، والكائنات الحية تشترك في مسمى الحيوان، إلى الآن لا إشكال هنا في كون الموجودات تشترك في مسمى الوجود هذا بالاتفاق بيننا وبينهم وبين سائر العقلاء؛ أنَّ الموجودات تشترك في هذا القدر في مسمى الوجود؛ لكن الإشكال عندهم أنهم اعتقدوا أنَّ هذه الموجودات إذا اشتركت في مُسمَّى الوجود ترتب على هذا الوقوع في التشبيه والتركيب بمعنى أنهم إذا أثبتوا لله الوجود وأثبتوا للمخلوق الوجود وقعوا في التشبيه والتركيب، ما المخرج؟

قالوا: المخرج أن يُقال: **«أن لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ»** وعندنا المُشتَرَك اللفظي ما اتحدَّ لفظه واختلف معناه، مثل: (المشتري) الآن كلمة مشتري هذه من المشتركات اللفظية تُطلق ويراد بها الكوكب وتطلق ويراد بها المبتاع، ومثل لفظ: (العين) تُطلق ويراد بها العين الباصرة وتطلق ويراد بها العين الجارية وتطلق ويراد بها الجاسوس، علمًا أنَّ اللفظ واحد، هل هناك علاقة بين المشتري المبتاع في المعنى والمشتري الكوكب؟ لا؛ لا علاقة لا من قريب ولا من بعيد، إنما اشتركا فقط في هذا اللفظ المكوَّن من هذه الأحرف، بخلاف المشترك المعنوي: وهو المسمَّى عند الفلاسفة بالمتواطئ؛ وهو ما اتحد لفظه ومعناه سواءً تفاوت هذا المعنى أم لم يتفاوت، مثل: (إنسان) يعني اتحد اللفظ والمعنى؛ لكن إنسان فيه إنسان ذكر وإنسان أنثى وإنسان طويل وإنسان قصير وإنسان حي وإنسان ميت وإنسان أبيض وإنسان أسود.

المحاضرة (٢٣)

لا زال الحديث مستمرًا حول كلام المؤلف في القاعدة الخامسة، وتقدم في المحاضرة السابقة كلام المؤلف عن الطوائف التي ضلت بسبب الاشتباه الخاص، وذكر أعظم الطوائف ضلالًا في هذا الباب وهم أهل الحلول والاتحاد.

ثم ذكر من دونهم وهم الجهمية والمعتزلة والفلاسفة الذين ضلوا بسبب الوقوع في المشترك اللفظي، وذكر رحمه الله أن هذه الطائفة زعمت «أن لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ»

«فَخَالَفُوا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ مَعَ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ مِنْ أَنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ» ذكرنا سابقا أن المشترك إما لفظي أو معنوي وهو المتواطئ.

المشترك اللفظي: ما اتحد لفظه واختلف معناه، تباين معناه تمامًا مثل: (المشتري، العين، سهيل) فسهيل يطلق على الكوكب، ويطلق على الرجل كسهيل بن عمرو، وليس ثم هناك أي تقارب ،إنما اتحدا في اللفظ؛ فهم زعموا أن الوجود الذي أطلق على الخالق والوجود الذي أطلق على المخلوق هو من المشترك اللفظي.

يقول الشيخ: لماذا هم قالوا بهذا؟ منشأ الضلال: أنهم رأوا أن الموجودات تشترك في مسمى الوجود.

ماذا نتج عن ذلك؟ أنهم جعلوا (الوجود) مشترك لفظي.

ما الذي حملهم على ذلك؟ زعمهم ألا يقعوا في التشبيه والتركيب.

الرد عليهم؛ كما قال المؤلف: «فَخَالَفُوا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ -ليس المسلمون فحسب، بل خالفوا ما اتفق عليه عموم- الْعُقَلَاءُ مَعَ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ -من سائر الملل - مِنْ أَنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ» والانقسام يدل على أن بين القسمين وحدة، فالإنسان ينقسم إلى: ذكر وأنثى؛ ومؤمن وكافر،كما أن الوجود ينقسم: واجب وممكن، ومشاهد وغير مشاهد، ومحسوس وغير محسوس، وملموس وغير ملموس.

فهذا الانقسام يدل على أن (الوجود) ليس مقولًا بالاشتراك اللفظي؛ وإنما هو بالمتواطئ الذي هو المشترك المعنوي.

المشترك المعنوي: هو ما اتحد لفظه ومعناه على اختلاف تفاوت هذا المعنى.

مثل: (إنسان) هذا لفظ مشترك معنوي متواطئ، يتفق مجموعة من المخلوقات في هذا الاسم؛ لكن يتفاوتون، هل هم على درجة واحدة؟ لا.

مثل: (البياض) يطلق على العاج، يطلق على الثلج، يطلق على عدة أشياء متفاوتة فيما بينها.

كذلك (الوجود) لا يقول عاقل أنه مقول بالاشتراك اللفظي؛ بمعنى أن اللفظ واحد والمعنى متباين تمامًا، هذا مستحيل؛ وإلا لما قسم الناس (الوجود) إلى واجب وممكن، كيف قسموه ؟

هذا يدل على: أن هناك اتحاد في المعنى العام (أن الوجود ضد العدم) لكن إذا قالوا: أن (الوجود) مشترك لفظي، بمعنى أن وجود الرب شيء ثاني ربما هذا الوجود المقصود به مثلًا: إثبات اليد، ربما إثبات الوجه، ربما إثبات العرش هذا على حد قولهم، وهذا ما لا يوافقهم عليه أحد من العقلاء ، كما ذكر المؤلف.

ثم انتقل المؤلف إلى الطائفة الثالثة التي ضلت بسبب التشابه الخاص فيقول:

«وَطَائِفَةٌ ظَنَّتْ أَنَّهُ إذَا كَانَتْ الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ مَوْجُودٌ مُشْتَرَكٌ فِيهِ وَزَعَمُوا أَنَّ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ كُلِّيَّاتٍ مُطْلَقَةً مِثْلَ: وُجُودٍ مُطْلَقٍ وَحَيَوَانٍ مُطْلَقٍ وَجِسْمٍ مُطْلَقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَخَالَفُوا الْحِسَّ وَالْعَقْلَ وَالشَّرْعَ وَجَعَلُوا مَا فِي الْأَذْهَانِ ثَابِتًا فِي الْأَعْيَانِ وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ نَوْعِ الِاشْتِبَاهِ»

الطائفة الثالثة: هؤلاء هم الفلاسفة. كيف ضلوا بسبب الاشتباه؟

يقول المؤلف: أنهم رأوا أن هذه الموجودات تشترك في مسمى الوجود، الإنسان، النبات، الجماد، الله عز وجل، السموات، الأرض، البحار، والجبال تشترك في مسمى الوجود، لا فيه إشكال هنا.

الإشكال في قولهم: «لَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ مَوْجُودٌ مُشْتَرَكٌ فِيهِ».

الوجود المطلق هذا؛ أين وجوده؟ في الذهن، يستحيل وجوده في الخارج؛ لأنه إذا وجد وحده في الخارج تحدد وتعين، إذا قلت: (وجود السيارة) تحددت وتعينت؛ لكن (وجود) هذا الاسم هذا مطلق تشترك فيه السيارة والطاولة والمبنى والاستديو، وأنتم ونحن والسموات والأرض الجميع يشترك في هذا؛ لكن أين هذا الوجود؟ هذا الوجود فقط في الذهن؛ لكن إذا وجد في الخارج (أنت موجود) تحدد وجودك، لا يمكن يكون مطلق يشترك معك غيرك في هذا الوجود، هم حَمَلهم على كون هذه المخلوقات تشترك في مسمى الوجود زعموا أنه يمكن أن يوجد في الخارج وجود مطلق، يوجد في الخارج كليات مطلقة، مثل ما مثل المؤلف: «مِثْلَ وُجُودٍ مُطْلَقٍ» هل يمكن أن نجد في الخارج- خارج الذهن- وجود مطلق؟ هذا مستحيل.

هم زعموا أنه يمكن هذا؛ مادام أن المخلوقات تشترك في مسمى الوجود يمكن أن يكون هذا الوجود في الخارج وهذا مستحيل.

سيقول قائل: وجودي أناَ ! أنت وجودك ليس وجود مطلق، وجودك محدد بوجودك، الوجود المطلق: كما عرفناه؛ الذي تشترك فيه مجموعة من الموجودات. هذا لا يمكن ، فوجودك هو وجودك لا يشاركك فيه أحد من الموجودات بخلاف الوجود المطلق لما كان في الذهن؛ كنت: أنت وزيد وعمرو وهند كلكم تشتركون في هذا الوجود؛ لكن لما خرج هذا الوجود إلى العيان تحدد بك وتحدد بهذه المرأة وتحدد بهذه السيارة وتحدد بهذا البيت.

ضرب المؤلف مثال ثاني: «وَحَيَوَانٍ مُطْلَقٍ» هذا موجود في الذهن، هؤلاء الفلاسفة يقولون: يمكن أن يوجد في الخارج حيوان مطلق، أين هو؟ إن قلتم: هذا الإنسان حيوان مطلق، نقول: أنه تحدد وأصبح مقيد، هذا الجمل حيوان تحدد به فليس حيوان مطلق.

«وَجِسْمٍ مُطْلَقٍ» موجود في الذهن تشترك فيه جميع الأجسام (أنا جسم) أدخل في هذا الجسم (وأنت جسم) تدخل في هذا الجسم، (وهذه الطاولة جسم) تدخل في هذا الجسم الذي في الذهن؛ لكن إذا خرج هذا الجسم عن الذهن إلى العين إلى الخارج إلى الوجود الفعلي تعين وتحدد فلا يقبل الاشتراك، فوجود هذه الطاولة جسم خاص بها لا يمكن مشاركتها فيه، جسمي أنا خاص بي، جسم هذه المركبة خاص بها، جسم هذه النظارة خاص بها وهكذا.

يقول: «وَنَحْوِ ذَلِكَ فَخَالَفُوا الْحِسَّ وَالْعَقْلَ وَالشَّرْعَ» بلا شك لأن هذا غير معقول وجود إنسان مطلق وحيوان مطلق أو وجود مطلق، كذلك في الشرع، كذلك في الحس، فهذا مما اتفق عليه العقلاء؛ لكن هؤلاء قالوا بهذا القول والسبب في ذلك الاشتباه الخاص.

يقول المؤلف: «وَجَعَلُوا مَا فِي الْأَذْهَانِ ثَابِتًا فِي الْأَعْيَانِ» الوجود المطلق، والإنسان المطلق، والحيوان المطلق موجود في الذهن؛ لكن يستحيل وجوده في العين – في الخارج- لأنه إذا كان في العين تحدد وتقيد تخصص بالشيء المحدد.

«وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ نَوْعِ الِاشْتِبَاهِ» أي كل ما سبق من هذه الضلالات التي سمعناها الحلول والاتحاد والمشترك اللفظي بسبب أنواع الاشتباه، وهذه النتيجة النهائية التي يريد أن يصل إليها المؤلف.

«وَمَنْ هَدَاهُ اللهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْأُمُورِ وَإِنْ اشْتَرَكَتْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ» أي من هداه الله للإحكام الخاص؛ لأن كما قلنا لما ذكرنا التشابه الخاص والإحكام الخاص، قلنا التشابه الخاص يشتبه على بعض الناس، لكن كيف يزول؟ يزول بالإحكام الخاص.

يقول: ولهذا من هداه الله عز وجل فرق بين الأمور وإن اشتركت من بعض الوجوه؛ لأن الاشتباه الخاص كما ذكرنا سابقًا مشابهة

الشيء للشيء من وجه مع مخالفته له من وجه آخر، من التبس عليه الأمر ما استطاع أن يفرق، صار عنده أن الشيئين شيئًا واحدًا؛ لكن من هداه الله عز وجل ووفقه استطاع أن يعرف أن هذا الشيء يشبه هذا الشيء من وجه؛ لكن -انتبه -يخالف هذا الشيء من وجه آخر، يعرف أين موطن الالتقاء وأين موطن الاختلاف.

«وَإِنْ اشْتَرَكَتْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَعَلِمَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْجَمْعِ وَالْفَرْقِ وَالتَّشَابُهِ وَالِاخْتِلَافِ ؛ وَهَؤُلَاءِ لَا يَضِلُّونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ الْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُحْكَمِ- المحكم الخاص- الْفَارِقِ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْفَصْلِ وَالِافْتِرَاقِ» يجمعون بين الاشتباه الخاص والإحكام الخاص؛ لأن التشابه الخاص لا يزول إلا بالإحكام الخاص ولهذا يجمعون بينهما فيوفقون للحق.

المعطلة على اختلافهم اشتبه عليهم مثلًا: إثبات الاستواء فالتبس عليهم استواء الخالق باستواء المخلوق، ما استطاعوا أن يفرقوا فنفوا عن الله صفة الاستواء، التبس عليهم الأمر فوقعوا في الانحراف والضلال من تعطيل الرب عما يستحق من هذه الصفة التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم، أهل السنة ممن وفقهم الله للحق ،لا، لم يشتبه عليهم هذا، رأوا أن الخالق والمخلوق يشتركان في مسمى الاستواء الذي هو العلو والارتفاع والصعود؛ لكن يختلفون في أشياء كثيرة فالمخلوق وإن استوى على مخلوق مثله قد يكون محتاج إليه بخلاف الخالق فإنه مستو على العرش؛ لكنه غني عن العرش وما دون العرش سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ هذا هو الإحكام الخاص ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هذا هو الإحكام الخاص الذي يزول به هذا الاشتباه.

مثال ثاني: المعتزلة لما زعموا أن المخلوق هو الذي يخلق فعل نفسه، ونفوا عن الله عز وجل عموم خلقه لأفعال العباد، واشتبه عليهم مثلًا قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فزعموا أن الله لو خلق عمل العبد وحاسبه وعذبه عليه لكان ظالما له؛ لكن ما رجعوا إلى الإحكام الخاص وهو تعريف الظلم وحقيقة الظلم المنفي عن الله عز وجل.

ولهذا اشتبه عليهم قوله سبحانه: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ وزعموا أن الإنسان يستقل بمشيئته عن مشيئة الله عز وجل؛ لكن لو ردوا هذا إلى المحكم الخاص ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لزال هذا الالتباس وأثبتوا للعبد مشيئة ولله مشيئة، وأثبتوا للعبد فعل والله سبحانه خلق العبد وخلق فعله.

«وَهَؤُلَاءِ -أي من وفقه الله وهداه كأهل السنة-لَا يَضِلُّونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ الْكَلَامِ- كما ضل أصحاب هذه الطوائف والفرق، لماذا من وفقه الله لا يضل؟ حدد الشيخ وعلل - لِأَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُ - أي بين المتشابه - وَبَيْنَ الْمُحْكَمِ الْفَارِقِ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْفَصْلِ وَالِافْتِرَاقِ» دائما المحكم من الكلام هو الذي يوضح لك أين الالتقاء وأين الافتراق، الالتقاء في الوجود مسمى الوجود العام، الاختلاف لا، وجود الرب مختلف تمامًا، وجوده وجود لم يسبق بعدم، ولا يلحقه الفناء، بخلاف المخلوق فإن وجوده من لا شيء من عدم ويلحقه الفناء وهو ما بين الحالتين -ما بين الحدوث والفناء -يعتريه النقص كالموت، السنة، تؤثر فيه المخلوقات، يحتاج إلى مخلوقات أخرى ...وهلم جرا، يعني النبات وجوده من لا شيء ونهايته إلى الفناء وهو ما بين ذلك ضعيف لا يمكن أن يقوم بنفسه يحتاج إلى غيره، يحتاج إلى الماء، إلى الهواء، إلى الشمس، إلى التربة...الخ. إذن؛ وجوده ليس كوجود الله عز وجل وإن اشتركا في مسمى الوجود؛ المسمى العام الموجود في الذهن، ولا يلزم من هذا الاشتراك التشبيه أو التمثيل أو التركيب كما زعم المعطلة.

«وَهَذَا كَمَا أَنَّ لَفْظَ (إنَّا) وَ (نَحْنُ)» هذا مثالٌ ثاني أيضا لبيان من ضل بسبب التشابه الخاص، الآن الشيخ سيورد لنا ألفاظ تعتبر من التشابه الخاص، إن أخذها الإنسان على ظاهرها مجردةً ربما أوقعته في الضلال ما لم يهد للإحكام الخاص الذي يفرق به بين مكان الالتقاء ومكان الافتراق، ويفهم اللفظ على حقيقته.

«وَهَذَا كَمَا أَنَّ لَفْظَ (إنَّا) وَ (نَحْنُ) وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الذي لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ» بمعنى هذا اللفظ يتكلم

به الشخص الذي له شركاء معه في الفعل من جنسه أو غير جنسه، مثل الإنسان لما يكون له أعوان من جنسه، الملك له جنود من جنسه أو من غير جنسه له أعوان من السلاح والحيوان والعتاد الذي يتسلح به ضد العدو.

يتكلم بها قد يقول الملك أو الأمير: (إنا) و(نحن) إذا أطلق هذا اللفظ يعني: أنا وأعواني من الوزراء، من الجند من العتاد من السلاح من القوة الاقتصادية، يتكلم بها الواحد الذي له شركاء في هذا الفعل، فالملك أو الأمير له شركاء في هذا الفعل ولا يستطيع أن يحارب بنفسه ولا يستطيع أن يدير دفة الحكم والإمارة بنفسه، لا، لابد من هؤلاء الأعوان من هؤلاء الجند من هذا العتاد.

«وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ» مثل: الشخص الذي يجمع مجموعة من الصفات يكون شجاع ويكون عالم ويكون كريم ويكون أحيانا شاعر، كل صفة يتكلم بها إذا قال: نحن كأنه مع هذه الطائفة، فمثلًا إذا تكلم في الشعر كأنه مع طائفة الشعراء، إذا جاء ميدان الحرب صار ضمن الشجعان، إذا جاء في ميدان العلم وتكلم صار في فريق العلماء، فإذا قال: (إنا) و(نحن) فيدل أنه متصف بهذه الصفات التي كل صفة تقوم مقام الواحد، إذن؛ لفظ (إنا) و (نحن) يتكلم بها الشخص الذي له أعوان من جنسه أو من غير جنسه، ويتكلم بها الواحد الذي متصف بعدة صفات؛ كل صفة منها تقوم مقام جماعة أو واحد؛ كما ذكرت لكم الإنسان الذي جمع بين الشجاعة والعلم والكرم والإقدام ويقول الشعر والأدب، اجتمعت فيه صفات متعددة، فيقول: (إنا ونحن) فعلنا كذا، لماذا؟ لأن له عدة صفات.

«وَلَهُ أَعْوَانٌ تَابِعُونَ لَهُ ؛ لَا شُرَكَاءَ لَهُ» قد يكون له أعوان؛ لكن تابعين ليسوا شركاء له في العمل، ليسوا شركاء في الفعل يتبعونه، مثلًا يتقدم في الحرب هم أتباع له أعوانه؛ لكن لا يشاركونه في هذه الشجاعة.

سيذكر المؤلف مثال لمن التبس عليه هذا اللفظ واشتبه عليه معناه.

المحاضرة (٢٤)

لا زال حديثنا مع كلام المؤلف في القاعدة الخامسة من قواعد الرسالة التدمرية، وكان الكلام في المحاضرة السابقة حول الطوائف التي ضلَّت بسبب التشابه الخاص، وذكر أمثلة على ذلك كضلال أهل الحلول والاتحاد والفلاسفة والجهمية والمعتزلة.

وانتقل المؤلف يذكر مثالًا ثانيًا: وهو الاشتباه في اللفظ، وذكر أنَّ من أنواع هذا الاشتباه «لَفْظَ (إنَّا) وَ (نَحْنُ) وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ وَلَهُ أَعْوَانٌ تَابِعُونَ لَهُ ؛ لَا شُرَكَاءَ لَهُ»

«فَإِذَا تَمَسَّكَ النَّصْرَانِيُّ - يريد أن يُطبِّق هذا الاشتباه على مثال عملي من القرآن- بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ - معلوم أنَّ عقيدة النصارى القول بالتثليث -أنَّ الله ثالث ثلاثة - بمعنى أنهم يجعلون مع الله شريكًا غيره فيزعم النصارى ويقولوا لنا: كتابكم يشهد لعقيدتنا أنَّ الإله ليس بواحد بل ثلاثة، ما دليلكم؟ قالوا في كتابكم قولُ الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ فدليل على أنَّ المتكلم ليس واحد بل أكثر من واحد- وَنَحْوِهِ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ» الله عزَّ وجل يذكر نفسه بصيغ الجمع في مواضع كثيرة متعددة، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ هذه صيغ جمع قد يتمسك بها النصراني وقد يتمسك بها غير النصراني ممن يقول بالشرك وينفي التوحيد، هذا اشتبه عليكم أنتم ولا يشتبه على عموم المسلمين؛ لكن اشتبه على طائفة من الناس كما اشتبه على هذا النصراني أنَّ هذه الألفاظ الدالة على العموم تدل على أنَّ الإله أكثر من واحد ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ وغيرها.

كيف يُرد عليه وعلى أمثاله؟ يُرد عليه بالمُحكم من الأدلة من الآيات المثبتة لتوحيد الله عزَّ وجل.

«كَانَ الْمُحْكَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ - ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هل هذه تحتمل أكثر من معنى؟ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هل تحتمل أكثر من معنى؟ أبدًا، ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾ هل تحتمل أكثر من معنى! والآيات كثيرة جدًّا في إثبات التوحيد - وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا» إذا كان اللفظ الذي ذكرتموه وأدليتم به وشغّبتم به على عموم المسلمين التبس عليكم فنحن نرد عليكم بهذه الآيات التي لا تحتمل إلا معنىً واحدًا، (إنَّا ونحن) يتكلم بها الشخص الذي له شركاء؛ لكن يتكلم بها العظيم الذي له مجموعة من الصفات، يقولون: لماذا حملتموه على هذا القسم ولم تحملوه على القسم الأول؟ قلنا للآيات الدالة على التوحيد: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا يبيِّن أنه إذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْر﴾ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فيدل على أنه مُعظِّمًا لنفسه وأنَّه له صفات كثيرة وله جنود يأتمرون بأمره ليسو بأعوان له، إنما يأمرهم فينفذوا.

«وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا يُزِيلُ مَا هُنَاكَ -الآيات التي ذكروها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْر﴾ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ - يُزِيلُ مَا هُنَاكَ مِنَ الِاشْتِبَاهِ وَكَانَ مَا ذَكَرَهُ -يعني قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْر﴾ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ما دلالتُها؟ - مِنْ صِيغَةِ الْجَمْعِ مُبَيِّنًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ» يقول: إذا قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فيدل على العظمة؛ لأن العظيم هو الذي يتكلم بهذا اللفظ (إنَّا) لأنه عظيم مُتَّصف بصفات، كل صفة تدل على معاني كثيرة جدًّا -ليس معنىً واحدًا-، وله جنود ومخلوقات تأتمر بأمره تُسلِّم لطاعته.

«وَأَمَّا حَقِيقَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا لَهُ مِنَ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَفْعَالِهِ فَلَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا هُوَ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ - حقيقة هذه العظمة هذه لا يمكن أن تدركها عقول البشر، نحن ظهر لنا شيء يسير جدًّا من عظمة الله عزَّ وجل وما خفي أضعاف ذلك،كما أنَّه لم يظهر لنا من جنوده سبحانه إلا الشيء اليسير ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر قال: (أَطَّتِ السَّمَاءُ -أي ثقُلت -وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ) وذكر في حديث الإسراء أنه رُفع له البيت المعمور وأخبره جبريل أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، فهذا يدل على كثرة وعظمة ملائكة الله عزَّ وجل الذين هم جنوده الذين يأتمرون بأمره لا يعصونه فيما يأمرهم به ويفعلون ما يؤمرون.- وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ - يعني حقيقة هذه العظمة حقيقة هؤلاء الجنود حقيقة هذه الأسماء حقيقة هذه الصفات هذا من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله - بِخِلَافِ الْمَلِكِ مِنَ الْبَشَرِ - يعني المؤلف يريد أن يُفرِّق لئلا يلتبس علينا حال الله عزَّ وجل وعظمته بحال الملك من البشر- إِذَا قَالَ: قَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِعَطَاءِ فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ وَأَعْوَانُهُ- يعني الملك من ملوك الأرض إذا طُلب منه عطاء وقال: أمرنا لك بقطعة أرض، أمرنا لك بمليون درهم، معلوم أنَّ هذا الأمر وترتيب هذا الأمر ليس بقوة وقدرة هذا الملك بذاته المجردة لا، هو وأعوانه ووزراءه وإلا لا يمكن أن يُنفذ هذه الأعمال - مِثْلُ كَاتِبِهِ وَحَاجِبِهِ وَخَادِمِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أُمِرُوا بِهِ وَقَدْ يَعْلَمُ مَا صَدَرَ عَنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ مِنِ اعْتِقَادَاتِهِ وَإِرَادَاتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَاللهُ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يُعْلِمُ عِبَادَهُ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا مِنْ صِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا حَقَائِقَ مَا صَدَرَتْ عَنْهُ مِنَ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ» بمعنى أنَّ هذه الأمور كلها تخفي عن البشر، نحن نعلم أنَّ الله عز وجل هو الخالق هو الرازق هو المحيي هو الذي له المشيئة له الإرادة وغير ذلك؛ لكن حقيقة هذه الأمور على ما هي عليه هذا مما أستأثر الله بعلمه، كما ذكر أيضًا حقيقة ما أراد بخلقه وأمره من الحكم ظهر لنا بعض الشيء؛ لكن ما خفي أضعاف ما ظهر.

«وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّشَابُهَ يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ؛ كَمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمُتَوَاطِئَةِ» ،الألفاظ المتواطئة: هي الألفاظ المتفقة في اللفظ والمعنى، والألفاظ المشتركة: ما اتفقت في اللفظ واختلفت في المعنى. إذًا؛ المتواطئ: هو ما يشترك أفراده في لفظه ومعناه مثل: (إنسان) وأمَّا المشترك اللفظي: يتفق اللفظ مثل: (مُشتري) لكن المعنى متباين تمامًا

مختلف تمامًا، (العين) اللفظ واحد الحروف واحدة؛ لكن المعنى مختلف تمامًا. إذًا؛ الاشتباه يقع في الألفاظ المتواطئة كما يكون في الألفاظ المشتركة، يقع هنا الاشتباه وهنا الاشتباه.

«وَإِنْ زَالَ الِاشْتِبَاهُ بِمَا يُمَيِّزُ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ: مِنْ إِضَافَةٍ أَوْ تَعْرِيفٍ» إذًا كيف يزول هذا الاشتباه الذي وقع بسبب الألفاظ المشتركة أو الألفاظ المتواطئة؟ نحن نعرف منشأ الاشتباه بسبب الألفاظ المتواطئة والألفاظ المشتركة، كيف يزول هذا الاشتباه؟ يزول بالإضافة أو التعريف، فإذا قلت: (وجود) هذا الآن لفظ متواطئ قد يشتبه على بعض الناس وجود الرب بوجود المخلوق؛ لكن إذا قلت: (وجود الله عزَّ وجل) زال الاشتباه أضفت الوجود لله، أو قلت: الوجود: واجب الوجود؛ عرَّفت هذا الوجود المنسوب لله عزَّ وجل زال هذا الاشتباه، وإذا قلت: (وجود محمد) أضفت الوجود لمحمد زال الاشتباه؛ اختلف صار هذا الوجود خاص بمحمد لا يمكن أن يشتبه بوجود الرب سبحانه وتعالى، أو قلت: وجود محمد: هو الوجود الممكن الذي كان ونشأ من العدم ومآله إلى الفناء ويعتريه النقص، زال الاشتباه الذي ربما التبس عليك وجود محمد بوجود الله عز وجل، إذًا الحل في الاشتباه الذي وقع بسبب الألفاظ المشتركة والمتواطئة الحل والعلاج الإضافة أو التعريف.

لنرجع إلى صفات الله عزَّ وجل التي التبست على المعطلة على اختلاف أصنافهم، صفات الله عزَّ وجل هل ذُكرت مطلقة أم ذُكرت مضافة ومُعرَّفة؟ ذُكرت مضافة لله عزَّ وجل ،فأين الاشتباه؟ قد زال الاشتباه إذا قيل: (سمع الله، بصر الله، استواء الله، علوّ الله، مجيء الله، نزول الله عزَّ وجل) زال الاشتباه والاحتمال، إذا قلنا: نزول، فيحتمل نزول المخلوق ونزول الخالق يشترك فيه الخالق والمخلوق، إذا قلنا: وجود، يشتبه فيه الخالق والمخلوق؛ لكن إذا أضفنا هذا الوجود وأضفنا هذا النزول وأضفنا هذا الاستواء وأضفنا هذه اليد لأحدهما زال الاشتباه واتضح الحق وأصبح لكلٍّ منهما ما يخصه.

«كَمَا إِذَا قِيلَ: فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ» (فيها) هنا أضاف الأنهار التي من ماء إلى ماذا؟ إلى الجنة، زال الاشتباه؛ عرفنا أنَّ المقصود هنا: ماء الجنة وليس ماء الدنيا، وماء الجنة يختلف تمامًا؛ لأنَّ الجنة فيها مالا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر - فَهُنَاكَ قَدْ خَصَّ هَذَا الْمَاءَ بِالْجَنَّةِ فَظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَاءِ الدُّنْيَا لَكِنَّ حَقِيقَةَ مَا امْتَازَ بِهِ ذَلِكَ الْمَاءُ غَيْرُ مَعْلُومٍ لَنَا وَهُوَ مَعَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ - مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ - مِنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ - يعني حقيقة هذا الماء من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله؛ أي الحقيقة التي استأثر الله بعلمها - وَكَذَلِكَ مَدْلُولُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهَا الَّتِي هِيَ حَقِيقَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ» أي أسماؤه وصفاته سبحانه حقيقة هذه الأسماء والصفات هذا مما لا يعلمه إلا الله.

«وَلِهَذَا كَانَ الْأَئِمَّةُ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ يُنْكِرُونَ عَلَى الجهمية وَأَمْثَالِهِمْ- مِنَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ - تَأْوِيلَ مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ: فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ والجهمية فِيمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ» بمعنى الأئمة كالإمام أحمد وغيره من العلماء الذين أنكروا على الجهمية والمعطلة التأويل الباطل الفاسد، كما سيأتي لم ينكروا مجرد التأويل إنما أنكروا تأويل القرآن على غير تأويله، كما ذكر الإمام أحمد في كتابه هذا، وهو كتابٌ مطبوع.

«وَإِنَّمَا ذَمَّهُمْ -أي الإمام أحمد وغيره ذمَّ هؤلاء الجهمية والمعطلة- لِكَوْنِهِمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ» بمعنى صرفوه إلى معاني باطلة ليس هو المعنى الحق المراد، فالذَّم وقع من الإمام أحمد وغيره ليس لمجرد التأويل! بل للتأويل الباطل.

وما هو التأويل الباطل؟

تأويل الكلام على غير تأويله الصحيح -انتبه- لا يُقال لك أنَّ الأئمة ينكرون التأويل بإطلاق، هذا كلام خاطئ كلام فاسد، الأئمة أنكروا التأويل الباطل فقط، تأويل المعطلة الذين يقولون: استوى معناها استولى، هذا فيه صرف للفظ عن معناه إلى

معنىً آخر بغير دليل، ولهذا نقول: هذا تأويل باطل.

«وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ -أي الإمام أحمد- مَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ مَعْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يَشْتَبِهُ عَلَى غَيْرِهِمْ» هذه الآيات اشتبهت على الجهمية على الزنادقة على الملاحدة على المعطلة؛ لكنها ولله الحمد لم تشتبه على الأئمة والعلماء، فأنكر عليهم ما اشتبه عليهم من هذه الآيات وبيَّن الحقَّ الذي فيها وأنها ليست بمشتبهة لمن وُفِّق إلى الإحكام الخاص.

«وَذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَلَمْ يَنْفِ مُطْلَقَ لَفْظِ التَّأْوِيلِ- يعني لم ينفِ التأويل مطلقًا لا ، نفى التأويل الباطل وهذا هو ديدن أهل العلم ينفون وينكرون التأويل الباطل لا مطلق التأويل- كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ يُرَادُ بِهِ: التَّفْسِيرُ الْمُبَيِّنُ لِمُرَادِ اللهِ بِهِ فَذَلِكَ لَا يُعَابُ بَلْ يُحْمَدُ - التأويل من معانيه: التفسير فإذا أوَّل الإنسان كلام الله عزَّ وجل بمعنى فسره؛ هذا ليس بباطل بل هذا مما يُحمد عليه الإنسان من العلم الشرعي الذي حثَّ الله عز وجل عليه وحثَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فتفسير القرآن مُقدَّم هذا العلم الشرعي المُبيِّن لمراد الله تعالى به فذلك لا يُعاب بل يُحمد- وَيُرَادُ بِالتَّأْوِيلِ: الْحَقِيقَةُ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهَا فَذَاكَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.»

انتقل المؤلف للكلام على طائفة جديدة ألا وهم (المفوّضة) وهم في مقابل أهل التأويل الفاسد الذين هم المعطلة:

«وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا - أي أقسام التأويل؛ يعني من لم يستطع أن يفرق بين التأويل الصحيح والتأويل الفاسد وأنَّ التأويل يطلق ويُراد به التفسير ويُطلق ويراد به الحقيقة، ما الذي سيحدث له؟ - اضْطَرَبَتْ أَقْوَالُهُ مِثْلُ طَائِفَةٍ يَقُولُونَ: إِنَّ التَّأْوِيلَ بَاطِلٌ وَإِنَّهُ يَجِبُ إِجْرَاءُ اللَّفْظِ عَلَى ظَاهِرِهِ وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ وَيَحْتَجُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبْطَالِ التَّأْوِيلِ»

المحاضرة (٢٥)

لا زال حديثنا مع كلام المؤلف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رحمه الله- في القاعدة الخامسة وذكرنا أنه ردَّ بهذه القاعدة أيضًا على طائفة جديدة ألا وهي المفوضة، كما أنه قد ردَّ بها على أهل التأويل الباطل وهم المعطلة.

انتقل للرد على (أهل التفويض) وهم في مقابل أهل التأويل الفاسد.

معنى التفويض: من فوَّض إليه الأمر، أي ردَّه إليه وصيَّره إليه وجعله الحاكم فيه.

والمراد هنا بالمفوّضة: من يفوّضون معنى نصوص الصفات إلى الله عزَّ وجل، ويزعمون أنَّ معنى هذه النصوص لا يعلمها إلا هو سبحانه مع اعتقادهم أنَّ ما يُفهم من ظاهر النص غير مراد.

المفوّضة هؤلاء هم الذين يقولون: يُجرى هذا اللفظ على ظاهره لا نعلم معناه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ نقرأ هذا الكلام كما نقرأ الكلام الأعجمي أمَّا ما يُفهم من ظاهر النص -دلالة النص- فهذا غير مُراد، والله عزَّ وجل ورسوله لم يُرِد منا أن نفهم هذا الفهم أو نعتقد هذا الاعتقاد، هذا هو التفويض وهذه الطائفة هم المفوضة.

«وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا -أي من لم يعرف أقسام التأويل وأنَّ منه ما هو صحيح ومنه ما هو فاسد- اضْطَرَبَتْ أَقْوَالُهُ- بمعنى اختلفت أقواله وتناقضت- مِثْلُ طَائِفَةٍ يَقُولُونَ إِنَّ التَّأْوِيلَ بَاطِلٌ -ومثل ما قلت لكم: أن هؤلاء هم المفوّضة الذين ينكرون التأويل مطلقًا؛ لأنهم يُحرِّمون على الناس أن يتعاملوا مع هذا النص لا تجريه لا على ظاهره ولا على خلاف ظاهره- وَإِنَّهُ يَجِبُ إِجْرَاءُ اللَّفْظِ عَلَى ظَاهِرِهِ وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ -ما حجتهم؛ ما شبهتهم؟ - وَيَحْتَجُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبْطَالِ التَّأْوِيلِ» يعني إبطال التأويل بمعانيه الثلاث؛ بهذه الآية:

لا تفسر اللفظ، اللفظ ليس له حقيقة، اللفظ لا يمكن أن يُصرف إلى معنى آخر.

الشيخ سيوضح مدى التناقض الذي وقع فيه هؤلاء، ولهذا عدَّهم بعض أهل العلم أنهم شرٌّ من المؤولة.

«وَهَذَا تَنَاقُضٌ مِنْهُمْ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَقْتَضِي أَنَّ هُنَاكَ تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَهُمْ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا» هم يقولون: ليس لهذه النصوص تأويل، ينفون التأويل مطلقًا، والله عزّ وجل يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ يثبت له تأويل؛ لكن هو الذي يعلمه.

هذا أول تناقض وقعوا فيه أنهم نفوا التأويل مطلقًا والله عزَّ وجل أثبت للكلام تأويلًا.

«وَجِهَةُ الْغَلَطِ أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ» يقول سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ هذا عرفناه سابقًا، المقصود بالتأويل هنا الذي لا يعلمه إلا الله: هو الحقيقة التي استأثر الله بعلمها، حقيقة أسمائه وصفاته، حقيقة ما يجري في اليوم الآخر، نحن نقول: أنه لا يعلمها إلا الله عزَّ وجل.

«وَأَمَّا التَّأْوِيلُ الْمَذْمُومُ وَالْبَاطِلُ: فَهُوَ تَأْوِيلُ أَهْلِ التَّحْرِيفِ وَالْبِدَعِ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ» وما يورده هؤلاء نُفاة التأويل من التأويلات الباطلة، نقول: هذا تأويل أهل البدع الذين يصرفون اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر بغير دليل، مثل: تأويل الاستواء بالاستيلاء- وَيَدَّعُونَ صَرْفَ اللَّفْظِ عَنْ مَدْلُولِهِ إِلَى غَيْرِ مَدْلُولِهِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ يُوجِبُ ذَلِكَ» هذا كما ذكرنا كتأويل المعطلة والأشاعرة والمعتزلة والجهمية كقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يقولون: ثم استولى على العرش ليس معهم حجة لا شرعية ولا عقلية، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وجاء أمر ربك هذا تأويل باطل تأويل مذموم- وَيَدَّعُونَ أَنَّ فِي ظَاهِرِهِ مِنَ الْمَحْذُورِ مَا هُوَ نَظِيرُ الْمَحْذُورِ اللَّازِمِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ بِالْعَقْلِ وَيَصْرِفُونَهُ إِلَى مَعَانٍ هِيَ نَظِيرُ الْمَعَانِي الَّتِي نَفَوْهَا عَنْهُ - بمعنى هؤلاء المؤولة بالتأويل الباطل يصرفون هذا اللفظ إلى معنى آخر يلزمهم في هذا المعنى المصروف إليه الشيء الذي فرُّوا منه لمَّا لم يُجروا اللفظ على ظاهره، وهذا أيضًا تقدم الكلام عليه عند موازنة كلام المؤلف في من أوّل صفة الرحمة لما ناقش الأشاعرة - فَيَكُونُ مَا نَفَوْهُ مِنْ جِنْسِ مَا أَثْبَتُوهُ - المعنى الذي نفوه من جنس المعنى الذي أثبتوه سواءً بسواء، فإذا كان هذا يقتضي التشبيه والتمثيل صار هذا الشيء المنفي يقتضي التشبيه والتمثيل، وإذا كان ما أثبتوه لا يقتضي التشبيه والتمثيل فما نفي لا يقتضي التشبيه والتمثيل- فَإِنْ كَانَ الثَّابِتُ حَقًّا مُمْكِنًا كَانَ الْمَنْفِيُّ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ الْمَنْفِيُّ بَاطِلًا مُمْتَنِعًا كَانَ الثَّابِتُ مِثْلَهُ» سواء بسواء، وهذا تقدم الكلام عليه يعني وقوع المؤولة المعطلة في التناقض.

*الشيخ أراد أن يبين في الكلام السابق أنَّ كلا الطائفتين (المفوضة والمؤولة) وقعتا في التناقض الذي صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر بغير دليل أنه متناقض، وأيضًا الذي نفى التأويل مطلقًا بحجة قوله عزَّ وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾

«وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا -المفوضة- وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ قَدْ يَظُنُّونَ أَنَّا خُوطِبْنَا فِي الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ ؛ أَوْ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ أَوْ بِمَا لَا يُفْهَمُ مِنْهُ شَيْءٌ - يزعمون أنَّ الله عزَّ وجل خاطبنا في كتابه بآياتٍ لا معنى لها أو لا يفهمها أحد كائنًا من كان، حتى أنهم اختلفوا فيما بينهم هل النبي صلى الله عليه وسلم يفهم معناها أم لا؟ وكثير منهم قالوا: حتى النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلوها ولا يدري ما معناها.

«وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ - كون الله عزَّ وجل خاطبنا بكلامٍ لا معنى له أو لا يفهمه أحد هذا كلام باطل؛ لأنَّ هذا على خلاف مقتضى حكمة الله عزَّ وجل، ما فائدة هذا الكلام؟ وتقدَّم في أول القاعدة أنَّ الله أمرنا في كتابه بتدبر القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ وقلنا أنَّ التدبر فرعٌ عن فهم المعنى، فكيف أتدبر كلام لا أفهم معناه؟ فإذا أمرني الله عزَّ وجل بتدبر كلام فهذا يدل على أنَّ له معنى وأنني أفهم معناه، وإلا لكان الأمر بالتدبر عبثًا، فالآيات التي فيها الأمر بالتدبر دليلٌ صريحٌ على أنَّ كل ما في القرآن مفهوم المعنى. ولهذا الشيخ قال: باطل للأدلة السابقة - فَهُوَ مُتَنَاقِضٌ - الشيخ يريد أن يبيِّن التناقض الذي وقع فيه هؤلاء؛ كما وقع فيه إخوانهم من أهل التأويل الباطل، هؤلاء نفوا التأويل مطلقًا، وأولئك غلوا في إثبات التأويل فتأوّلوا نصوص الصفات على غير تأويلها، وكلا الطائفتين وقعتا في التناقض،كيف وقع هؤلاء في التناقض؟ يقول: - لِأَنَّا

«إِذَا لَمْ نَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا لَمْ يَجُزْ لَنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَلَا يُوَافِقُهُ» الآن أنتم تنفون أن يكون الكلام مفهومًا تقول: لا يُفهم منه شيء، لماذا تقول له تأويل يُخالف الظاهر ولا يوافقه؟!

إذًا؛ أنت فهمت معنى لهذا الكلام، الآن تعاملت مع اللفظ؛ لمَّا تعاملت يدل على أنك فهمت اللفظ.

ولهذا الشيخ قال: «لِإِمكَانَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ وَذَلِكَ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ: لَا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ الْمَعْلُومَ لَنَا» أنت الآن تنفي المعنى الظاهر تنفيه بناءً على ماذا؟ أنت تقول: هذا اللفظ لا يُفهم؛ لا معنى له، فلا يجوز لك أن تنفي ولا تثبت؛ لأنه ربما يكون له معنىً صحيح وهو الظاهر من اللفظ، فهذا هو التناقض الذي وقع فيه هؤلاء، هؤلاء يقولون: لا يُفهم منه شيء أو لا معنى له، وتقول: أنَّ اللفظ له معنى يدل على كذا وكذا، لماذا تنفي هذا الشيء؟ أنت لا تفهم منه شيء فلا تثبت ولا تنفي.

«فَإِنَّهُ لَا ظَاهِرَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِمْ -يقولون: ليس للفظ معنىً ظاهر، لماذا تأتي وتنفي هذا المعنى؟ إذا نفيته بمعنى أنك فهمت أنه لا يدل على هذا الشيء، كيف فهمته؟ فهذا تناقض واضح وظاهر وبيِّن فإنه لا ظاهر له على قولهم- فَلَا تَكُونُ دَلَالَتُهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى دَلَالَةً عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ فَلَا يَكُونُ تَأْوِيلًا وَلَا يَجُوزُ نَفْيُ دَلَالَتِهِ عَلَى مَعَانٍ لَا نَعْرِفُهَا عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ» لا يجوز أن تنفي المعنى الذي أثبته لأنك أنت تقول: هذا الكلام لا معنى له، فأنا الآن أثبت معنى ربما يكون هو المعنى الصحيح، فأنت إذا نفيته؛ بمعنى أنك فهمت من هذا اللفظ شيء وبناءً عليه نفيت هذا المعنى، وإلا الشخص الذي لا يفهم الكلام لا يثبت ولا ينفي.

أضرب لكم مثال بسيط: لو جاء شخص الآن أمامنا وتكلم بكلام أعجمي، أنا لا أفهم من هذا الكلام شيء لا أعرف لغة العجم، وعندي شخص آخر يفهم لغة القوم فقال: هذا الشخص يريد كذا وكذا، قلت له أنا: لا يا أخي هو لا يريد هذا الشيء، هل اعتراضي هذا في مكانه؟ الجواب: لا، لماذا؟ لأني لا أفهم؛ ولهذا لا أُثبت ولا أنفي كلام هذا المترجم، ربما يكون كلامه صحيح وربما يكون خطأ، فلا يجوز لي أن أقول كلامك غير صحيح يقول ما دليلك؟ أنت لا تفهم كلام هذا الرجل؟ فهؤلاء قالوا: كلام الله عز وجل لا معنى له أو لا يُفهم منه أحد شيء، ثم لما جئنا وأثبتنا له معنى نفوا هذا المعنى، بناءً على ماذا نفيتم هذا المعنى؟ أنتم لا تفهمون منه شيء فالذي لا يفهم من الكلام شيء لا ينفي ولا يثبت، فإن نفى فهذا دليلٌ على تناقضه؛ وأنَّ هذا الكلام له معنى ويُفهم.

«فَإِنَّ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَدْ لَا نَكُونُ عَارِفِينَ بِهَا وَلِأَنَّا إِذَا لَمْ نَفْهَمْ اللَّفْظَ وَمَدْلُولَهُ -المراد- فَلِأَنْ لَا نَعْرِفَ الْمَعَانِيَ الَّتِي لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا اللَّفْظُ أَوْلَى» الآن أنت تقول: أنَّ هذا اللفظ ما أعرف معناه ولا أفهم دلالته، وعلى ماذا يدل؟ فمن باب أولى أنك لا تعرف المعنى الذي لا يدل عليه هذا اللفظ- انتبه- الآن أنا لما أثبت قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فقلت: هذه الآية تدل على إثبات الاستواء اللائق به سبحانه، قلت أنت: لا، هذا اللفظ لا يدل على إثبات الاستواء، لماذا ؟ قلت: يجب إجراء اللفظ على ظاهره هذا اللفظ لا يُفهم معناه، إذا كنت ما تفهم معناه، كيف تنفي المعنى الثابت له؟! كونك لا تفهم معناه فمن باب أولى أن لا تفهم أنَّ هذا اللفظ لا يدل على هذه المعنى الذي أثبت.

الآن المفوّض ينكر على أهل السنة إثبات المعاني بهذه الآيات، وينكر على أهل التأويل أهل التعطيل إنكار المعاني التي أثبتوها بتأويلهم الباطل، نقول أنتم تقولون: أنَّ اللفظ لا معنى له وغير مفهوم، إذن؛ كيف تستدلون بهذا اللفظ على أنه لا يدل على المعنى الذي أثبتناه؟ فإذا كنتم ما تعلمون ولا تدركون ولا تعتقدون ولا تقولون أنَّ هذا اللفظ يدل على هذا المعنى فمن باب أولى ألا تعرفوا أنَّ هذا اللفظ لا يدل على هذا المعنى الذي أثبتناه.

«لِأَنَّ إِشْعَارَ اللَّفْظِ بِمَا يُرَادُ بِهِ أَقْوَى مِنْ إِشْعَارِهِ بِمَا لَا يُرَادُ بِهِ -اللفظ دلالته على المعنى الذي يراد به أعظم وأبين وأوضح من الدلالة على المعنى الذي لا يراد به، قد يدل على الأمرين؛ لكن أيهما الأوضح والأقرب والأسهل؟ دلالته على الشيء الذي يراد منه أسهل وأقرب من دلالته على الشيء الذي لا يراد منه، وهو الذي تمسك به هؤلاء- فَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ لَا إِشْعَارَ لَهُ بِمَعْنَى مِنْ

الْمَعَانِي -على حدّ قول المفوضة؛ فالمفوضة يقولون: أصلًا لا يُشعر هذا اللفظ لا بإثبات هذا المعنى ولا بالمعنى الآخر- وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنًى أَصْلًا لَمْ يَكُنْ مُشْعِرًا بِمَا أُرِيدَ بِهِ فَلَأَنْ لَا يَكُونَ مُشْعِرًا بِمَا لَمْ يُرَدْ بِهِ أَوْلَى» إذا كان هذا اللفظ غير مشعر وغير دال على المعنى الذي يراد به فمن باب أولى ألا يشعر ولا يدل على المعنى الذي لا يراد به، أنتم الآن تنفون وتنكرون علينا من أين احتججتم علينا؟ قالوا: من اللفظ؛ كيف تستدلون بهذا اللفظ على نفي المعنى؛ علمًا أنكم ما فهمتم أنَّ هذا اللفظ له معنى؟!

«فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُتَأَوَّلٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مَصْرُوفٌ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ : إنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ. اللَّهُمَّ إلَّا أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ مَا يُخَالِفُ ظَاهِرُهُ الْمُخْتَصُّ بِالْخَلْقِ فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِالظَّاهِرِ هَذَا لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ» يقول: إن نفوا التأويل بناءً على أنَّ ظاهر اللفظ يدل على المعنى الثابت للمخلوق، يقول: فلا شك أنَّ هذا اللفظ لا يدل على هذا المعنى؛ لكن كما سبق في أول القاعدة أنَّ هذا ليس ظاهر اللفظ، ليس بظاهر نصوص الكتاب والسنة التشبيه والتمثيل ولا يمكن أن يكون ظاهر كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم لا يدل إلا على التشبيه والتمثيل، وهذا تقدَّم الكلام عليه في أول القاعدة.

«لَكِنْ إذَا قَالَ هَؤُلَاءِ : أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ أَوْ أَنَّهَا تَجْرِي عَلَى الْمَعَانِي الظَّاهِرَةِ مِنْهَا كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ هُنَا مَعْنًى وَهُنَاكَ مَعْنًى : فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ كَانَ تَلْبِيسًا» بمعنى الشيخ يؤكد لنا أنَّ هؤلاء وقعوا في التناقض من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

«وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ مُجَرَّدَ اللَّفْظِ أَيْ تَجْرِي عَلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ كَانَ إبْطَالُهُمْ لِلتَّأْوِيلِ أَوْ إثْبَاتُهُ تَنَاقُضًا» إذا قلتم: أنَّ هذا اللفظ لا معنى له يُجرى على ظاهره، فلا يجوز لكم أن تثبتوا التأويل ولا تنفوا التأويل فإذا أثبت غيركم لا يجوز لكم نفي التأويل؛ لأنكم لا تفهمون من المعنى كما قلت لكم مثل الرجل الأعجمي وحالي وحال الشخص الثالث، ما يجوز أن أقول لهذا الشخص: أنك أصبت أو أخطأت؛ لأني لا أفهم هذا الكلام؛ لأني إذا قلت: أخطأت فأنا متناقض، إذن؛ أنا أفهم هذا الكلام؛ لكن كيف أقول له أنا لا أفهم كلام هذا الأعجمي، ثم آتي وأُخطِّؤه في كونه أثبت معنى كلام هذا الرجل؟ هذا تناقض مني.

«كَانَ إبْطَالُهُمْ لِلتَّأْوِيلِ أَوْ إثْبَاتُهُ تَنَاقُضًا لِأَنَّ مَنْ أَثْبَتَ تَأْوِيلًا أَوْ نَفَاهُ فَقَدْ فَهِمَ مَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي» لا يمكن أن تثبت معنى أو تنفه إلا وأنت تفهم هذا الكلام أما إذا كنت لا تفهم هذا الكلام، وهذا هو مذهب المفوضة، فالمفوضة يقولون: نحن نتلو قول الله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ولا نفهم من هذا الكلام شيء، وإذا جاء أهل السنة وقالوا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فيه إثبات صفة اليدين، قالوا: لا ليس هذا هو المراد من اللفظ، ما الذي أعلمكم أنَّ هذا ليس المراد من اللفظ؟ أنتم تقولون: لا نفهم معنى هذا اللفظ، فهمتم كيف التناقض؛ يعني كيف تنكر علي شيء أنت لا تفهم معناه؟!

أيضًا أنكروا على أهل التأويل الباطل قالوا: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ معناه تأويله لما خلقت بقدرتي، قالوا لهم: لا كلامكم باطل! قالوا: أنتم المفوضة كلامكم الباطل؛ وإن كنا نعتقد أنَّ كلام المؤولة هذا باطل؛ لكن كلامكم أشد بطلان لماذا؟

قلنا: لماذا تنكرون عليهم وأنتم لا تفهمون الكلام؟ أنتم تقولون: لا نفهم لهذا الكلام معنى؛ معناه الله أعلم بمراده نُجري اللفظ على ظاهره، حتى نقول لهم: لا يجوز لكم تقولون نُجري اللفظ على ظاهره ولا على غير ظاهره؛ لأنكم لا تفهمون منه شيء، ولهذا الشيخ يقول: «كَانَ إبْطَالُهُمْ لِلتَّأْوِيلِ أَوْ إثْبَاتُهُ تَنَاقُضًا» إن أثبتم أو نفيتم فأنتم متناقضون لماذا؟ لأنكم تقولون: أنَّ هذا الكلام لا يُفهم منه شيء، لا نفهم معناه، يقول: لأن من أثبت تأويلًا أو نفاه فقد فهم منه معنى من المعاني، أنت إذا أثبت أو نفيت فدليل على أنك تفهم هذا الكلام.

«وَبِهَذَا التَّقْسِيمِ يَتَبَيَّنُ تَنَاقُضُ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ نفاة الصِّفَاتِ وَمُثْبِتِيهَا فِي هَذَا الْبَابِ» إذًا الشيخ يقول: هذا التقسيم للتأويل

وهذا التقسيم للإحكام والتشابه يتضح مدى التناقض الذي وقع فيه كل من المعطلة والمشبهة والمفوَّضة، وبهذا انتهى من القاعدة الخامسة وانتقل -رحمه الله- إلى القاعدة السادسة.

القاعدة السادسة

القاعدة السادسة تدور حول الضابط المنضبط الذي يمكن أن نُفرِّق به بين ما يجب لله عزَّ وجل وما لا يجوز عليه، الضابط الذي به نعرف الطرق الصحيحة في النفي والإثبات، وبها يتبين الطرق الباطلة في النفي والإثبات.

«الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ أَنَّهُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ» ولهذا قلت لكم: في أول الكلام على هذه الرسالة هذه الرسالة ليست مجرد إثبات توحيد الأسماء والصفات لا، فالشيخ أراد أن يبيِّن هذا النوع من أنواع التوحيد؛ لكن وضع لنا في هذه الرسالة قواعد نسير عليها ونعرف الشيء الذي يجب لله فنثبته له، والشيء الذي لا يجوز عن الله فننفيه عنه سبحانه وتعالى، وأعطانا القواعد التي يمكن أن نتسلَّح بها في الرد على كل مُبطلٍ من مُشبِّه أو مُفوِّض أو مُعطِّل، الآن الشيخ يريد أن يبيِّن لنا من خلال هذه القاعدة الضابط الصحيح الذي نعرف به ما يجب لله وما لا يجوز عليه من صفات النقص سبحانه وتعالى.

«الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ أَنَّهُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: لَا بُدَّ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ ضَابِطٍ يُعْرَفُ بِهِ مَا يَجُوزُ عَلَى اللهِ مِمَّا لَا يَجُوزُ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ» يقول: قد يأتي إنسان ويقول لنا: أعطوني قاعدة أسير عليها أعرف بها وأُفرِّق بين ما يجب إثباته لله وما يجب نفيه عن الله عزَّ وجل، أعطوني قاعدة أتسلح بها وأتحصَّن بها لأعرف النفي الذي يجب أن نُنزِّه الله عز وجلَّ عنه صفات النقص، وأن أعرف كيف أُثبت لله صفات الكمال.

«إِذْ الِاعْتِمَادُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ أَوْ مُطْلَقِ الْإِثْبَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ لَيْسَ بِسَدِيدٍ» الشيخ أعطى نتيجة مسبقة، قال: السائل يسأل يقول: أعطوني قاعدة في النفي والإثبات؛ لأن الاعتماد على مجرد نفي التشبيه الذي هو عمدة المعطلة- المعطلة على اختلاف فرقهم الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والفلاسفة وغيرهم- اعتمدوا في تعطيلهم على مجرد نفي التشبيه.

قابلهم الطائفة الثانية: المُشبِّهة الممثلة الذين اعتمدوا على الإثبات من غير تشبيه، إذًا ما القاعدة السديدة؟

الاعتماد على هاتين الطريقتين اعتماد فاسدٌ، وطريقةٌ فاسدة، ولا توصل إلى الحق ولا تهدي إلى الصواب.

إذًا ما الطريقة الصحيحة؟

سيبين الشيخ أن الاعتماد على (مجرد نفي التشبيه)، أو (مطلق الإثبات من غير تشبيه) ليس بسديد، سيبين تعليل ذلك:

«وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا بَيْنَهُمَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ وَقَدْرٌ مُمَيَّزٌ» هذا هو الذي جعلنا لا نعتمد على مجرد نفي التشبيه أن ننفي عن الله التشبيه فقط، أو الإثبات من غير تشبيه، فلا يمكن أن نعتمد على الإثبات من غير تشبيه؛ لأنه سيأتينا إنسان يقول: إذا كان فقط المقصود من غير تشبيه أو على الوجه اللائق بالله عزَّ وجل؛ أقول: الله يجوع على وجه لا يماثل جوع البشر، والله يفعل كذا على الوجه اللائق به سبحانه، هذا غير سديد كما أنَّ الاعتماد على مجرد نفي التشبيه عن الله عزَّ وجل ليس بسديد، لماذا؟ لأنه ما من شيئين إلا ويشتركان في شيء ويختلفان في شيء؛ بينهما قدر مُميَّز وقدر مشترك، وهذا تقدم الكلام فيه، ولا بد أن نعرف الشيء الذي يشتركان فيه والشيء الذي يختلفان فيه ثم بعد ذلك نحكم.

المحاضرة (٢٦)

تقدّم الكلام في المحاضرة السابقة على أول كلام المؤلف عن القاعدة السادسة وهي من القواعد التي ذكرها في باب الأسماء والصفات في رسالته القيّمة التدمريّة، و ذكر في مطلع هذه القاعدة أنه لا بدّ من ضابطٍ صحيح وقاعدة مُطـّرِدة تتوافق مع الشرع والعقل نعرفُ من خلالها ما يجب لله -عز وجل- وما لا يجوز عليه في باب النفي والإثبات.

وذكرَ أن الاعتماد في هذا الباب على مجرد نفي التشبيه أو مطلق الإثبات من غير تشبيه أن هذا ليس بسديد وليس بصحيح، و ذكرَ التعليل في ذلك؛ قال: وذلك أنه ما من شيئين إلا وبينهما قدْرٌ مشترك وقدْرٌ مُميَّز.

فأنت لا يمكن أن تعتمد على الإثبات من غير تشبيه على الإطلاق؛ ولا على مجرد نفي التشبيه من غير إثبات.

▫الشيخ الآن سيُبيِّن أنّ الاعتماد على مجرّد (نفي التشبيه) غير مفيد وليس بسديد، وليست هذه هي القاعدة الصحيحة التي تتوافق مع الشرع والعقل فيما يتعلق بما يجب أو لا يجوز على الله عز وجل.

ثم قال: «فَالنَّافِي إِنْ اعْتَمَدَ فِيمَا يَنْفِيهِ عَلَى أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ قِيلَ لَهُ : إِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُمَاثِلٌ لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَهَذَا بَاطِلٌ ؛ وَإِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُشَابِهٌ لَهُ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الِاسْمِ لَزِمَك هَذَا فِي سَائِرِ مَا تُثْبِتُهُ»

يقول : «فَالنَّافِي- وهو المُعطِّل - إِنْ اعْتَمَدَ فِيمَا يَنْفِيهِ عَلَى أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ» يعني لو قلنا للأشعري: لماذا تنفي عن الله صفة الغضب أو صفة الرحمة؟ قال : لأنّي لو أثبتُ هذه الصفة لله لشبّهتُ الخالق بالمخلوق، وتقدّم الكلام أنه قال: أنا لا أعرف من الغضب إلا غليان دم القلب ، والرحمة رقّة تعتري القلب، فإذا أثبتُ لله الغضب أو أثبتُ لله الرحمة فقد شبهت الخالق بالمخلوق.

الرد عليه: «قِيلَ لَهُ : إِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُمَاثِلٌ لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَهَذَا بَاطِلٌ» إذا قيل لهذا الأشعري: لماذا لا تُثبِت صفة الرحمة؟ قال: لئلا أقع في التشبيه، قلنا له: تقصد أنّ رحمة الخالق توافق رحمة المخلوق من كل وجه؛ هذا باطل، ولا يقول به عاقل ولا يقول به مسلم.

«وَإِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُشَابِهٌ لَهُ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ- يعني كونك الآن تنفي هذا بناءً على نفي التشبيه عن الله عز وجل؛ لأنك لو أثبَتّهُ لأثبتَ شيئًا من التشبيه؛ لأنه يُشبه من وجه دون وجه، فأردْتَ أنه مماثلٌ له فهذا باطل- أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الِاسْمِ -كون الله والعبد اشتركا في مُسمَّى الرحمة أو مُسمَّى الغضب أو قصدْتَ أنهما يشتركان في المُسمَّى من بعض الوجوه؟ الشيخ يقول: إنْ كنتَ تقول بهذا القول- لَزِمَك هَذَا فِي سَائِرِ مَا تُثْبِتُهُ» ألا تثبت لله العلم؟ ألا تثبت لله القدرة؟ ألا تثبت لله الحياة؟ إنْ كان التشبيه هو الاشتراك في الاسم، فعلم الخالق وعلم المخلوق يشتركان في الاسم، فلماذا أثبَتَّ هذا ونفيتَ ذاك؟ وإنْ قلتَ: التشابه في بعض الوجوه ؛ العلم ضدّ الجهل. قلنا: وهذا أيضا لازم لك في العلم والقدرة والإرادة ؛ في هذه الصفات التي تثبتها، فلماذا أثبتَ هنا ونفيتَ هناك. هذا أيضا تقدّم الكلام عليه.

«وَأَنْتُمْ إنَّمَا أَقَمْتُمْ الدَّلِيلَ عَلَى إبْطَالِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمَاثُلِ الَّذِي فَسَّرْتُمُوهُ» يقول: أنتم أقمتم الدليل على إبطال التشبيه والتمثيل عن الله عز وجل الذي فسّرتموه، ما هو تفسيركم للتشبيه والتمثيل المنفي؟

قال: التشبيه عندهم:

«بِأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَى أَحَدِهِمَا مَا يَجُوزُ عَلَى الْآخَرِ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ وَيَجِبُ لَهُ مَا يَجِبُ لَهُ» هذا هو التمثيل الذي فرُّوا منه؛ ولا شك أنّ هذا الضابط ليس بصحيح.

«وَمَعْلُومٌ أَنَّ إثْبَاتَ التَّشْبِيهِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ مِمَّا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ يَتَصَوَّرُ مَا يَقُولُ ؛ فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ امْتِنَاعُهُ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ هَذَا نَفْيُ التَّشَابُهِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، كَمَا فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْمُتَوَاطِئَةِ» كوني أنفي هذا الشيء لا يلزم منه أن أنفي التشابه من بعض الوجوه؛ فلا بدّ أنْ يكون هناك تشابه من بعض الوجوه، كما في الأسماء والصفات المتواطئة، فالاسم المتواطئ: هو ما اتفق لفظه ومعناه العام، مثل: إنسان، حيوان، مُطلق الوجود، مطلق الحياة كل هذه متواطئة، هذه لا بدّ أن يكون فيه اتفاق من وجه واختلاف من وجه آخر، اتفاق الاسم واختلاف الحقيقة، اتفاق في المعنى العام.

الوجود ضد العدم؛ هذا يَصْدُق على الله ويصدق على المخلوق، الحياة ضد الموت ؛ يصدق على الله ويصدق على المخلوق، إذن فيه

تشابه، العلم ضد الجهل؛ هذا يشترك فيه الخالق ويشترك فيه المخلوق.

«وَلَكِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ التَّشْبِيهَ مُفَسَّرًا بِمَعْنَى مِنْ الْمَعَانِي ثُمَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَالُوا : إنَّهُ مُشَبِّهٌ وَمُنَازِعُهُمْ يَقُولُ : ذَلِكَ الْمَعْنَى لَيْسَ مِنْ التَّشْبِيهِ» وهذا تقدّم الكلام عليه أيضًا، يقول: من الناس من يُقرِّر التشبيه ويجعله مفسرًا بمعنى من المعاني؛ فكلّ من أثبت هذا المعنى ألصَقَ به هذه التهمة؛ أنه مُشبِّه.

مثال ذلك: عموم المُعطِلة قالوا: من أثبتَ لله العُلوّ فقد زعمَ أنه جسم، والأجسام متماثلة وهذا هو التشبيه، ولهذا عندهم من أثبت لله العلوّ فهو مُشبِّه. إذن فسّر التشبيه هنا بمعنى هو الذي ذكرهُ، كيف؟ قال: من أثبت العلو لله فقد زعمَ أنه جسم، والأجسام متماثلة وبناءً عليه من أثبت لله العلو فهو مُشبِّه.

«وَقَدْ يُفَرَّقُ بَيْنَ لَفْظِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ» فبينهما عموم وخصوص؛ ولهذا لاحظوا: المَنفي عن الله عز وجل في كتابه: التمثيل وليس التشبيه؛ لماذا؟ الله عز وجل قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لم يقل: (ليس كشبهه شيء)، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ وهذا لعلّه يُشير إليه الشيخ لم ينف التشبيه؛ لأنه ما من شيئين إلا ويشتبهان من وجه ويختلفان من وجه آخر؛ لكن الإشكال في أنْ تجعل هذا الشيء (مثل) هذا الشيء؛ فالله عز وجل نفى عن نفسه المِثل ولم ينف عن نفسه التشبيه، ولهذا الشيخ قال: «وَقَدْ يُفَرَّقُ بَيْنَ لَفْظِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ» لكن على كل حال نحن نأخذ اللفظين كمصطلح أُصطلحَ عليه؛ اِصطلَحَ عليهما هؤلاء المُعطلة، فنتعامل معهما وِفق هذا المصطلح؛ وإلا لو أتينا نُفرِّق وندقّق في اللفظين لَوَجدْنا أن لكلٍّ معنى يختلف عن المعنى الآخر، نعم يتفقان في شيء؛ لكن يختلفان في أشياء.

«وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَنَحْوَهُمْ مِنْ نفاة الصِّفَاتِ يَقُولُونَ: كُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ صِفَةً قَدِيمَةً فَهُوَ مُشَبِّهٌ مُمَثِّلٌ» هذه قاعدة عندهم؛ لاحظوا كيف فسّروا التشبيه ثم كلّ مَنْ أثبتَ هذا المعنى جعلوه مُشبِّها.

الشيخ يريد أن يُمثل للكلام السابق: «وَلَكِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ التَّشْبِيهَ مُفَسَّرًا بِمَعْنَى مِنْ الْمَعَانِي ثُمَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَالُوا: إنَّهُ مُشَبِّهٌ» هؤلاء المعتزلة زعموا أنَّ من أثبت لله صفة قديمة فهو مُشبّه مُمثل؛ فمن قال: إن لله (علمًا قديمًا) أو (قدرةً قديمةً) كان عندهم مُشبّهًا مُمثِلا، لماذا؟ كيف وصلوا إلى هذه القاعدة؟

«لِأَنَّ الْقَدِيمَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ هُوَ (أَخَصُّ) وَصْفِ الْإِلَهِ فَمَنْ أَثْبَتَ لَهُ صِفَةً قَدِيمَةً فَقَدْ أَثْبَتَ لِلَّهِ مَثَلًا قَدِيمًا وَيُسَمُّونَهُ مُمَثَّلًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ» أخصّ صفة عند المعتزلة ومن حذا حذوهم القِدَم؛ أنَّ اللهَ قديم، علمًا أنَّ هذا اللفظ أيضًا ليس من صفات الله عز وجل؛ لكن لا بأس أن يُستخدَم من باب الإخبار عن الله، وإلا اللفظ الشرعي الذي أضافه اللهُ عز وجل لنفسه والذي لا يدلّ إلا على الكمال المُطلق هو صفة الأوّليّة، قال الله عز وجل: ﴿هو الأوّلُ والآخر﴾ و فسَّر ذلك أعلمُ الخلق بربه النبي- صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح مسلم: (اللّهُمَّ إني أسألُك أنتَ الأوّل فليس قبلك شيء) ولهذا دِلالة الأوّل تدلّ على معنى لا يدل عليها لفظ القديم؛ لأن القديم لا يُسمَّى قديمًا إلا إذا وُجِدَ الجديد؛ لكن الله هو الأوّل وُجدَت المخلوقات أو لم توجَد، وعلى كل حال فيُطلق على الله عز وجل من باب الإخبار ومن باب التنزُّه.

فالمعتزلة جعلوا أخصّ أوصاف الله القِدَم؛ أخص صفة يتميّز بها اللهُ عز وجل؛ ولهذا عندهم من أثبتَ لله صفة قديمة فقد جعل لله مثيلًا في هذه الصفة، وبناءً عليه كل من أثبت لله صفة فهو مُمثل ومشبِّه عند المعتزلة، فأهل السنة مُمثلة ومشبهة عند المعتزلة، والأشاعرة مشبهة ومُمثلة؛ لأنهم يثبتون العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام.

لكن أهل السنّة يخالفونهم في كلا المُقدِّمَتين.

الشيخ سيرد على المعتزلة ومن سَلَك سبيلهم:

«وَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ -سواءٌ أهل السنة أو من شاركهم من الأشاعرة فيما أثبتوه من الصفات السبع - لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى هَذَا» على

أنَّ كل من أثبت لله صفة فهو مُشبِّه بناءً على أن أخص صفة عندهم هي القِدَم.

يردّ عليهم يقول: «بَلْ يَقُولُونَ : أَخَصُّ وَصْفِهِ مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ غَيْرُهُ» إذن أنتم معاشر المعتزلة سمّيتم كلّ من أثبت لله صفة أنه مشبّه بناءً على أن أخصّ صفة عندكم هي القِدَم، ومثبتة الصفات من أهل السنة والأشاعرة لا يوافقونكم على ذلك، فأهل السنة يقولون: من قال لكم أن أخص صفة لله هي القِدَم! بل أخصُّ صفة لله هي ما لا يتصفّ بها غيره.

القِدَم يتصف بها الله وغير الله، الله -عز وجل- ماذا قال عن العُرْجُون: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ، ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ إنما أخصُّ صفة لله ما لا يتصف بها غيره.

يمثل الشيخ: «مِثْلُ كَوْنِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَالصِّفَةُ لَا تُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ» الشيخ ردّ عليهم من الباب الذي دخلوا منه ؛ قال لهم:

أولا: نأخذ المقدمة الأولى؛ أخص صفات الله عز وجل عندكم القِدَم؟ ليس بصحيح؛ إنَّما أخص صفات الله عز وجل هي الصفة التي لا يُشاركه فيها غيره؛ مثل: كونه رب العالمين، إله واحد، بكل شيء عليم، على كل شيء قدير، هذا هو الشيء الذي لا يشاركه فيه أحد.

وإذا أثبتنا لله صفة هل الصفة هذه تتصف بهذه الصفات: أنها ربُّ العالمين، أنها على كل شيء قدير، أنها إله واحد؟

لا تتصف بهذه المعاني، إذن لا يلزم من إثبات الصفة أنْ نثبت لله شركاء كما زعمتم.

«ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الصفاتية - المثبتة للصفات- مَنْ لَا يَقُولُ فِي الصِّفَاتِ إِنَّهَا قَدِيمَةٌ» هذا احتراز، يقول: الآن المعتزلة اعترضوا على مثبتة الصفات من أهل السنة وغيرهم، أنكم إذا أثبتم لله صفة فقد أثبتم مع الله قدماء.

الشيخ يقول: أنَّ من مثبتة الصفات من لا يقول في صفات الله -عز وجل- إنها قديمة، لماذا؟

احترازًا مِنْ أنْ يُشعِرَ اللفظ أنَّ للصفة وجودًا مستقلًا عن الموصوف، ولئلا يَفهم السامع أنَّ الصفة شيء والموصوف شيء آخر، أنّ الصفة لها استقلال، والموصوف مستقل تمامًا.

«بَلْ يَقُولُ : الرَّبُّ بِصِفَاتِهِ قَدِيمٌ» لئلا يقع في هذا اللبس، لا يقول لك: الصفة قديمة والربّ قديم لا، بل يقول: الربّ بصفاته قديم، اللهُ بصفاته هو الأوّل؛ لئلا يتبادر إلى ذهن السامع أنّ الصفة شيء والموصوف اللهُ عز وجل شيء آخر.

«ولا يقول: هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ» إذن لا يقول: الصفة قديمة، ولا يقول هو وصفاته قديمان، لماذا؟

لأنّ التثنية تشعِر باستقلال كل منهما عن الآخر؛ الصفة عن الموصوف والموصوف عن الصفة، فهذا التعبير يُشعِر بالإثنينيّة، ويُشعِر بالاستقلالية وتعدّد القدماء، فكأن المسألة لفظيّة أكثر منها حقيقة، هو يريد أن يحترز في اللفظ.

يقول: لا أقول إن الصفات قديمة، ولا أقول: إن الله وصفاته قديمان، بل أقول: الله بصفاته قديم.

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ قَدِيمٌ وَصِفَتُهُ قَدِيمَةٌ، وَلَا يَقُول : هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ» احترازًا أيضًا من خشية الإشعار بالتعدد كأنّ اللفظ لما يقول: الله وصفاته قديمان كأنّ اللفظ يُشعِر أنّ هناك أكثر من قديم، فيقول: أنا أقول: هو وصفته قديمة .

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ؛ وَلَكِنْ يَقُولُ: ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي مُشَارَكَةَ الصِّفَةِ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ فَإِنَّ الْقِدَمَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ» القِدَم ليس من خصائص ذات الله -عز وجل- المُجرّدة عن الصفات؛ لأنَّ الذات لا يمكن أن توجَد بلا صفات، لا يمكن أن يتصوّر وجود ذات لها كيان قائمة بنفسها مجرّدة عن الصفات.

«وَإِلَّا فَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَا وُجُودَ لَهَا عِنْدَهُمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَخْتَصَّ بِالْقِدَمِ»

أنتم الآن يا معاشر المعتزلة تقولون أخص أوصاف الله عز وجل القِدَم لأنكم تصورتم عقلًا -وهذا التصوّر باطل- أنَّ الذات قديمة والصفات شيء آخر، الشيخ يقول: لا يمكن مثبتة الصفات، يقول: لا يمكن أن نتصور وجود ذات بلا صفات فضلًا

عن أن تكون هذه الذات قديمة كما يزعم المعتزلة.

«فَضْلًا عَنْ أَنْ تَخْتَصَّ بِالْقِدَمِ وَقَدْ يَقُولُونَ: الذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَالصِّفَاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَلَيْسَتْ الصِّفَاتُ إِلَهًا وَلَا رَبًّا كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم- مُحْدَثٌ وَصِفَاتُهُ مُحْدَثَةٌ وَلَيْسَتْ صِفَاتُهُ نَبِيًّا»

المحاضرة (٢٧)

لا زال الكلام في القاعدة السادسة في مناقشة ومناظرة المعتزلة حيث جعلوا أخصَّ أوصاف الله عز وجل القدم ولهذا عندهم من أثبت لله صفة قديمة فقد جعلوه مُشبِّهًا ممثِّلًا؛ لأنهم قالوا: يلزم على هذا تعدد القدماء.

«فَإِنَّ الْقِدَمَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ- يعني المعتزلة تبادر إلى ذهنهم أنَّ الذات يمكن أن تكون مجردة وأنها مختصة بالقدم، الشيخ يقول: القدم ليس من خصائص الذات المجردة ؛ لأنَّ العقل لا يمكن أن يتصور وجود ذات مجردة عن الصفات- وَإِلَّا فَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَا وُجُودَ لَهَا عِنْدَهُمْ» أي عند مثبتة الصفات وعند العقلاء، لا يمكن أن يتصور العقل وجود ذات مجردة عن الصفات لها كيانها في الخارج، توجد في الذهن؛ فالذهن يفرض وجود ذات بلا صفات؛ لكن يستحيل أن توجد ذات في الخارج مجردة عن الصفات.

«وَإِلَّا فَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَا وُجُودَ لَهَا عِنْدَهُمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَخْتَصَّ بِالْقِدَمِ وَقَدْ يَقُولُونَ : الذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَالصِّفَاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَلَيْسَتْ الصِّفَاتُ إِلَهًا وَلَا رَبًّا -لأنَّ المعتزلة اعتقدوا أنه إذا أثبت الإنسان الصفات لزم من ذلك تعدد القدماء وتعدد الأرباب- كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مُحْدَثٌ وَصِفَاتُهُ مُحْدَثَةٌ وَلَيْسَتْ صِفَاتُهُ نَبِيًّا» الآن الرسول مُحدث وصفاته مُحدثة؛ ولكن هل يقول عاقل: أنَّ صفات النبي صلى الله عليه وسلم نبيًّه؟

إذًا، إذا قلنا: الله قديم وصفاته قديمة لم يلزم أن تكون الصفات إلهًا كما أنَّ الله عزَّ وجل هو الإله الحق، أيضًا الإنسان حادث وصفاته حادثة هل صفاته إنسان؟ هل يقول قائل عاقل: سمع الإنسان إنسان، وبصر الإنسان إنسان، ويده إنسان؟

«فَهَؤُلَاءِ -أي المعتزلة- إِذَا أَطْلَقُوا عَلَى الصفاتية اسْمَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ : كَانَ هَذَا بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ الَّذِي يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أُولَئِكَ - أي الصفاتية المثبتة للصفات.يقول: هم لا يوافقونهم على أن من أثبت شيئًا من الصفات يكون مُمثلًا أو مُشبِّهًا- ثُمَّ تَقُولُ لَهُمْ: أُولَئِكَ- أي المثبتة للصفات يقولون للمعتزلة - هَبْ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ يُسَمَّى فِي اصْطِلَاحِ بَعْضِ النَّاسِ تَشْبِيهًا- هذا من باب التّنزل مع الخصم، سلّمنا لكم جدلًا أنَّ إثبات هذه الصفات (السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والحياة) أنَّ إثبات هذا يستلزم التشبيه يقول:- فَهَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَنْفِهِ عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ نَفْيُ مَا نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ» يقول: إثبات السمع لله وإثبات البصر وإثبات العلم وإثبات القدرة لله عزَّ وجل لم يدل عليه دليل لا عقلي ولا سمعي على نفيه عن الله عزَّ وجل، فأنتم سميتموه تشبيه أو لم تسموه تشبيهًا هذا لا يغير من الحقيقة شيء، قد يأتي إنسان ويسمِّي الخمر مشروب روحي ويسميه شخص ثالث عصير ويسميه رابع عرق، هل يغير من الحقيقة شيء أنَّ هذا يخامر العقل ويُسكر؟ لا يغير من الحقيقة شيء، فأنتم تُسمُّون إثبات هذه الصفات الثابتة لله عزَّ وجل السمع والعقل تسمونه تشبيهًا لا يضر هذا، وإنَّما أطلقوا هذه الأسماء لينفِّروا الناس من الحق، وهذا هو ديدن أهل الباطل، دائمًا يطلقون ويُلبِّسون على الناس بحيث يسمون الحق بغير اسمه بأسماء تشمئز منها النفوس لينفِّروا الناس عن الحق، فكيف أطلقوا على النبي صلى الله عليه وسلم وسمّوه شاعر وسمّوه كاهن وسمّوه مجنون سمّوه كذاب ،والحقيقة واحدة تبقى أنه هو النبي صلى الله عليه وسلم وأنه أصدق الناس وأنه أعلم الناس ،فهذه الأسماء لا تُغير من الحقيقة شيء.

«وَالْقُرْآنُ قَدْ نَفَى مُسَمَّى الْمِثْلِ وَالْكُفْءِ وَالنِّدِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ» المثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ والكفء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ والند كقوله سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

«وَلَكِنْ يَقُولُونَ الصِّفَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَيْسَتْ مِثْلَ الْمَوْصُوفِ وَلَا كُفُؤَهُ وَلَا نِدَّهُ فَلَا يَدْخُلُ فِي النَّصِّ» بمعنى أنَّ إثبات الصفة لا يلزم منه التمثيل ولا أن نجعل لله كفء ولا أن نجعل لله نِدًّا؛ لأنَّ الصفة في لغة العرب ليست مِثلًا ولا كفء ولا ندًّا للموصوف فإثبات الصفة لا يوقع في المحذور الذي نفاه القرآن المِثل والكفء والند.

«وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَلَمْ يَنْفِ مُسَمَّى التَّشْبِيهِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُعْتَزِلَةِ» العقل لم ينفِ هذا المعنى الذي أثبته المعتزلة أنَّ إثبات الصفات يقتضي التشبيه، فهذا لا دليل من العقل عليه.

إذن من شُبَه نفاة الصفات:

الشُبهة الأولى: **أنَّ إثبات الصفات يستلزم منه تعدد القدماء.**

الشُبهة الثانية: **أنَّ إثبات الصفات يستلزم التجسيم؛ يقول:** «وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَقُولُونَ : إنَّ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إلَّا بِجِسْمِ مُتَحَيِّزٍ وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَوْ قَامَتْ بِهِ - أي بالله عزَّ وجل - الصِّفَاتُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ وَهَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ»

وهذه الشُبهة الثانية يدلي بها نفاة الصفات وهي شبهة التجسيم، يقولون: أنَّ إثبات الصفات يستلزم التجسيم لماذا؟ لأنَّ الصفات لا تقوم إلا بجسم متحيز والأجسام عندهم متماثلة؛ إذًا فلو قامت الصفات به للزم أن يكون مماثلًا لسائر الأجسام وهذا هو التشبيه.

الشبهة مكونة من هذه المقدمات:

المقدمة الأولى: الصفات لا تقوم إلا بجسم متحيز.

المقدمة الثانية: الأجسام متماثلة.

النتيجة: أنه لو قامت لله عزَّ وجل هذه الصفات للزم أن يكون مماثلًا لسائر الأجسام وهذا هو التشبيه.

إذًا ننفي عن الله الصفات لئلا نقع في التشبيه هذا على حد زعم هؤلاء المُعطِّلة.

«وَكَذَلِكَ يَقُولُ: هَذَا كَثِيرٌ مِنْ الصفاتية - هذه الشُبهة يقول بها المعتزلة وشاركهم فيها كثيرٌ من الصفاتية (الأشاعرة) - الَّذِينَ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ وَيَنْفُونَ عُلُوَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَقِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ» الأشاعرة يسمون صفاتية؛ لأنهم يثبتون سبع صفات لله؛ لكنهم ينفون ما عداها من الصفات، مثل العلو مثل قيام الأفعال الاختيارية وهي النزول ، الاستواء، والمجيء ، ونحو ذلك.

«وَيَقُولُونَ : الصِّفَاتُ قَدْ تَقُومُ بِمَا لَيْسَ بِجِسْمِ» وهذا من التناقض الذي وقع فيه هؤلاء، الآن الأشاعرة قالوا: العلو لو أثبتنا لله العلو للزم أن يكون الله جسمًا متحيزًا، والأجسام متماثلة؛ إذًا لا يجوز أن يوصف بالعلو. يقول الشيخ: «وَيَقُولُونَ: - أي الأشاعرة؛ لاحظ التناقض- الصِّفَاتُ قَدْ تَقُومُ بِمَا لَيْسَ بِجِسْمِ» يعني ليست القاعدة مُطرَّدة عندهم، فالعلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر هذه صفات؛ لكن لا تقوم بجسم.

المعتزلة يخالفونهم يقولون: كل الصفات لا تقوم إلا بجسم، وهم يقولون: لا هذه الصفات لا تقوم بجسم؛ لكن العلو لا يقوم إلا بجسم، المجيء لا يقوم إلا بجسم، الوجه لا يقوم إلا بجسم، الرحمة لا تقوم إلا بجسم.

«وَأَمَّا الْعُلُوُّ عَلَى الْعَالَمِ -والعلو هذه الصفة تنفيها الأشاعرة - فَلَا يَصِحُّ إلَّا إذَا كَانَ جِسْمًا فَلَوْ أَثْبَتْنَا عُلُوَّهُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَحِينَئِذٍ فَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَلْزَمُ التَّشْبِيهُ»

يقول: «فَلِهَذَا تَجِدُ هَؤُلَاءِ- الأشاعرة- يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ الْعُلُوَّ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا وَلَا يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ وَنَحْوَهُ

مُشَبِّهًا كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ الْإِرْشَادِ وَأَمْثَالُهُ» هو الجويني رحمه الله وهو من أئمة الأشاعرة.

الأشاعرة يفرقون؛ الذي يثبت ماعدا الصفات السبع عندهم مُجسِّم مُشبِّه؛ لأن هذه الصفات عندهم لا تقوم إلا بجسم، والذي يثبت الصفات السبع ليس مشبه؛ لأنها لا يلزم أن تقوم بجسم.

«وَكَذَلِكَ يُوَافِقُهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ وَالْعُلُوِّ - القاضي أبو يعلى رحمه الله الحنبلي يعتبر من مثبتة الصفات؛ ولا يوافق الأشاعرة في نفي جميع ماعدا الصفات السبع، يقول: قد يوافقهم في القول بتماثل الأجسام بمعنى أنَّ الأجسام متماثلة - لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْعُلُوَّ صِفَةً خَبَرِيَّةً» القاضي أبو يعلى وأمثاله يجعلون صفة العلو من الصفات الخبرية متلقاة فقط عن الخبر من الوحي؛ ولكن جمهور السنة لا ، يقولون العلو من الصفات الخبرية العقلية التي ثبتت بالعقل والخبر، خلاف الاستواء كما ذكرنا لكم سابقًا ، النزول ثبت بالخبر، المجيء ثبت بالخبر أمَّا العلو لا فهو من الصفات العقلية الخبرية، القاضي أبو يعلي ومن معه خالفوا جمهور أهل السنة في هذا الجانب، يقول:- فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي الْوَجْهِ -لأن الوجه أيضًا من الصفات الخبرية- وَقَدْ يَقُولُونَ : أَنَّ مَا يُثْبِتُونَهُ لَا يُنَافِي الْجِسْمَ كَمَا يَقُولُونَهُ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ»

الرد على الجميع :

«وَالْعَاقِلُ إِذَا تَأَمَّلَ وَجَدَ الْأَمْرَ فِيمَا نَفَوْهُ كَالْأَمْرِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ لَا فَرْقَ» يقال للأشاعرة: إذا كان إثبات ماعدا الصفات السبع يلزم منه التجسيم فإثبات الصفات السبع يلزم منه التجسيم لا فرق بين ما أثبتموه ولا بين ما نفيتموه بحجة التجسيم ، فالتجسيم لازمٌ لكم في القسمين، وهذا تناقضٌ بيّنٌ واضح.

«وَأَصْلُ كَلَامِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ عَلَى أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّجْسِيمِ وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ» يعني المعتزلة والأشاعرة ومن حذا حذوهم من المُعطِّلة بنوا كلامهم في (النفي) على أنَّ إثبات الصفات يستلزم التجسيم والأجسام متماثلة، يعني من أثبت لله شيئًا من الصفات فقد زعم أن الله جسمٌ والأجسام كلها متماثلة إذن شبَّه الخالق بالمخلوق.

«وَالْمُثْبِتُونَ يُجِيبُونَ عَنْ هَذَا تَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى» ما هي المقدمة الأولى؟ إثبات الصفات يستلزم التجسيم ،من قال لكم؟ أهل السنة ينازعون النفاة في أنَّ إثبات الصفات يستلزم التجسيم، يقول: لا يسلِّمون لهم ، يقولون: لا يلزم من إثبات الصفات أن يكون الشيء جسم.

«وَتَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الثَّانِيَةِ» وهي أنَّ الأجسام متماثلة، ثم سلَّمنا لكم جدلًا أهل السنة ينازعون في المقدمة الأولى أنَّ الصفات قد تقوم بما ليس بجسم.

ثم هم قالوا: والأجسام متماثلة نقول لهم: ومن قال لكم أن الأجسام متماثلة؟ لا يلزم أن تكون الأجسام متماثلة، العرش جسم والبعوضة جسم، هل يقول قائل: أنَّ العرش مثل البعوضة؟ على خلاف في تحديد أصلًا مفهوم الجسم، مصطلح الجسم هذا محل خلاف بين أهل السنة وبين المتكلمين.

«وَتَارَةً بِمَنْعِ كُلٍّ مِنْ الْمُقَدِّمَتَيْنِ» لا يقول أهل السنة أنَّ الصفات قد تقوم بما ليس بجسم، ولا يلزم من أن تكون الأجسام متماثلة.

«وَتَارَةً بالاستفصال» وهذا هو الغالب؛ يعني التفصيل، ما مرادكم بالجسم؟ أنتم لمّا قلتم: أنَّ الصفات لا تقوم إلا بجسم قبل أن نجيبكم بالنفي أو الإثبات، نقول: أولًا ما مرادكم بالجسم؟ فسروا لنا هذا الجسم؟ الذي تزعمون أنَّ الصفات لا تقوم إلا به، ما هو الجسم؟

«وَلَا رَيْبَ أَنَّ قَوْلَهُمْ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ قَوْلٌ بَاطِلٌ سَوَاءٌ فَسَّرُوا الْجِسْمَ بِمَا يُشَارُ إِلَيْهِ» هذه معاني الأجسام عندهم ، هم المتكلمون

من المعتزلة والأشاعرة ليسوا متفقين على تحديد مفهومٍ واحد ومصطلحٍ واحد للجسم فهم مختلفون في مفهوم الجسم، ولهذا لا نستطيع أن نثبت هذه المقدمة أو أن ننفيها إلا بعد أن نعرف مفهوم الجسم لمن أطلقه؟

«سَوَاءٌ فَسَّرُوا الْجِسْمَ بِمَا يُشَارُ إِلَيْهِ - منهم من يقول: كل ما يُشار إليه يسمى جسم - أَوْ بِالْقَائِمِ بِنَفْسِهِ ومنهم من يقول: الجسم هو الشيء القائم بنفسه الذي لا يحتاج إلى غيره - أَوْ بِالْمَوْجُودِ - وهذا أسوأ؛ أن كل موجود فهو جسم - أَوْ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْهَيُولَى وَالصُّورَةِ- منهم من يقول: الجسم هو المركب من الهيولى والصورة ، والهيولى على وزن فعولى؛ وهو أصل الشيء ومادته وهو جوهر في الجسم قابلٌ لما يعرض من الاتصال والانفصال، إذًا الهيولى المقصود بها المادة التي يُركَّب منها الجسم، فعنده الجسم هو المُركَّب من الهيولى والصورة - وَنَحْوِ ذَلِكَ»

يقول : «فَأَمَّا إذَا فَسَّرُوهُ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ» منهم من يقول: أنَّ الجسم هو المُركَّب من الجواهر المفردة على تعريف أنَّ الجواهر المفردة هي التي لا تقبل التجزؤ لا بالفعل ولا بالقوة، وأيضًا أهل السنة وجمهور العقلاء يخالفون:

أولًا : أنَّ الجسم هو المركب من الجواهر المفردة، ثانيًا : يخالفونهم في أنَّ الجوهر المفرد هو مالا يقبل التجزؤ لا بالفعل ولا بالقوة فسائر العقلاء يقولون أنَّ الجسم يمكن ويقبل التجزؤ إلى أن يتلاشى أو ينتقل إلى مادة أخرى.

أيضًا من تعريفاتهم للجسم أنه مركب من جوهرين فردين فصاعدًا، ومنهم من يقول: هو ما يقبل الأبعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق إلى غيره.

«فَأَمَّا إذَا فَسَّرُوهُ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَعَلَى أَنَّهَا مُتَمَاثِلَةٌ فَهَذَا يُبْنَى عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ» على صحة أنَّ الأجسام فعلًا مركبة من الجواهر المفردة، وأنَّ الجواهر المفردة هذه موجودة وهي التي لا تقبل التجزؤ ولا الانقسام، هذا يخالفهم فيه جمهور العقلاء.

«وَعَلَى إثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ -كما ذكرت - وَعَلَى أَنَّهُ مُتَمَاثِلٌ - أيضا أهل السنة وجمهور العقلاء لا يوافقون على افتراض وجود الجواهر المفردة وعلى أنها متماثلة إذا وجدت- وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ يُخَالِفُونَهُمْ فِي ذَلِكَ».

المحاضرة (٢٨)

لا زال الكلام في القاعدة السادسة في الضابط الذي يُعرف به ما يُثبت لله وما ينفى عنه، وتقدم الكلام في الحلقة السابقة الكلام على مسألة تماثل الأجسام، والشيخ بيَّن أنَّ إطلاق التشبيه على مثبتة الصفات من قبل المعطلة بناءً على أنَّ إثبات الصفات يستلزم التجسيم والأجسام متماثلة وأنَّ أهل الإثبات وأهل السنة وعموم العقلاء يخالفونهم في هاتين المقدمتين.

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ التَّشْبِيهَ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ تَجْسِيمًا -بمعنى أنَّ كل موجود فهو جسم أو كل موصوف فهو جسم- بِنَاءً عَلَى تَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَالْمُثْبِتُونَ يُنَازِعُونَهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ ؛ كَإِطْلَاقِ الرَّافِضَةِ النَّصْبَ عَلَى مَنْ تَوَلَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -الرافضة يطلقون على كل من تولى الخليفتين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ومن أحبهما وصف النّصب بأنه نصب العداء لعلي، بناءً على ماذا؟ - بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَهُوَ ناصبي وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُنَازِعُونَهُمْ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى - يُسلِّمون لهم في المقدمة الثانية أن من أبغض علي أو أيًّا من الصحابة فهو ناصبي بلا شك؛ ولكن المقدمة الأولى لا يسلَّم لهم أنَّ من أحبهما فقد أبغض عليًّا ،بل أهل السنة وجمهور المسلمين يحبون الخليفتين ويحبون عليًّا رضي الله عنه؛ فلا يلزم من محبتهما بغض علي رضي الله عنه- وَلِهَذَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ- أي المعطلة - إنَّ الشَّيْئَيْنِ لَا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَخْتَلِفَانِ مِنْ وَجْهٍ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ» بمعنى أنَّ المعطلة يزعمون أنه يستحيل أنَّ الشيئين لا يشتبهان من وجه ويختلفان من وجه، الشيخ يقول: أكثر العقلاء على خلاف ما ذهب إليه

هؤلاء.

«وَبَيَّنَّا فِيهِ حُجَجَ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَحُجَجَ مَنْ نَفَى ذَلِكَ وَبَيَّنَّا فَسَادَ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِهَا» وهذا كما ذكره مبسوطًا في كتابه (درء تعارض العقل والنقل ونقض التأسيس).

«وَأَيْضًا فَالِاعْتِمَادُ بِهَذَا الطَّرِيقِ- أي أنَّ الصفات مستلزمة للتجسيم- عَلَى نَفْيِ التَّشْبِيهِ اعْتِمَادٌ بَاطِلٌ- الاعتماد على هذه الطريقة أنَّ إثبات الصفات يستلزم التجسيم على نفي التشبيه عن الله عزَّ وجل اعتمادٌ باطل- وَذَلِكَ أَنَّهُ إذَا أَثْبَتَ تَمَاثُلَ الْأَجْسَامِ -وكما ذكر الشيخ أهل السنة والمثبتة وجمهور العقلاء لا يوافقونهم على أنَّ الأجسام متماثلة- فَهُمْ لَا يَنْفُونَ ذَلِكَ -أي نفي التشبيه- لَا يَنْفُونَ ذَلِكَ إلَّا بِالْحُجَّةِ الَّتِي يَنْفُونَ بِهَا الْجِسْمَ -أي أنَّ الله ليس بجسم- وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ الْجِسْمَ وَثَبَتَ امْتِنَاعُ الْجِسْمِ : كَانَ هَذَا وَحْدَهُ كَافِيًا فِي نَفْيِ ذَلِكَ» الشيخ كأنه يقول: إذا أردتم أن تنفوا عن الله عزَّ وجل التشبيه فلا حاجة لهذا التطويل فانفوا عنه التجسيم، وقولوا: أنَّ الله ليس بجسم؛ لأجل يكون النقاش معكم في هذه المسألة مباشرة، ويقول: أرادوا أن يصلوا إلى نتيجة لكن بعيدة، فيقول: اختصروا الطريقة وقولوا: أنَّ الله ليس بجسم وهذا كافي في نفي التشبيه على حد زعمكم.

«كَانَ هَذَا وَحْدَهُ كَافِيًا فِي نَفْيِ ذَلِكَ -أي نفي الصفات عن الله عزَّ وجل- لَا يَحْتَاجُ نَفْيُ ذَلِكَ إلَى نَفْيِ مُسَمَّى التَّشْبِيهِ لَكِنَّ نَفْيَ التَّجْسِيمِ يَكُونُ مَبْنِيًّا عَلَى نَفْيِ هَذَا التَّشْبِيهِ - بمعنى أنكم إذا نفيتم عن الله أنه ليس بجسم بناءً على نفي التشبيه عندكم- بِأَنْ يُقَالَ : لَوْ ثَبَتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا لَكَانَ جِسْمًا ؛ ثُمَّ يُقَالُ : وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَجِبُ اشْتِرَاكُهَا فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ . لَكِنْ حِينَئِذٍ يَكُونُ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ مُعْتَمِدًا فِي نَفْيِ التَّشْبِيهِ عَلَى نَفْيِ التَّجْسِيمِ ؛ فَيَكُونُ أَصْلُ نَفْيِهِ نَفْيَ الْجِسْمِ وَهَذَا مَسْلَكٌ آخَرُ سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ» وهذا سيأتي في صفحة تقريبًا ١٣٢ لمن معه النسخة المحققة.

الشاهد: أنه يقول هذا تطويلٌ لا حاجة له، كان الأصل أو المفترض أن تختصروا الكلام في هذه المسألة ويكون أيضًا الرد على قولكم هذا واضحٌ وبيّن؛ لكن هذا أصلًا ديدن المُعطِّلة وأهل البدع على وجه العموم، أحيانًا يسلكون هذه المسالك الطويلة والوعرة؛ لأجل أن يُلبِّسوا على عامة الناس فيغتر جهلة الناس بما معهم من هذا الكلام المزخرف الطويل.

«وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِمَادِ فِي نَفْيِ مَا يُنْفَى عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَا يُفِيدُ إذْ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إلَّا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ -الشيخ عاد رحمه الله إلى أصل القاعدة أنَّ الاعتماد في هذا الباب على مجرد نفي التشبيه لا يفيد؛ لأنَّ الشيخ كما ذكر أنه ما من شيئين إلا ويشتبهان من وجه ويختلفان من وجه آخر، - بِخِلَافِ الِاعْتِمَادِ عَلَى نَفْيِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ» هذه هي الطريقة العقلية الصحيحة في ما يجب نفيه عن الله عزَّ وجل وهو الاعتماد على نفي النقص والعيب مع إثبات الكمال لله عزَّ وجل، وهذه الطريقة التي تتوافق مع العقول السليمة أن ننفي عن الله عزَّ وجل صفات النقص والعيب مع إثبات صفات الكمال له سبحانه وتعالى.

«وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ سُبْحَانَهُ مُقَدَّسٌ عَنْهُ فَإِنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ صَحِيحَةٌ وَكَذَلِكَ إذَا أَثْبَتَ لَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَفَى مُمَاثَلَةَ غَيْرِهِ لَهُ فِيهَا فَإِنَّ هَذَا نَفْيُ الْمُمَاثَلَةِ فِيمَا هُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ سبحانه وتعالى» بمعنى أن تُثبت له صفات الكمال ويُنفى عنه أن يماثله غيره في هذه الصفات سبحانه وتعالى.

«وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ : وَهُوَ أَنْ لَا يَشْرَكَهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ - نعم حقيقة التوحيد أن تثبت أنَّ الله واحد في أسمائه وصفاته لا يشاركه فيها غيره وبهذا تكون وحدَّت الله، أفردت الله سبحانه وتعالى في هذا الجانب في توحيده في أسمائه وصفاته هذه حقيقة التوحيد أن تجعل الله عز وجل واحدًا في أسمائه ،واحدًا في كماله ،واحدًا في صفاته -وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا عَلَى وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُهُ فِيهِ أَحَدٌ، كل صفة السمع البصر الحياة هذه صفات كمال تُثبت لله على الوجه

الذي لا يماثله فيها أحدٌ من خلقه- وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إثْبَاتُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ الصِّفَاتِ وَنَفْيُ مُمَاثَلَتِهِ بِشَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ» إذًا الطريقة الصحيحة نفي النقص والعيب مما هو مُتقدِّس عنه سبحانه وتعالى ونفي المثل والكُفء في صفات الكمال هذه هي الطريقة العقلية الصحيحة أن تنفي عن الله عز وجل صفات النقص والعيب وأن تنفي عن الله عز وجل المماثلة في صفات الكمال ، فإذا أثبت له صفة كمال تنفي أن يكون مماثلًا لشيء من خلقه سبحانه وتعالى.

الشيخ يفترض لهؤلاء اعتراف:

«فَإِنْ قِيلَ إنَّ الشَّيْءَ إذَا شَابَهَ غَيْرَهُ مِنْ وَجْهٍ جَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَوَجَبَ لَهُ مَا وَجَبَ لَهُ وَامْتَنَعَ عَلَيْهِ مَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ» أنَّ الشيء إذا شابه غيره من وجه جاز عليه ما يجوز عليه من ذلك الوجه ووجب عليه ما وجب عليه من ذلك الوجه وامتنع عليه ما امتنع عليه من ذلك الوجه، يقول: ألستم تقولون معاشر أهل السنة: أنَّه ما من شيئين إلا ويشتبهان من وجه ويختلفان من وجه؟ قلنا: نعم، قال: إذًا الشيء إذا شابه غيره من وجه هذا الوجه الذي أثبتم فيه القدر المشترك من التشابه جاز عليه ما يجوز عليه ووجب له ما يجب له وامتنع عليه ما امتنع عليه.

الجواب: «قِيلَ هَبْ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ -يعني افترض أنَّه فعلًا إذا أثبت أنَّ الشيئين إذا اشتبها في شيء جاز على أحدهما ما يجوز على الآخر - وَلَكِنْ إذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ- يعني هذا الشيء الذي اشتركا فيه- لَا يَسْتَلْزِمُ إثْبَاتَ مَا يَمْتَنِعُ عَلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَلَا نَفْيُ مَا يَسْتَحِقُّهُ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعًا» يقول: افترض أنهما إذا اشتبها في هذا القدر جاز عليهما ما جاز إلى آخره فإذا كان هذا الأمر لا يستلزم إثبات ما يمتنع على الرب سبحانه وتعالى ولا يستلزم نفي ما يستحقه من صفات الكمال فليس هذا بممتنع، أين الإشكال في هذا؟ المهم أن لا تثبت لله شيء يمتنع أن يكون متصفًا به، أو تثبت له شيء يماثله من صفات المخلوقات، كما ذكر الشيخ في الطريقة العقلية الصحيحة.

«كَمَا إذَا قِيلَ : إنَّهُ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَقَدْ سُمِّيَ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ حَيًّا سَمِيعًا عَلِيمًا بَصِيرًا فَإِذَا قِيلَ : يَلْزَمُ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَوْجُودًا حَيًّا عَلِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا قِيلَ : لَازِمُ هَذَا الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ» يقول: الله عزَّ وجل سمَّى نفسه بهذه الأسماء حي عليم سميع موجود وسمَّى بعض العباد بهذه الأسماء إذًا فيه قدر مشترك- قِيلَ : لَازِمُ هَذَا الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ لَيْسَ مُمْتَنِعًا عَلَى الرَّبِّ تَعَالَى فَإِنَّ ذَلِكَ- القدر المشترك- لَا يَقْتَضِي حُدُوثًا وَلَا إمْكَانًا وَلَا نَقْصًا وَلَا شَيْئًا مِمَّا يُنَافِي صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ» يعني الاشتراك في المُسمَّى العام؛ مسمى الوجود مسمى السمع ومسمى البصر لا يقتضي أن يُثبت لله سبحانه وتعالى أنه حادث كما هو ثابت للمخلوق، أو أن يكون الله عزَّ وجل ممكن كما هو ثابت للمخلوق، أو إثبات نقص لله عزَّ وجل كما هو ثابت للمخلوق، قال الشيخ: ولا شيء مما ينافي صفات الربوبية.

ثم ضرب مثالًا على ذلك بلفظ (الوجود) ،الآن الشيخ يريد أن يُمثِّل لنا بلفظ الوجود:

«وَذَلِكَ أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ - ما هو القدر المشترك؟ - هُوَ مُسَمَّى الْوُجُودِ أَوْ الْمَوْجُودُ أَوْ الْحَيَاةُ أَوْ الْحَيُّ -الآن يأتي الشيخ بالاسم والصفة- أَوْ الْعِلْمُ أَوْ الْعَلِيمُ أَوْ السَّمْعُ أَوْ الْبَصَرُ أَوْ السَّمِيعُ أَوْ الْبَصِيرُ أَوْ الْقُدْرَةُ أَوْ الْقَدِيرُ وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ مُطْلَقٌ كُلِّيٌّ -أي مطلق عام؛ القدر المشترك مطلق القدرة؛ عموم القدرة عموم السمع وعموم البصر وهذا يصدق على الخالق والمخلوق- لَا يَخْتَصُّ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ - يعني إذا قلنا عموم القدرة الآن لم نخصصها بقدرة الخالق ولا بقدرة المخلوق ،عموم الوجود الذي يشترك فيه الخالق والمخلوق والوجود ضد العدم هذا لا يختص بالخالق ولا بالمخلوق، - فَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ» يعني إذا قلنا: الوجود المطلق أو الحياة المطلقة؛ هل يلزم من هذا أن يقع بينهما اشتراك فيما يختص بالمخلوق أو فيما يختص بالخالق؟ لا يلزم.

ولهذا قال الشيخ: «فَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ لَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ -الذي هو المخلوق- وَلَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْوَاجِبِ الْقَدِيمِ - الذي هو الله سبحانه وتعالى- فَإِنَّ مَا يَخْتَصُّ بِهِ أَحَدُهُمَا يَمْتَنِعُ اشْتِرَاكُهُمَا فِيهِ» إذا خصصنا بالوجود؛ فإذا أضفناه

للمخلوق فقد ميزنا وجود الخالق عن وجود المخلوق؛ وليس هناك أي مشاركة أو تشابه، كما أننا إذا أضفنا السمع إلى الخالق فقد ميزنا هذا السمع أنه السمع الخاص بالله عزَّ وجل لا يشاركه ولا يماثله فيه سمع المخلوق.

«فَإِذَا كَانَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي اشْتَرَكَا فِيهِ صِفَةَ كَمَالٍ» القدر المشترك (القدر العام) يعتبر صفة كمال، الوجود أليس صفة كمال؟ وضده العدم صفة نقص، الحياة أليست صفة كمال؟ القدرة أليست صفة كمال؟ إذًا مطلق القدرة ومطلق الوجود ومطلق الحياة ومطلق السمع ومطلق البصر الذي هو القدر المشترك الذي تشترك فيه كل الموجودات هي بغض النظر عن المُتصِّف بها هي صفة كمال، فعندنا قاعدة أنَّ الموجود أكمل من المعدوم والحيّ أكمل من الميت والسميع أكمل من الأصم.

«فَإِذَا كَانَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي اشْتَرَكَا فِيهِ صِفَةَ كَمَالٍ كَالْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ -هذه صفات كمال على وجه العموم ولا يلحقها شيءٌ من النقص إلا إذا أضيفت إلى المخلوق، إذا أضفنا السمع للمخلوق عرفنا أنَّ هذا السمع ناقص، إذا أضفنا القدرة للمخلوق قلنا: قدرة المخلوق عرفنا أنَّ القدرة ليست كاملة، لكن مطلق القدرة هي صفة كمال -وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ كَمَا لَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِ الْخَالِقِ -يعني الكمال المطلق والعلم المطلق والقدرة المطلقة هذه لا تدل لا على شيء من خصائص المخلوق ولا على شيء من خصائص الخالق- لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ هَذَا -أي القدر المشترك الذي يشترك فيه الخالق والمخلوق مطلق العلم ومطلق القدرة ومطلق السمع -مَحْذُورٌ أَصْلًا؛ بَلْ إِثْبَاتُ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْوُجُودِ» يعني القدر المشترك من لوازم إثبات الوجود؛ لأن نفي القدر المشترك يستلزم التعطيل التام التعطيل الكامل وتعطيل كل موجود.

«فَكُلُّ مَوْجُودَيْنِ لَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مَنْ مِثْلِ هَذَا -أي القدر المشترك الذي يشتركان فيه- وَمَنْ نَفْيِ هَذَا -أي القدر المشترك- لَزِمَهُ تَعْطِيلُ وُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ» هذه هي النتيجة النهائية، يلزم من نفي القدر المشترك نفي وجود كل موجود.

«وَلِهَذَا لَمَّا اطَّلَعَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ هَذَا -أي نفي القدر المشترك المستلزم للتعطيل التام- حَقِيقَةُ قَوْلِ الجهمية سَمَّوهُمْ مُعَطِّلَةً وَكَانَ جَهْمٌ يُنْكِرُ أَنْ يُسَمَّى اللهُ شَيْئًا وَرُبَّمَا قَالَتْ الجهمية: هُوَ شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ -الله عز وجل يُخبِر عنه أنه شيء ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فالله عزَّ وجل أثبت أنه شيء فأخبر عن نفسه أنه شيء؛ والجهمية نفوا أن يكون الله شيء وهذا غاية التعطيل فأقل ما يُثبت للشيء أن يُثبت أنه شيء، فالجهم بن صفوان نفي أن يسمى الله عز وجل أنه شيء أو أن يقال عنه أنه شيء- فَإِذَا نَفَى الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ مُطْلَقًا لَزِمَ التَّعْطِيلُ الْتام»

«وَالْمَعَانِي الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الرَّبُّ تَعَالَى كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ بَلْ الْوُجُودُ وَالثُّبُوتُ وَالْحَقِيقَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ: تَجِبُ له لَوَازِمهَا -يعني إذا أثبتنا لله الوجود والعلم والقدرة يجب أن تُثبت له لوازم هذه الصفات، وما لوازم هذه الصفات؟ لوازمها كمال العلم كمال الحياة كمال القدرة، يعني إذا أثبتنا لله هذه الصفات أثبتنا له لوازمها، يلزم أن نثبت لازم هذه الصفة؛ لازم هذه الصفة المستحق الرب سبحانه وتعالى لها هي الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه- فَإِنَّ ثُبُوتَ الْمَلْزُومِ يَقْتَضِي ثُبُوتَ اللَّازِمِ ، وَخَصَائِصُ الْمَخْلُوقِ الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَصْلًا -يعني صفات النقص المستلزمة لصفة المخلوق ليست من لوازم صفة الكمال التي أُثبتت لله عزَّ وجل ، فالقدرة الثابتة لله سبحانه وتعالى مختلفة عن القدرة الثابتة للمخلوق- بَلْ تِلْكَ مِنْ لَوَازِمِ مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِ مِنْ وُجُودٍ وَحَيَاةٍ وَعِلْمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ وَمَلْزُومَاتِ خَصَائِصِهِمْ» يعني لوازم صفات الله عزَّ وجل التي هي كمال العلم وكمال القدرة وكمال الحياة هذه من لوازم إثبات هذه الصفة وليس من لوازمها ما يختص بالمخلوق؛ لأجل أن يقال أنكم إذا أثبتم لله هذه الصفات لزم أن تُشبِّهوا الخالق بالمخلوق، لا، من قال لكم؟! نشبه الخالق بالمخلوق لو أثبتنا لله عزَّ وجل لوازم صفات المخلوق ولكن نحن نثبت لله صفات الكمال ولوازم هذه الصفات.

«وَهَذَا الْمَوْضِعُ مَنْ فَهِمَهُ فَهْمًا جَيِّدًا وَتَدَبَّرَهُ : زَالَتْ عَنْهُ عَامَّةُ الشُّبُهَاتِ وَانْكَشَفَ لَهُ غَلَطُ كَثِيرٍ مِنْ الْأَذْكِيَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ

وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَبُيِّنَ فِيهَا أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيَّ لَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا مُقَيَّدًا» وهذا تقدم الكلام عليه، أنَّ الوجود المطلق والقدر المشترك هذا وجوده في الذهن؛ لكن إذا وجد في الخارج وجد مقيدًا محددًا معينًا.

«وَأَنَّ مَعْنَى اشْتِرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ فِي أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ هُوَ تَشَابُهُهَا مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَأَنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْعَامَّ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا وَهَذَا؛ لِأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْخَارِجِ لَا يُشَارِكُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ -بمعنى الاشتراك في الذهن أمّا في الخارج فتنتفي المشاركة - فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِيهِ بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ مُتَمَيِّزٌ عَنْ غَيْرِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ» إذا صار هذا الشيء خارج الذهن هذا القدر المشترك وجد في الخارج صار مخصصًا مقيدًا انتفت فيه المشاركة وصار لكلٍّ صفاته وقدره وذاته الخاصة به.

المحاضرة (٢٩)

لا زال كلام المؤلف في القاعدة السادسة عن القدر المشترك بين الخالق والمخلوق وذكر الشيخ: أنه لا يلزم من إثبات هذا القدر المشترك إثبات شيء من خصائص المخلوق للخالق أو شيء من خصائص الخالق للمخلوق؛ لأنَّ القدر المشترك وجوده في الذهن؛ لكن إذا وجد في الخارج فقد تقيَّد وتخصص وتعين وصار لكل موجودٍ ما يخصه من الصفات والأسماء.

«وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ مُتَنَاقِضًا فِي هَذَا الْمَقَامِ -يعني لمَّا اضطرب النُفاة والمُعطِّلة في فهم القدر المشترك واضطرب عليهم الأمر وقعوا في التناقض والاختلاف- فَتَارَةً يَظُنُّ أَنَّ إثْبَاتَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ يُوجِبُ التَّشْبِيهَ الْبَاطِلَ فَيَجْعَلُ ذَلِكَ لَهُ حُجَّةً فِيمَا يَظُنُّ نَفْيَهُ مِنْ الصِّفَاتِ -هذا المُعطِّل يتوقع أو يزعم ويظن أنَّ إثبات القدر المشترك يوجب ويستلزم التشبيه المنفي عن الله عزَّ وجل، فيتخذ هذا ذريعة لنفي صفات الرب سبحانه وتعالى وتعطيل الرب عن صفاته جلَّ وعز، يقول:- حَذَرًا مِنْ مَلْزُومَاتِ التَّشْبِيهِ -لأنه لمَّا اعتقد أنَّ إثبات القدر المشترك يستلزم التشبيه إذًا بناءً عليه ننفي عن الله سبحانه وتعالى صفات الكمال الحياة والعلم والقدرة؛ لأنه يعتقد أنه إذا أثبت هذه الصفات فقد وقع في التشبيه، - وَتَارَةً يَتَفَطَّنُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ هَذَا عَلَى تَقْدِيرِ -أي إثبات القدر المشترك - فَيُجِيبُ بِهِ فِيمَا يُثْبِتُهُ مِنْ الصِّفَاتِ لِمَنْ احْتَجَّ بِهِ مِنْ النفاة» هذا إثبات للتناقض والاضطراب الذي وقع فيه مثل هؤلاء أحيانًا ينظر أنه لابد من إثبات القدر المشترك، وأن إثبات القدر المشترك لا يستلزم التشبيه، ولهذا يتخذ هذا حجة في إثبات ما يثبته؛ والرد بذلك على من ينفي ما يثبته هو.

يقول الشيخ: بسبب الاضطراب وعدم فهم القدر المشترك اضطرب الناس في هذه المسائل،

سيذكر الشيخ أمثلة على ذلك كما هي الحال عند الأشاعرة والمعتزلة:

«وَلِكَثْرَةِ الِاشْتِبَاهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: وَقَعَتْ الشُّبْهَةُ فِي أَنَّ (وُجُودَ الرَّبِّ) هَلْ هُوَ عَيْنُ مَاهِيَّتِهِ أَوْ زَائِدٌ عَلَى مَاهِيَّتِهِ؟» هل وجود الله عزَّ وجل هو عين الماهيَّة أم زائد على الماهيَّة؟ والمقصود بالماهيَّة: حقيقة الشيء، بمعنى الحقيقة التي هي أصل الشيء وأساسه وجوهره وما به قِوامُه، هذه هي الماهيَّة فهل الوجود هو الماهيَّة أو زائد على الماهية؟

«وَهَلْ لَفْظُ (الْوُجُودِ) مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ أَوْ التَّوَاطُؤِ أَوْ التَّشْكِيكِ؟» لفظ الوجود هذا اللفظ مطلقًا هل هو من قبيل المُشترَك اللفظي أو من قبيل المتواطئ أو من قبيل المشكك؟

والمُشَكَّك كما عرفوه عبارة عن: ما يدل على أشياء فوق واحد باعتبار معنىً واحد تختلف فيما بينها إمَّا بشدة أو ضعف أو تقدم أو تأخر؛ كما هي الحال في البياض، يطلق على بياض الثلج ويطلق على بياض العاج، كذلك النور يطلق على نور الشمس ويطلق على نور السراج.

أو قيل في تعريف آخر للمشكك هو: اللفظ الدال على معنى يوجد في أفراده بنسبٍ مختلفة، بمعنى معنى عام وهذا المعنى نجده في هذه الأفراد، على سبيل المثال:

النور؛ هذا معنى عام ضد الظلمة؛ لكن هل نور الشمس مثل نور السراج؟ لا، ولهذا هو موجود في الشمس وموجود في السراج؛ لكن تختلف فيما بينهما في القدر فنور الشمس مُباين تمامًا لنور السراج مع أنهما اشتراكا في وجود هذا القدر من النور الذي هو ضد الظلمة، ذكر الإمام ابن حزم رحمه الله: أنَّ أبا هاشم من المعتزلة والذي ابتدع مسألة الأحوال قال: هو لم يفهم ولم يعقل ولم يتصور الأحوال فكيف يمكن أن نتصورها ونرد عليها.

الشاهد: أنه من ضمن التعاريف التي عُرِّفت بها الأحوال عبارة عن صفات إثباتية غير متصفة بالوجود ولا بالعدم.

وقد يُعبِّر عنها بما به الاتفاق والافتراق بين الذات والصفة؛ ولهذا يُقال: سميع وسامع؛ الحال هي نسبةُ السمع للسامع فهذه النسبة هي الحال، نسبة الصفة إلى الموصوف، بعضهم يقول: الأحوال موجودة، وبعضهم يقول: الأحوال ليست موجودة هذا هو الاضطراب الذي وقع بسبب عدم فهم القدر المشترك.

«كَمَا وَقَعَ الِاشْتِبَاهُ فِي (إثْبَاتِ الْأَحْوَالِ وَنَفْيِهَا) وَفِي أَنَّ (الْمَعْدُومَ) هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ -المعدوم هل يسمى ويطلق عليه شيء أم لا؟ أيضًا اضطرب الناس واختلفوا في ذلك والسبب عدم فهم القدر المشترك- وَفِي (وُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ) هَلْ هُوَ زَائِدٌ عَلَى مَاهِيَّتِهَا أَمْ لَا؟» وجود أيُّ موجود؛ هل هذا الوجود زائد عن الماهية أم هو عين الماهية؟

«وَقَدْ كَثُرَ مِنْ أَئِمَّةِ النُّظَّارِ الِاضْطِرَابُ وَالتَّنَاقُضُ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ - التي هي من المسائل العقلية، لماذا اضطربوا ولماذا اختلفوا ولماذا تناقضوا في الأقوال تجده يقرر مسألة ويقرر ما يناقضها في مكان آخر؟ السبب كله يدور على عدم فهم القدر المشترك الفهم الصحيح -فَتَارَةً يَقُولُ أَحَدُهُمْ: الْقَوْلَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ - يعني يقول القول و يقول ما يناقضه في مكان آخر- وَيَحْكِي عَنْ النَّاسِ مَقَالَاتٍ مَا قَالُوهَا - بسبب عدم فهمه وعدم تصوره، أنه ينسب إلى الآخرين إلى أصحاب المذاهب الأخرى إلى مَنْ خالفه أقوالًا ما قالوها ولا يمكن أن يقولوها؛ ولكن بسبب عدم فهمه وعدم إدراكه لحقيقة هذا الأمر- وَتَارَةً يَبْقَى فِي الشَّكِّ وَالتَّحَيُّرِ» بمعنى يكون مضطرب لا يدري يثبت أو لا يثبت، يثبت هل الوجود عين الماهية أو ليس بعين الماهية؟ فيكون عنده شيء من الاضطراب.

«وَقَدْ بَسَطْنَا مِنْ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ وَمَا وَقَعَ مِنْ الِاشْتِبَاهِ وَالْغَلَطِ وَالْحَيْرَةِ فِيهَا لِأَئِمَّةِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ مَا لَا تَتَّسِعُ لَهُ هَذِهِ الْجُمَلُ الْمُخْتَصَرَةُ وَبَيَّنَّا أَنَّ الصَّوَابَ»

الشيخ الآن يبين باختصار الصواب في هذه المسائل التي جرى الخلاف فيها بسبب عدم فهم القدر المشترك:

«هُوَ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْخَارِجِ هُوَ مَاهِيَّتُه الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ» يقول: الشيء إذا كان موجودًا في الخارج هو عين وجوده ليس هناك وجود زائد عن الماهية؛ لكن في الذهن يفرض وجود الشيء يفرض الماهية والوجود، يوجد في الذهن أنَّ هناك شيء اسمه وجود وماهية، بخلاف الخارج وجود الشيء في الخارج هو عين ماهيته، ولا يمكن أن تفصل الوجود عن الماهية.

«بِخِلَافِ الْمَاهِيَّةِ الَّتِي فِي الذِّهْنِ فَإِنَّهَا مُغَايِرَةٌ لِلْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ ؛ وَأَنَّ لَفْظَ الوجود كلفظ الذَّاتِ وَالشَّيْءِ وَالْمَاهِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ كُلُّهَا مُتَوَاطِئَةٌ فَإِذَا قِيلَ : إنَّهَا مُشَكِّكَةٌ لِتَفَاضُلِ مَعَانِيهَا فَالْمُشَكِّكُ نَوْعٌ مِنْ الْمُتَوَاطِئِ الْعَامِّ -الشيخ يقول: ليس هناك فرق بين المشكك والمتواطئ؛ فالمشكك نوع من المتواطئ فهذه الألفاظ هي ألفاظ متواطئة أي مشككة، تختلف إذا اشتركت الموجدات في مُسمَّاها فهي تختلف فيما بينها بنسب مختلفة، فوجود العرش ليس كوجود البعوضة ليس كوجود الإنسان ليس كوجود الخالق- لِتَفَاضُلِ مَعَانِيهَا فَالْمُشَكِّكُ نَوْعٌ مِنْ الْمُتَوَاطِئِ الْعَامِّ الَّذِي يُرَاعَى فِيهِ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ سَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى مُتَفَاضِلًا فِي مَوَارِدِهِ أَوْ مُتَمَاثِلًا»

«وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ أَيْضًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّهْنِ لَا فِي الْخَارِجِ -المعدوم هل هو شيء أو ليس بشيء؟ هو شيء في الذهن؛ لكن في الخارج ليس بشيء؛ لأنه في الخارج معدوم مثل اسمه؛ لكن في الذهن هو شيء - فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الثُّبُوتِ وَالْوُجُودِ لَكِنَّ الْفَرْقَ

«ثَابِتٌ بَيْنَ الْوُجُودِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَيْنِيِّ مَعَ أَنَّ مَا فِي الْعِلْمِ لَيْسَ هُوَ الْحَقِيقَةَ الْمَوْجُودَةَ وَلَكِنْ هُوَ الْعِلْمُ التَّابِعُ لِلْعَالِمِ الْقَائِمِ بِهِ» وجود الشيء في الذهن يختلف عن وجوده في الخارج، فمثلاً: الولد بالنسبة لهذا الشخص الذي لم يتزوج بعد هو معدوم الآن ،هو شيء في الذهن؛ ولكن في الخارج لا وجود له، فإذا وجد في الخارج انتفى عنه العدم؛ لكن مادام في الذهن، نقول: الآن هو شيء؛ ولهذا عندي تصور أن هذا قد ربما يولد له مولود في ذهني فهو شيءٌ في الذهن ،لكن في الخارج لا يسمى شيء.

«وَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ الَّتِي تَتَمَاثَلُ فِيهَا الْمَوْجُودَاتُ وَتَخْتَلِفُ : لَهَا وُجُودٌ فِي الْأَذْهَانِ وَلَيْسَ فِي الْأَعْيَانِ -يقول: أيضًا الأحوال هذه بعض النُّظار أثبتها وبعضهم نفاها الصحيح أنها موجودة في الذهن؛ لكن في الخارج لا وجود لها -إِلَّا الْأَعْيَانُ الْمَوْجُودَةُ وَصِفَاتُهَا الْقَائِمَةُ بِهَا الْمُعَيَّنَةُ- يعني حال نسبة الصفة للموصوف هذه موجودة في الذهن؛ لكن في الخارج لا يوجد إلا صفة موصوف بها هذا الموصوف، هذه الذات موصوفة بهذه الصفة- فَتَتَشَابَهُ بِذَلِكَ وَتَخْتَلِفُ بِهِ، وَأَمَّا هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُخْتَصَرَةُ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا التَّنْبِيهُ عَلَى جُمَلٍ مُخْتَصَرَةٍ جَامِعَةٍ مَنْ فَهِمَهَا عَلِمَ قَدْرَ نَفْعِهَا وَانْفَتَحَ لَهُ بَابُ الْهُدَى وَإِمْكَانُ إِغْلَاقِ بَابِ الضَّلَالِ؛ ثُمَّ بَسْطُهَا وَشَرْحُهَا لَهُ مَقَامٌ آخَرُ؛ إِذْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ» يقول: أنا أردت فقط أن أنبه بهذا الجمل المختصرة الموجزة مجرد تنبيه وإلا بسط الكلام والرد على شُبه المخالفين وإيراد أقوال المخالفين فيها مكانه موضع آخر، وقد بسط الكلام هذا -رحمه الله - في أمثال درء تعارض العقل والنقل ونقض التأسيس.

«وَالْمَقْصُودُ : هُنَا أَنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحُجَّةِ -عاد الشيخ لأصل المسألة أي الاعتماد على مجرد نفي التشبيه أنه ليس بسديد- فِيمَا يُنْفَى عَنْ الرَّبِّ وَيُنَزَّهُ عَنْهُ -كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُصَنِّفِينَ - خَطَأٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ ذَلِكَ وَهَذَا مِنْ طُرُقِ النَّفْيِ الْبَاطِلَةِ» إذًا من طرق النفي الباطلة الاعتماد على مجرد (نفي التشبيه) فيما يُنفى عن الله عز وجل.

وانتقل بعد ذلك إلى الشق الثاني في (مجرد النفي) في القاعدة السادسة:

«(فَصْلٌ) : وَأَفْسَدُ مِنْ ذَلِكَ : مَا يَسْلُكُهُ نفاة الصِّفَاتِ أَوْ بَعْضِهَا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُنَزِّهُوهُ عَمَّا يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْهُ -أي ينزهوا الله عزّ وجل فيما يجب تنزيهه عنه -مِمَّا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ مِثْلَ أَنْ يُرِيدُوا تَنْزِيهَهُ عَنْ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ- كالبخل والولد والمرض والفقر إذا أرادوا أن ينزهوا الله عزَّ وجل عن هذه الصفات التي هي صفات نقص بلا شك ماذا يفعلون؟ إلى أيِّ شيء يعمدون؟ يقول: - وَيُرِيدُونَ الرَّدَّ عَلَى الْيَهُودِ : الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ بَكَى عَلَى الطُّوفَانِ حَتَّى رَمِدَ وَعَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ» يعني إذا أراد هؤلاء المعطلة أن يردُّوا على اليهود في نسبة البكاء إلى الله عزَّ وجل أو في نسبة الحزن لله عزَّ وجل أو في نسبة الفقر إلى الله عزَّ وجل.

ما الطريقة التي يسلكونها في ذلك؟ الشيخ الآن يُبيِّن فساد طريقتهم، أمَّا قضية تنزيه الله عز وجل عن هذه الصفات محل اتفاق أنَّ الله مُنزَّه؛ لكن كيف ننزِّه الله عز وجل؟ ولهذا قلت لكم: في أن القاعدة التدمرية في أول محاضرة هي ليست لإثبات الأسماء والصفات بقدر ما هي تعطي قواعد من خلالها يعرف المؤمن الطريقة الصحيحة في إثبات ما يُثبت لله عز وجل ونفي ما يُنفي عن الله عزَّ وجل، الشيخ يقول: إذا أراد هؤلاء المعطلة الرد على اليهود في نسبة صفات النقص لله عز وجل أرادوا أن يردوا عليهم كيف يعملون؟

«وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِلَهِيَّةِ بَعْضِ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ اللَّهُ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ -أي هؤلاء المعطلة- يَحْتَجُّ عَلَى هَؤُلَاءِ-الذين وصفوا الله بهذه النقائص- بِنَفْيِ التَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ- يعني إذا أرادوا أن يردوا على اليهود أنَّ الله بكى أو أنَّ الله فقير قالوا: أنَّ إثبات البكاء يستلزم أن يكون الله جسما، وإثبات الفقر يستلزم أن يكون الله في حيز، وهذا مستحيل؛ لأنَّ الأجسام متماثلة فلا يجوز أن يُثبت لله عزَّ وجل البكاء أو الفقر تعالى الله عن ذلك -وَيَقُولُونَ لَوْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ- التي هي الحزن والفقر والبكاء -لَكَانَ جِسْمًا أَوْ مُتَحَيِّزًا وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ وَبِسُلُوكِهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الطَّرِيقِ اسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ - الجهمية والباطنية

والفلاسفة استظهروا أي استقووا عليهم – **نفاة الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**- كيف استظهروا عليهم؟ قالوا: إذا نفيتم ما نفيتم؛ أي إذا نفيتم عن الله عزَّ وجل هذه الصفات -صفات النقص- بحجة التجسيم فكذلك يلزمكم في ما أثبتموه فإنه يستلزم التجسيم، ألستم معاشر المعتزلة تثبتون لله الأسماء؟ أيضًا إثبات الأسماء يستلزم التجسيم! ألستم معاشر الأشاعرة تثبتون لله عزَّ وجل الصفات السبع القدرة الحياة العلم....؟ هذه تستلزم التجسيم! يقول: وهذا الكلام تقدَّم الحديث عليه- **فَإِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ لِوُجُوهٍ»**

بمعني نفي النقائص عن الله بحجة التجسيم والتحيز لا يحصل به المقصود لوجوه، يعني لماذا الاعتماد في نفي النقائص والعيوب بحجة نفي التجسيم والتحيز؟! لا يحصل بها المقصود، ذكر الشيخ عدة وجوه:

المحاضرة (٣٠)

لا زال كلام المؤلف في القاعدة السادسة، وفي الشِقِّ الثاني منها، وهي: قضية أنَّ الاعتماد في نفي ما يُنفي عن الله من النقائص والعيوب بناءً على نفي التجسيم والتحيُّز، أنه لا يحصل به المقصود.

وذكر الشيخ أنَّ الاعتماد على هذه الطريقة لا يحصل به المقصود؛ لوجوه متعددة:

«(أَحَدُهَا) أَنَّ وَصْفَ اللهِ تَعَالَى بِهَذِهِ النَّقَائِصِ- أي بالبكاء والحزن والفقر والتعب - **وَالْآفَاتِ أَظْهَرُ فَسَادًا فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ مِنْ نَفْيِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجْسِيمِ»** إذًا في هذا الوجه أراد الشيخ أن يبُين فساد ما سلكه بعض النُظَّار- أهل الكلام- في الرد على اليهود وغيرهم ممن نسبوا إلى الله عز وجل صفات النقص بناءً على نفي التجسيم والتحيز، يقول: أنَّ وصف الله عز وجل بهذه الصفات– صفات النقص –أظهر فسادًا وأبين ضلالاً من قضية نفي التجسيم والتحيز، ولهذا قال: **«أَظْهَرُ فَسَادًا فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ مِنْ نَفْيِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجْسِيمِ»** فكأنهم حقيقة باستخدام هذه الطريقة استدلوا بالخفيّ على البيِّن الجليّ، أنت الآن لو جئت لتستدل على أنَّ هذه هي الشمس، وقلت: ترى الشّعاع...إلى آخره، فكأنك استدللت بالخفي على الظاهر البين، أصلاً وجود الشمس أظهر وأبين من أنك تأتي بهذا الكلام المصفف.

«فَإِنَّ هَذَا -أي نفي التجسيم والتحيز- **فِيهِ مِنْ الِاشْتِبَاهِ وَالنِّزَاعِ وَالْخَفَاءِ مَا لَيْسَ فِي ذَلِكَ»** ما ليس في تنزيه الله عز وجل عن النقص والعيب. لا شك أنَّ مسألة التجسيم والتحيز مسألة – كما ذكر الشيخ سابقًا – من المسائل التي جرى الخلاف فيها، وفيها نزاع كبير بين مثبت وبين نافي، وبين مُحدِّد لحقيقة الجسم، ومخالف له في هذا التعريف وفي هذا الحد.

«مَا لَيْسَ فِي ذَلِكَ -أي من تنزيه الله عز وجل عن هذه النقائص والعيوب -**وَكُفْرُ صَاحِبِ ذَلِكَ**- أي الذي وصف الله عز وجل بصفات النقص- **مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَالدَّلِيلُ مُعَرِّفٌ لِلْمَدْلُولِ** - الدليل دائمًا يأتي للتعريف بالمدلول، ما تأتي بالدليل الخفي لتستدل على الظاهر البيِّن، **وَالدَّلِيلُ مُعَرِّفٌ لِلْمَدْلُولِ وَمُبَيِّنٌ لَهُ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى الْأَظْهَرِ الْأَبْيَنِ** -وهو تنزيه الله عز وجل عن هذه الصفات - صفات النقص – **بِالْأَخْفَى**- الذي هو نفي التجسيم والتحيّز عن الله- **كَمَا لَا يُفْعَلُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْحُدُودِ»** أي في التعاريف؛ فالشيء يُعرَّف بما هو معروف لدى المخاطب، دائمًا إذا أردت أن تُعرِّف الشيء تعرفه بالشيء الذي يعرفه المخاطب، لا تُعرِّفه بالشيء الخفي الذي لا يعرفه المُخاطب وإلا تكون زدت هذا الشيء المُعرَّف خفاءً، كونك تريد أن تستدل على تنزيه الله عز وجل عن النقائص والعيوب بنفي التجسيم والتحيُّز، فأنت استدللت على الشيء الظاهر البيِّن بهذا الشيء الذي لا يعرفه المخاطب، فلا يستفيد من تعريفك شيء.

«(الْوَجْهُ الثَّانِي) أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِفُونَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ -الذين هم اليهود وأمثالهم -**يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ لَا نَقُولُ بِالتَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ**- يعني يقول: نثبت أن الله بكى– تعالى الله عن ذلك- وأنَّ الله حَزِن وأنَّ الله فقير؛ لكن لا يلزم من إثبات هذا

التجسيم أو التحيز- كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يُثْبِتُ الصِّفَاتِ وَيَنْفِي التَّجْسِيمَ -كما يقوله أهل السنة، أو حتى الأشاعرة في الصفات السبع ، يقولوا: نحن نثبت لله صفة العلم، ولا يلزم منها أن يكون جسمًا أو متحيزًا، لاحظ الآن، اليهود يقولون: نصف الله بالفقر ولا يلزم أن يكون جسمًا، وأهل السنة وعموم المسلمين يقولون: نثبت أن الله مُتصِّف بالعلم ولا يلزم أن يكون جسمًا- فَيَصِيرُ نِزَاعُهُمْ مِثْلَ نِزَاعِ مُثْبِتَةِ صِفَاتِ الْكَمَالِ- يعني نزاع هؤلاء المُعطِّلة مع اليهود، كنزاع المُعطِّلة مع أهل السنة وعموم المسلمين الذي يثبتون لله صفة الكمال- فَيَصِيرُ كَلَامُ مَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَصِفَاتِ النَّقْصِ وَاحِدًا - يعني الآن القاعدة التي سيستخدمها هذا المُعطِّل في الرد على اليهود في نسبة صفات النقص لله عز وجل، هي نفسها الحجة التي يستخدمها في مقابل أهل السنة لما أثبتوا لله صفات الكمال، وصفات الكمال ضد صفات النقص؛ على النقيض تمامًا من صفات النقص؛ لكن الحجة التي يستخدمها المُعطِّل للرد على هؤلاء وهؤلاء واحدة وهذا من أبين وأظهر الفساد الذي يدل على أنَّ هذه الطريقة فاسدة، كيف يستخدم حجة واحدة للرد على من يثبت لله صفات الكمال، ومن يثبت لله صفات النقص؟ هذا دليل على فساد حجته؛ لأنها لو صحت هنا ما صحت هنا ولو صحت هناك ما صحت هنا - وَيَبْقَى رَدُّ النفاة عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِطَرِيقٍ وَاحِدٍ وَهَذَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ» بمعنى: أنَّ هذا يدل على أن هذه الطريقة فاسدة، أضرب لكم مثال حسي، لو جئت بحجة تريد أنَّ تثبت أن هذا الشخص حي، ونفس الحجة تريد أن تثبت أن الشخص الآخر ميت، قيل لك: حجتك فاسدة؛ لأنك بهذه الحجة تستخدمها في الشيء ونقيضه، كما صنع هؤلاء استخدموا هذه الحجة للرد على من يثبت لله صفات الكمال، وللرد على من ينسب لله تعالى صفات النقص.

«(الثَّالِثُ) أَنَّ هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ -المُعطِّلة هؤلاء الذين استخدموا مسألة التجسيم والتحيز في الرد على اليهود الذين نسبوا لله صفات النقص، استخدموا هذه الحجة لنفي صفات الكمال عن الله عز وجل- أَنَّ هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَاجِبٌ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَالسَّمْعِ- إثبات صفات الكمال لله هذا أمرٌ واجبٌ عقلًا ونقلاً- فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ» بمعنى كونكم استخدمتم هذه الطريقة لنفي ما هو ثابت عقلًا ونقلًا فهذا يدل على أنَّ هذه الطريقة فاسدة؛ وإلا لما جاز استخدامها هنا، وعندنا قاعدة: [أنَّ كل حجة استلزمت نفي ما ثبت بالشرع والعقل فهي حجة فاسدة] .

«(الرَّابِعُ) أَنَّ سَالِكِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ- أي المُعطِّلة – مُتَنَاقِضُونَ -الشيخ ذكر فيما سبق، أنَّ المعطلة ليسوا على درجة واحدة؛ فهناك الغُلاة الذين نفوا الأسماء والصفات، وهناك من هو دونهم كالمعتزلة الذين أثبتوا الأسماء ونفوا الصفات، وهناك من هو دون هؤلاء وهم الأشاعرة الذين أثبتوا سبع صفات إضافة إلى الأسماء ونفوا ما عداها، الشيخ يقول: مما يدل على بطلان هذه الحجة الاعتماد في نفي ما يُنفي عن الله على شبهة التجسيم والتحيز أنَّ سالكي هذه الطريقة الذين هم عموم المُعطِّلة- مُتَنَاقِضُونَ فَكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنْ الْإِثْبَاتِ ،كَمَا أَنَّ كُلَّ مَنْ نَفَى شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنْ النَّفْيِ - فمثلاً: إذا جاء المعتزلي يريد أن يرد على الأشعري وقال له: كيف تثبت لله الصفات السبع وهذا يقتضي التجسيم؟ قال له الأشعري: وأنت تثبت الأسماء وهذه الأسماء أيضًا تستلزم التجسيم- فَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ –الأشاعرة – كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ إذَا قَالَتْ لَهُمْ النفاة كَالْمُعْتَزِلَةِ : هَذَا تَجْسِيمٌ -يعني إثبات هذه الصفات السبع يستلزم التجسيم- لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْرَاضٌ وَالْعَرَضُ لَا يَقُومُ إلَّا بِالْجِسْمِ- يقولون لهم: الحياة والعلم والقدرة هذه أعراض، لا نعرف أو لا نعقل منها إلا ما هو عرض، والعرض لا يقوم إلا بجسم، والأجسام عندهم متماثلة- وَالْعَرَضُ لَا يَقُومُ إلَّا بِالْجِسْمِ أَوْ لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَوْصُوفًا بِالصِّفَاتِ إلَّا جِسْمًا قَالَتْ لَهُمْ الْمُثْبِتَةُ : - الأشاعرة- وَأَنْتُمْ قَدْ قُلْتُمْ : إنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ -يعني سميتم الله عز وجل بأنه حيٌ عليمٌ قدير- وَقُلْتُمْ: لَيْسَ بِجِسْمٍ؛ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَوْجُودًا حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا إلَّا جِسْمًا - يقول: أنتم الآن سميتم الله عز وجل

بهذه الأسماء ، وأنتم تعلمون أنه لا يُسمّى بهذه الأسماء: حيّ، عليم، قدير إلا ما هو جسم- فَقَدْ أَثْبَتُّمُوهُ عَلَى خِلَافِ مَا عَلِمْتُمْ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ وَقَالُوا لَهُمْ : أَنْتُمْ أَثْبَتُّمْ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا ؛ بِلَا حَيَاةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا قُدْرَةٍ وَهَذَا تَنَاقُضٌ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ» يقول: أنتم أثبتم أنَّ الله عز وجل يسمى بالحيّ؛ لكن لا يوصف بالحياة، عليم لا يوصف بالعلم، قدير لا يوصف بالقدرة، قالوا لهم: وهذا تناقض يُعلم بضرورة العقل.

الشيخ انتقل من المحاورة بين الأشاعرة والمعتزلة، إلى المحاورة بين الأشاعرة وبين أهل السنة.

الأشاعرة هم المقصودون أصالةً بهذه القاعدة؛ لأنهم يثبتون سبع صفات وينفون ما عداها.

«ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُثْبِتُونَ -الأشاعرة- إذَا قَالُوا لِمَنْ أَثْبَتَ -أهل السنة – أَنَّهُ يَرْضَى وَيَغْضَبُ وَيُحِبُّ وَيُبْغِضُ أَوْ مَنْ وَصَفَهُ بِالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ أَوْ بِالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ- لا شكَّ أن أهل السنة يثبتون جميع هذه الصفات؛ لأنها ثابتة لله عز وجل، منها ما هو ثابت بالعقل والنقل، ومنها ما هو ثابت بالخبر أي بالنقل فقط كالنزول والاستواء.- إذَا قَالُوا : هَذَا يَقْتَضِي التَّجْسِيمَ - قال الأشاعرة لأهل السنة: أنَّ إثبات الرضا والغضب والنزول والاستواء يقتضي التجسيم- لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَا يُوصَفُ بِذَلِكَ إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ قَالَتْ لَهُمْ الْمُثْبِتَةُ:- أي أهل السنة- فَأَنْتُمْ قَدْ وَصَفْتُمُوهُ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَهَذَا هَكَذَا – وقد تقدم الكلام عن هذا -فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يُوصَفُ بِهِ إلَّا الْجِسْمُ -أي إن كان إثبات الغضب والرضا والنزول والاستواء ...إلى آخره لا يوصف به إلا ما هو جسم- فَالْآخَرُ كَذَلِكَ -فما أثبتموه من العلم والقدرة والسمع والبصر أيضًا جسم- وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يُوصَفَ بِأَحَدِهِمَا مَا لَيْسَ بِجِسْمِ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ ؛ فَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ- بمعنى أنَّ الشيخ يقول: هذا تناقضٌ منكم أيضًا -وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الرَّدُّ عَلَى مَنْ وَصَفَ اللَّهَ تَعَالَى بِالنَّقَائِضِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ – أي بنفي التجسيم والتحيز عن الله – طَرِيقًا فَاسِدًا : لَمْ يَسْلُكْهُ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي حَقِّ اللَّهِ بِالْجِسْمِ لَا نَفْيًا وَلَا إثْبَاتًا وَلَا بِالْجَوْهَرِ وَالتَّحَيُّزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِأَنَّهَا عِبَارَاتٌ مُجْمَلَةٌ لَا تُحِقُّ حَقًّا وَلَا تُبْطِلُ بَاطِلًا - هذا تقدم الكلام عليها، أن هذه من الألفاظ المجملة التي لم يرد في الكتاب والسنة لها لا بنفي ولا إثبات أعرض السلف عنها ورأوا أنها لا توصل إلى الحق الذي يسعى إليه الإنسان- وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِيمَا أَنْكَرَهُ عَلَى الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ : مَا هُوَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ؛ بَلْ هَذَا هُوَ مِنْ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ الَّذِي أَنْكَرَهُ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ» يعني إطلاق مثل هذه العبارات على الله عز وجل واستخدامها هي من الألفاظ المبتدعة التي أضرب عنها السلف -رحمهم الله- لأنها لم ترد في الكتاب ولا في السنة؛ ولأنها كلمات مجملة محتملة تحتمل أحيانًا الحق وتحمل أحيانًا الباطل.

▫انتقل بعد هذا المؤلف إلى (مطلق الإثبات من غير تشبيه) وقال:

«(فَصْلٌ) : وَأَمَّا فِي طُرُقِ الْإِثْبَاتِ : فَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ الْمُثْبَتَ لَا يَكْفِي فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ- لا زال الكلام في القاعدة السادسة، هل يكتفي الإنسان في الإثبات على مجرد نفي التشبيه؟ هل يثبت لله الصفة مع نفي التشبيه؟ الشيخ يقول: لا يكفي هذا لما يستلزمه ذلك من اللوازم الباطلة- إذْ لَوْ كَفَى فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ سُبْحَانَهُ مِنْ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَى- مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ - مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَأَنْ يُوصَفَ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ» يعني إذا كان المسألة فقط نفي التشبيه لجاز لكل إنسان أن يثبت لله ما شاء من الصفات ويقرنها مع نفي التشبيه- مع التنزيه -سيذكر المؤلف أمثلة:

كقول الإنسان: الله عز وجل يجوع لا كجوع البشر، الله عز وجل يأكل لا كأكل البشر، الله عز وجل يشرب لا كشرب البشر تعالى الله عن ذلك، إذًا، لا يكفي الاعتماد على مجرد الإثبات مع نفي التشبيه، لا بد هناك قاعدة أخرى هي التي تعطينا الفيصل تعطينا القاعدة الصحيحة فيما يجب لله وما لا يجوز عليه سبحانه.

المحاضرة (٣١)

لا زال الكلام حول كلام المؤلف في القاعدة السادسة في ضابط ما يجوز على الله أو ما يجب لله وما يمتنع عليه سبحانه وتعالى.

« (فَصْلٌ) : وَأَمَّا فِي طُرُقِ الْإِثْبَاتِ : فَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ الْمُثْبَتَ لَا يَكْفِي فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ إذْ لَوْ كَفَى فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ سُبْحَانَهُ مِنْ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَى- مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ - مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَأَنْ يُوصَفَ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ كَمَا لَوْ وَصَفَهُ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ - بمعنى يقول: أن الله يجوع لا كجوع البشر، والله يحزن لا كحزن المخلوق- وَكَمَا لَوْ قَالَ الْمُفْتَرِي: يَأْكُلُ لَا كَأَكْلِ الْعِبَادِ وَيَشْرَبُ لَا كَشُرْبِهِمْ وَيَبْكِي وَيَحْزَنُ لَا كَبُكَائِهِمْ وَلَا حُزْنِهِمْ ؛ كَمَا يُقَالُ يَضْحَكُ لَا كَضَحِكِهِمْ وَيَفْرَحُ لَا كَفَرَحِهِمْ وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِهِمْ. وَلَجَازَ أَنْ يُقَالَ: لَهُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا كَأَعْضَائِهِمْ كَمَا قِيلَ : لَهُ وَجْهٌ لَا كَوُجُوهِهِمْ وَيَدَانِ لا كَأَيْدِيهِمْ -سيقول - تعالى الله عن ذلك- له كبدٌ لا ككبد المخلوق، وطحال لا كطحال المخلوق، كما قال: عموم المسلمين وأهل السنة لله وجهٌ لا كوجه المخلوق- حَتَّى يَذْكُرُوا الْمَعِدَةَ وَالْأَمْعَاءَ وَالذَّكَرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا».

«فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ نَفَى ذَلِكَ- أي صفات النقص عن الله عز وجل- مَعَ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا -الصفات الخبرية كالوجه واليدان والاستواء- مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَبين مَا أَثْبَتُّهُ - أي بين إثبات الصفات الخبرية وبين ما أثبته المفتري؛ الذي يقول: يأكل لا كأكل العباد، أنت تقول: لله وجه لا كوجوه العباد، أنا أقول: الله يأكل لا كأكل العباد- إذَا نَفَيْت التَّشْبِيهَ وَجَعَلْت مُجَرَّدَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ كَافِيًا فِي الْإِثْبَاتِ فَلَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ فَرْقٍ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ» يعني يقول: لا بد من وضع قاعدة نستطيع أن نفرق بها بين ما يجب لله عز وجل مما هو ثابت، مما يجب تنزيهه عنه سبحانه وتعالى.

«فَإِنْ قِيلَ: الْعُمْدَةُ فِي الْفَرْقِ هُوَ السَّمْعُ - لو قال قائل: العمدة في إثبات ما يجب إثباته لله هو السمع، كون هذه الصفات ثبتت في الكتاب والسنة؛ فأنا أثبتها بناءً على ثبوتها في نصوص الوحيين- فَمَا جَاءَ السَّمْعُ بِهِ أَثْبَتَهُ دُونَ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ السَّمْعُ» يعني لو قال قائل: أنا اعتمدت في هذا على ما ثبت به السمع.

«قِيلَ لَهُ: -يعني قال المعترض- أَوَّلًا : السَّمْعُ هُوَ خَبَرُ الصَّادِقِ عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ، فَمَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إثْبَاتٍ ؛ وَالْخَبَرُ دَلِيلٌ عَلَى الْمُخْبَرِ عَنْهُ- الذي هو الله- وَالدَّلِيلُ لَا يَنْعَكِسُ ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِهِ عَدَمُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ -يعني كون السمع لم يثبت الأكل، لا يدل على أن السمع نفى الأكل، السمع صحيح أثبت لله الوجه، وأثبت لله اليد، وهذا خبرٌ عما هو عليه الأمر كما هو؛ لكن الدليل لا ينعكس، بمعنى أنه لا يدل على نفي غيره- فَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِهِ عَدَمُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ فَمَا لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنْ لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ ؛ وإذَا لَمْ يَكُنْ قد نَفَاهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمْعَ لَمْ يَنْفِ كل هَذِهِ الْأُمُورَ بِأَسْمَائِهَا الْخَاصَّةِ -أي هذه الصفات النقائص- فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ مَا يَنْفِيهَا مِنْ السَّمْعِ» يقول: إذا كنت معتمد على السمع في إثبات ما يثبت لله عز وجل، فلا بد أيضًا أن تعتمد على السمع في نفي ما يُنفي عن الله، ونحن لا نجد لا في الكتاب ولا في السنة دليلٌ سمعي نص على نفي هذه الأمور عن الله عز وجل.

«وَإِلَّا فَلَا يَجُوزُ حِينَئِذٍ نَفْيُهَا كَمَا لَا يَجُوزُ إثْبَاتُهَا - يقول: أنت أثبت لله عز وجل صفات الكمال بناءً على ورود السمع، فلا تنفِ ما عداها بناءً على السمع، لماذا؟ يقول: لأنه لا يوجد دليل صريح ينفيها عن الله عز وجل- وَأَيْضًا : فَلَا بُدَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ مَا يُثْبَتُ لَهُ وَيُنْفَى عنه فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُتَمَاثِلَةَ فِي الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ : يَمْتَنِعُ اخْتِصَاصُ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ بِالْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ فَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِصَاصِ الْمَنْفِيِّ عَنْ الْمُثْبِتِ بِمَا يَخُصُّهُ بِالنَّفْيِ وَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِصَاصِ الثَّابِتِ عَنْ الْمَنْفِيِّ بِمَا يَخُصُّهُ من الثُّبُوتِ -يقول: لا بد من شيء يخص هذا الشيء بالإثبات، وهذا الشيء بالنفي، كما أنك اعتمدت في الإثبات على

السمع، فأنا أقول لك: أنا أثبت هذه الصفات لأن السمع ما دل على نفيها- وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يقول : لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُوجِبُ نَفْيَ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْ اللهِ كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُثْبِتُ لَهُ مَا هُوَ ثَابِتٌ وَإِنْ كَانَ السَّمْعُ كَافِيًا كَانَ مُخْبِرًا عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ فَمَا الْفَرْقُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا ؟» يقول: لا بد لنا من قاعدة نعرف بها ما يجوز وما يمتنع عن الله عز وجل، أما الاعتماد على مجرد السمع فالسمع هو خبر الصادق على ما هو عليه.

الجواب: **يقول**: «فَيُقَالُ: كُلَّ مَا نافى صِفَاتُ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لِلّٰهِ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ - (هذه قاعدة عقلية) إذا أثبتَ لله تعالى السمع فيلزم نفي ما يضاد هذه الصفة التي هي الصمم، إذا أثبتَ لله البصر فيجب أن تنفي عن الله ضد هذه الصفة وهو العمى، فإثبات صفة الكمال كافي في نفي ضد هذه الصفة، يقول:- فَإِنَّ ثُبُوتَ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْآخَرِ- (هذه قاعدة عقلية) إذا أثبتَ أن الشيء موجود معناه أنك نفيت أنه معدوم، إذا أثبتَ أنه في الخارج فهذا يدل على أنه ليس في الداخل، فإثبات أحد الضدين يستلزم نفي الآخر- فَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ قَدِيمٌ وَاجِبُ الْقِدَمِ : عُلِمَ امْتِنَاعُ الْعَدَمِ وَالْحُدُوثِ عَلَيْهِ - ضد هذه الأمور: ليس بمعدوم أو ليس بممكن ،وثبوت أنه موجود واجب الوجود هذا ينفي ما عداه- وَعُلِمَ أَنَّهُ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، فَالْمُفْتَقِرُ إلَى مَا سِوَاهُ فِي بَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ لِنَفْسِهِ لَيْسَ هُوَ مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ بَلْ بِنَفْسِهِ وَبِذَلِكَ الْآخَرِ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا تَحْتَاجُ إلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا يُوجَدُ إلَّا بِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، فَكُلُّ مَا نَافَى غِنَاهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ -أن الله عز وجل أثبت أنه غنيٌ عن كل شيء، فكل ما نافى الغنى فالله مُنَزَّهٌ عنه؛ لأن الله قائمٌ بنفسه غير محتاج لغيره سبحانه وتعالى فهو الغني الحميد- وَهُوَ سُبْحَانَهُ وتعالى قَدِيرٌ قَوِيٌّ فَكُلُّ مَا نَافَى قُدْرَتَهُ وَقُوَّتَهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ قَيُّومٌ فَكُلُّ مَا نَافَى حَيَاتَهُ وقيوميته فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ» بمعنى إثبات صفة الكمال يستلزم نفي ضدها.

«وَبِالْجُمْلَةِ فَالسَّمْعُ قَدْ أَثْبَتَ لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِ الْكَمَالِ مَا قَدْ وَرَدَ فَكُلُّ مَا ضَادَّ ذَلِكَ فَالسَّمْعُ يَنْفِيه -لماذا؟ لأن ثبوت أحد الضدين يستلزم نفي الضد -كَمَا يَنْفِي عَنْهُ الْمِثْلَ وَالْكُفءَ فَإِنَّ إثْبَاتَ الشَّيْءِ نَفْيٌ لِضِدِّهِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُ ضِدَّهُ -يعني ليس نفي الضد فقط بل حتى ما يستلزمه هذا الضد، ولهذا سيذكر المؤلف إثبات الغنى لله عز وجل وأنه صمد، يستلزم نفي الأكل والشرب عن الله عز وجل وما يستلزمه هذا الضد، ما الذي يستلزمه الأكل والشرب؟ آلات الأكل والشرب الكبد والطحال ونحو ذلك، فكل هذا منفي عن الله بالنص الذي أثبت له الغنى والصمدية سبحانه وتعالى، فإثبات أحد الضدين يستلزم نفي الآخر وما يستلزمه هذا الضد - وَالْعَقْلُ يَعْرِفُ نَفْيَ ذَلِكَ كَمَا يَعْرِفُ إثْبَاتَ ضِدِّهِ فَإِثْبَاتُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ نَفْيٌ لِلْآخَرِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُهُ»

«فَطُرُقُ الْعِلْمِ بِنَفْيِ مَا يُنَزِّهُ الرَّبُّ عَنْهُ مُتَّسِعَةٌ - ليست محصورة فيما ذكره هؤلاء المعطلة- لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إلَى الِاقْتِصَارِ عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ؛ كَمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الْقُصُورِ وَالتَّقْصِيرِ، الَّذِينَ تَنَاقَضُوا فِي ذَلِكَ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ حَتَّى أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا احْتَجَّ عَلَيْهِ مَنْ نَفَاهُ بِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ (التَّشْبِيهَ) ، وَكَذَلِكَ احْتَجَّ الْقَرَامِطَةُ عَلَى نَفْيِ جَمِيعِ الْأُمُورِ حَتَّى نَفَوْا النَّفْيَ فَقَالُوا: -وهذا تقدم الكلام عليه، أن الاعتماد على مجرد نفي التشبيه، أن هذا يوقع الإنسان في التناقض- لَا يُقَالُ مَوْجُودٌ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيٌّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ تَشْبِيهٌ بِالْمَوْجُودِ أَوْ الْمَعْدُومِ فَلَزِمَ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ-وهذا تقدم الكلام عليه تفصيلًا - وَهُوَ أَظْهَرُ الْأَشْيَاءِ امْتِنَاعًا، ثُمَّ إنَّ هَؤُلَاءِ يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْجَمَادَاتِ أَعْظَمُ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ مِنْ التَّشْبِيهِ بِالْأَحْيَاءِ الْكَامِلِينَ، فَطُرُقُ تَنْزِيهِهِ - هذا النتيجة - وَتَقْدِيسِهِ عَمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ مُتَّسِعَةٌ لَا تَحْتَاجُ إلَى هَذَا- إلى الاعتماد على مجرد نفي التشبيه- وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَا يُنْفَى عَنْهُ سُبْحَانَهُ وتعالى نفي متضمن للنفي والإثبات» وهذا تقدم في أول القاعدة أن كل صفة نفاها الله عز وجل عن نفسه في القرآن أو في السنة فإنها متضمنة لنفي هذه الصفة وإثبات كمال ضدها، فإذا نفى الله عن نفسه صفة الظلم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فهذا فيه إثبات صفة العدل، وإذا نفى عن نفسه السِّنَة والنوم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

ففي هذا إثبات كمال الحياة والقيومية، وإذا نفى سبحانه وتعالى عن نفسه أنه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فهذا في إثبات العظمة له سبحانه وتعالى.

«إِذْ مُجَرَّدُ النَّفْيِ لَا مَدْحَ فِيهِ وَلَا كَمَالَ -كما قلنا لكم أن النفي المحض الذي لا يتضمن صفةً ثبوتية، هذا لا كمال فيه ولا مدح فيه - فَإِنَّ الْمَعْدُومَ يُوصَفُ بِالنَّفْيِ -هذا هو التعليل: أنه لا كمال ولا مدح للنفي المحض؛ لأن المعدوم يوصف بالنفي المحض- وَالْمَعْدُومَ لَا يُشْبِهُ الْمَوْجُود وَلَيْسَ هَذَا مَدْحًا لَهُ لِأَنَّ مُشَابَهَةَ النَّاقِصِ فِي صِفَاتِ النَّقْصِ نَقْصٌ مُطْلَقًا كَمَا أَنَّ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِ فِي شَيْءٍ مِنْ الصِّفَاتِ تَمْثِيلٌ وَتَشْبِيهٌ يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَالنَّقْصُ ضِدُّ الْكَمَالِ ؛ وَذَلِكَ مِثْلُ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ حَيٌّ وَالْمَوْتُ ضِدُّ ذَلِكَ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ ؛ وَكَذَلِكَ النَّوْمُ وَالسِّنَةُ ضِدَّ كَمَالِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ وَكَذَلِكَ اللُّغُوبُ نَقْصٌ فِي الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ فِيهِ افْتِقَارٌ إلَى مَوْجُودٍ غَيْرِهِ» يعني إثبات الأكل والشرب يدل على الافتقار أن الله عز وجل محتاج ومفتقر لغيره، لا شك الآن الأكل والشرب بالنسبة للمخلوق يعتبر صفة كمال؛ لكن ليست صفة كمال بإطلاق، صفة كمال من جهة لكن من جهة صفة نقص ، فالذي يأكل ويشرب أكمل من الذي لا يأكل ولا يشرب كالذي لا يُغذى إلا بالمغذي؛ لكن الأكل والشرب في حد ذاته هو صفة افتقار بالنسبة للمخلوق، يعني محتاج إلى الأكل والشرب لا يمكن أن يستغني عن الأكل والشرب فهذه صفة نقص، ولهذا الله عز وجل لما ثبت له الغنى المطلق نُزِّه عن الأكل والشرب.

«كَمَا أَنَّ الِاسْتِعَانَةَ بِالْغَيْرِ وَالِاعْتِضَادَ بِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ يتَضَمَّنُ الِافْتِقَارَ إلَيْهِ وَالِاحْتِيَاجَ إلَيْهِ . وَكُلُّ مَنْ يَحْتَاجُ إلَى مَنْ يَحْمِلُهُ أَوْ يُعِينُهُ عَلَى قِيَامِ ذَاتِهِ أو أَفْعَالِهِ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ لَيْسَ مُسْتَغْنِيًا بِنَفْسِهِ فَكَيْفَ مَنْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَالْآكِلُ وَالشَّارِبُ أَجْوَفُ - الآكل والشارب له جوف- وَالْمُصْمَتُ الصَّمَدُ أَكْمَلُ مِنْ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ وَلِهَذَا كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ صمدا لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ - الملائكة وصفت أنها لا تأكل ولا تشرب، أي صُمْدَاً ليس لها جوف- وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِالتَّنْزِهِ عَنْهُ- وهذا في المثل الأعلى- وَالسَّمْعُ قَدْ نَفَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ نَسَبُ الرَّحْمَنِ- وذلك لما ثبت في مسند الإمام أحمد وغيره أن اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد؛ انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ - وَهِيَ الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ -أي أن الله موصوفٌ بالكمال المطلق- وَقَالَ فِي حَقِّ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ -الشيخ يريد أن يذكر دليل على أن الأكل والشرب دليلٌ على عدم استحقاق الإلوهية؛ لأنه نقص وحاجة - فَجَعَلَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الإلوهية فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى» إذًا السمع يدل على نفي هذه النقائص عن الله عز وجل؛ لكن لا يلزم منها التصريح بها إما أن يُثبت صفة الكمال فيلزم منه نفي الضد، وإما أن يبين أن هذه صفات نقص لا تليق بمقام الإلوهية كما ذكر هنا.

المحاضرة (٣٢)

لا زال الكلام مع كلام المؤلف في القاعدة السادسة، وحول إثبات أن الله مُنزَّهٌ عن الأكل والشرب، وذكر الشيخ -رحمه الله- قوله سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾

«فَجَعَلَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْأُلُوهِيَّةِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى -بمعنى أن الله لما ذكر أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام، فهذا يدل على أنهما ليسا بإلهين؛ لأنهما بحاجة للطعام والشراب، مفتقرون للطعام والشراب، يقول الشيخ: فدل على أن الله منزه عن ذلك بطريق الأولى كما قلنا: أن كل كمالٍ ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقصٍ تَنَزَّهَ عنه

المخلوق فالخالق أولى بالتنزُّه عنه- وَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ وَنَحْوُ ذَلِكَ : هِيَ أَعْضَاءُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، فَالْغَنِيُّ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ؛ مُنَزَّهٌ عَنْ آلَاتِ ذَلِكَ» يقول: كما أنه منزهٌ عن الأكل والشرب بهذه الأدلة: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ ، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ هذه أدلة تدل على أن الله لا يأكل ولا يشرب؛ لكن بالطبع ليس بالتصريح وإنما بالمفهوم، ولهذا أحيانًا الدلالة تكون بالمنطوق وأحيانًا بالمفهوم فالدلالة هنا بالمفهوم، لزم من ذلك أن يكون الله مُنَزَّه عن آلات ذلك، آلات الأكل والشرب الكبد والطحال.

لكن الشيخ ذكر إيراد قد يورده القارئ أو المستمع، أنتم تثبتون لله اليد، فما الفرق بين اليد والكبد والطحال؟

«بِخِلَافِ الْيَدِ فَإِنَّهَا لِلْعَمَلِ وَالْفِعْلِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْعَمَلِ وَالْفِعْلِ- يعني اليد ليست فقط للأكل والشرب لأجل أنا إذا نزهنا الله عن الأكل والشرب فيلزم منه أن نُنَزِّه الله عن اليد، لا، اليد عملها أوسع من قضية الأكل والشرب، يقول: لأنها للعمل والفعل- إِذْ ذَاكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ ؛ فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْفِعْلِ»

«وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَعَنْ آلَاتِ ذَلِكَ وَأَسْبَابِهِ- فإذا كان مُنَزَّه عن الصاحبة - تعالى الله عن ذلك- أو الولد، فهو مُنَزَّه عن هذا وعن أسباب الولد والصاحبة- وَكَذَلِكَ الْبُكَاءُ وَالْحَزَنُ -الشيخ الآن يريد أن يثبت لهم أن السمع قد دلّ على تنزيه الله عن هذه الأشياء؛ لكن ما يلزم أن تكون بالمنطوق -بالتصريح -كما ذكر أنه إذا ثبت شيء فيلزم نفي ضده، وما يستلزمه هذا الضد- هُوَ مُسْتَلْزِمٌ للضَّعْفِ وَالْعَجْزِ الَّذِي يُنَزِّهُ الله عَنْهُ سُبْحَانَهُ ؛ بِخِلَافِ الْفَرَحِ وَالْغَضَبِ فَإِنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ -الله موصوف بالفرح والغضب، بخلاف الحزن والبكاء، لماذا؟ البكاء والحزن مستلزم للضعف والعجز؛ فالذي يغضب إذا اسْتُغضب أكمل من الشخص الساذج الذي لا يحرك ساكنًا -فَكَمَا أنه يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ دُونَ الْعَجْزِ وَبِالْعِلْمِ دُونَ الْجَهْلِ وَبِالْحَيَاةِ دُونَ الْمَوْتِ وَبِالسَّمْعِ دُونَ الصَّمَمِ وَبِالْبَصَرِ دُونَ الْعَمَى وَبِالْكَلَامِ دُونَ الْبُكْمِ- يعني يوصف بهذه الصفات دون ضدها- فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِالْفَرَحِ دُونَ الْحُزْنِ وَبِالضَّحِكِ دُونَ الْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ» الفرح والضحك ثبتا في صحيح السنة، والأدلة على هذا كثيرة: (يضحك الله عز وجل لرجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما في الجنة) والفرح: (لله أشد فرحًا بتوبة عبده ... الخ) .

«وَأَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَ بِالْعَقْلِ مَا أَثْبَتَهُ السَّمْعُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى لَا كُفء لَهُ وَلَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ -وكل هذا تقدم في أول الرسالة- فَيُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا الْمَلَائِكَةِ وَلَا السَّمَوَاتِ وَلَا الْكَوَاكِبِ وَلَا الْهَوَاءِ وَلَا الْمَاءِ وَلَا الْأَرْضِ وَلَا الْآدَمِيِّينَ وَلَا أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَتَهُ عَنْ مُمَاثَلَاتِ شَيْءٍ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ أَبْعَدُ مِنْ سَائِرِ الْحَقَائِقِ وَأَنَّ مُمَاثَلَتَهُ لِشَيْءِ مِنْهَا أَبْعَدُ مِنْ مُمَاثَلَةِ حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ لِحَقِيقَةِ شيء مَخْلُوقٍ آخَرَ» يعني مهما افترض ذهنك شيء من المماثلة أو شيء من المشابهة لله عز وجل بشيءٍ من مخلوقاته، فالله أبعد وأكثر بينونةً عن ذلك، فإذا كان العقل كما ذكر الشيخ في المثال الأول لا يمكن أن يتصور حقيقة ما في الجنة، وهي مخلوقة كسائر المخلوقات، لا يمكن أن يدرك شيئًا من الحقيقة (ولا خطر على قلب بشر) فالخالق من باب أولى.

يذكر دليل عقلي على نفي الكفء والمثل عن الله:

«فَإِنَّ الْحَقِيقَتَيْنِ إِذَا تَمَاثَلَتَا جَازَ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مَا يَجُوزُ عَلَى الْأُخْرَى وَوَجَبَ لَهَا مَا وَجَبَ لَهَا وامتنع عليها ما امتنع عليها ؛ فَيَلْزَمُ أَنْ يَجُوزَ عَلَى الْخَالِقِ الْقَدِيمِ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْمُحْدَثِ الْمَخْلُوقِ مِنْ الْعَدَمِ وَالْحَاجَةِ وَأَنْ يُثْبَتَ لِهَذَا مَا يُثْبَتُ لِذَاكَ مِنْ الْوُجُوبِ وَالْفَنَاءِ فَيَكُونُ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ ومَوْجُودًا مَعْدُومًا وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ- وعرفنا أن الجمع بين النقيضين مما يتنافى مع العقل- وَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ بُطْلَانُ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: بَصَرٌ كَبَصَرِي ويَدٌ كَيَدِي وَنَحْوِ ذَلِكَ تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا- يقول: هذا يُؤخذ منه الرد على المُشَبِّهة والمُمَثِّلة- وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا

اسْتِيفَاءَ مَا يَثْبُتُ لَهُ وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ -الشيخ يقول: ليس المقصود في هذه الرسالة أن نستوفي جميع صفات الكمال الثابتة لله أو نستوفي جميع صفات النقص التي يجب تنزيه الرب سبحانه وتعالى عنه- وَاسْتِيفَاءَ طُرُقِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ هَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى جَوَامِعِ ذَلِكَ وَطُرُقِهِ -يعني يعطينا الأصول والقواعد والأُسس فقط-وَمَا سَكَتَ عَنْهُ السَّمْعُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ وَلَا يَنْفِيهِ سَكَتْنَا عَنْهُ- مثل ما ذكر: الجوهر، الحيّز، الجسم، العرض إلى غير ذلك- فَنُثْبِتُ مَا عَلِمْنَا ثُبُوتَهُ وَنَنْفِي مَا عَلِمْنَا نَفْيَهُ وَنَسْكُتُ عَمَّا لَا نَعْلَمُ نَفْيَهُ وَلَا إثْبَاتَهُ وَاَللَّهُ سبحانه وتعالى أَعْلَمُ» وبهذا انتهى من القاعدة السادسة، لخصها بأن الواجب إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، ونفي ما نفاه الله عن نفسه والسكوت عما سكت الله عنه.

القاعدة السابعة

القاعدة السابعة في الحقيقة أكثر النُسخ لم توردها، وإنما وردت في إحدى نسخ التدمرية؛ ولكن سنمر عليها مرور الكرام؛ لأن غالب ما هو موجود فيها تقدم الكلام عنه، إنما الشيخ لخصه هنا، أول الكلام فيها أراد الشيخ أن يثبت أن السمع دل على السمع ودل على الأدلة العقلية فقط ، ثم انتقل ليلخص لنا بعض المسائل التي مرت وتكلمنا عليها.

«الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ كَثِيرًا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ (السَّمْعُ) يُعْلَمُ (بِالْعَقْلِ) أَيْضًا -يعني كثير مما ثبت بالسمع أيضًا ثبت بالعقل- وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ الْعَقْلُ وَيُرْشِدُ إلَيْهِ»- ولهذا عندنا الأدلة إما أن تكون سمعية محضة، وإما أن تكون سمعية عقلية، وإما أن تكون عقلية.

السمعية العقلية: أن يأتي القرآن بأدلة عقلية -كما سيذكر المؤلف- والقرآن مليء بالأدلة العقلية، فهذه نطلق عليها أدلة سمعية عقلية.

الشيخ يريد أن يرد بهذه القاعدة على جمهور المتكلمين الذين يزعمون أن القرآن والسنة أدلة سمعية بحتة، أدلة خبرية فقط، الشيخ يقول: لا، القرآن والسنة -الوحي -يتضمن الأدلة السمعية الصرفة وأيضًا الأدلة العقلية.

يقول: « إنَّ كَثِيرًا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ (السَّمْعُ) يُعْلَمُ (بِالْعَقْلِ) أَيْضًا، وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ الْعَقْلُ وَيُرْشِدُ إلَيْهِ وَيُنَبِّهُ عَلَيْهِ؛ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا أَرْشَدَ الْعِبَادَ إلَيْهِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ؛ كَمَا بَيَّنَ أَيْضًا مَا دَلَّ عَلَى نُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ؛ وَمَا دَلَّ عَلَى الْمَعَادِ وَإِمْكَانِهِ» يقول: كل هذه المسائل: مسائل الوحدانية، ومسائل النبوة، ومسائل المعاد، كلها أيضًا دل القرآن على أدلة عقلية تُثبت ذلك؛ فالقرآن متضمن لمجموعة من الأدلة العقلية المُثبتة لهذه الأصول العظيمة.

«فَهَذِهِ الْمَطَالِبُ هِيَ شَرْعِيَّةٌ مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ أَنَّ الشَّارِعَ أَخْبَرَ بِهَا وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ بَيَّنَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَيْهَا» يعني هذه المطالب العقلية، الأدلة العقلية هي شرعية من جهتين: من جهة أن الشارع أخبر بها ، ومن جهة أنه بين الأدلة العقلية التي يُستدل بها عليها- وَالْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ (أَقْيِسَةٌ عَقْلِيَّةٌ) وَقَدْ بُسِطَ هذا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ - جميع الأمثال المضروبة في القرآن هي أَقْيِسَة عقلية، هي أدلة عقلية، والقرآن مليء بالأمثلة المضروبة، يقول: - وَهِيَ أَيْضًا عَقْلِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا»

«وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي هَذِهِ (الْأُصُولَ الْعَقْلِيَّةَ) لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهَا لَا تُعْلَمُ إلَّا بِالْعَقْلِ فَقَطْ -مسائل الأُلوهية، ومسائل النبوة، ومسائل المعاد، بعض المتكلمين يزعم أنها مسائل أصول عقلية؛ لأنها لا تُعْلَم إلا بالعقل، وهذا خطأ فادح؛ لأنها تُعلم بالشرع وتُعلم بالعقل- فَإِنَّ السَّمْعَ هُوَ مُجَرَّدُ إخْبَارِ الصَّادِقِ وَخَبَرُ الصَّادِقِ، الَّذِي هُوَ النَّبِيُّ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْأُصُولِ بِالْعَقْلِ» هذا على حد قول هؤلاء المتكلمين الذين أوقفوا صدق نبوة النبي على ثبوت ذلك بالعقل، وهذا خطأ فادح بلا شك.

«ثُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْأُصُولِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ عَلَيْهَا - مسألة: ما هي الأصول العقلية التي ثبتت النبوة بها؟ هم مختلفون، ليسوا بمتفقين على قاعدة واحدة؛ يقول: - (فَطَائِفَةٌ) -وهم المعتزلة- تَزْعُمُ: أَنَّ تَحْسِينَ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحَهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ- الأصول العقلية- وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ بِدُونِ ذَلِكَ- أي بدون إثبات التحسين والتقبيح العقليين -وَيَجْعَلُونَ التَّكْذِيبَ بِالْقَدَرِ مِمَّا يَنْفِيهِ الْعَقْلُ» أيضًا مسألة القضاء والقدر سيأتينا-إن شاء الله- في الأصل الثاني؛ بنوا مسألة نفي القدر على الأدلة العقلية كما زعموا.

«(وطَائِفَةٌ) تَزْعُمُ -هم الأشاعرة - أَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ -أي حدوث العالم لم يُعْلم إلا بالعقل- وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالصَّانِعِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ- أي بإثبات حدوث العالم، يقول: لا يمكن إثبات وجود الله إلا بإثبات أن هذا العالم حادث- وَإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِحُدُوثِ الْأَجْسَامِ- وإثبات حدوث العالم لا يمكن أن يُثبت إلا بحدوث الأجسام، أن الأجسام حادثة -وَحُدُوثُهَا يُعْلَمُ إِمَّا بِحُدُوثِ الصِّفَاتِ ، وَإِمَّا بِحُدُوثِ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِهَا - وما الدليل العقلي على حدوث الأجسام؟ الدليل على أن الصفات القائمة بها حادثة أو الأفعال القائمة بهذه الأجسام حادثة - فَيَجْعَلُونَ نَفْيَ أَفْعَالِ الرَّبِّ وَنَفْيَ صِفَاتِهِ مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ إِلَّا بِهَا» هؤلاء الأشاعرة يذهبون إلى نفي أفعال الرب سبحانه وتعالى بناءً على هذه الحجة العقلية الفاسدة.

«ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى نَقِيضِ قَوْلِهِمْ -يعني موقفهم من أدلة الكتاب والسنة التي تأتي تُخالف هذه الأصول التي قعَّدوها من عند أنفسهم بعقولهم نسجها خيالهم، وإلاَّ لا حقيقة لهذه الأصول، وليست بأصول، موقفهم من نصوص الكتاب والسنة التي تتعارض مع أصولهم، يقول:- لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارِضُ السَّمْعِ- هم يعتقدون أن هناك أدلة عقلية تعارضت مع الأدلة السمعية، ولا شك كما ذكر الشيخ في غير هذا الموضع، هذا مستحيل، ليس عندنا دليل عقلي صحيح يتعارض مع دليل نقلي صحيح- وَهُوَ أَصْلُهُ ؛ فَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ» هم يعتقدون أن النبوة ثبتت بالعقل، إذًا أصل السمع هو العقل، أصل صحة النبي وثبوت صدقة متوقف على العقل، فيجب تقديم العقل على النقل هذه قاعدة عند المتكلمين، وهي قاعدة فاسدة بنوا عليها كثيرًا من عقائدهم الباطلة، وموقفهم من الأدلة السمعية التي عارضت هذه الأدلة التي يزعمون أنها أدلة عقلية إما أن يؤولوها وإما إن يفوضوا الدليل السمعي إما أن يُؤوِّلوا الدليل السمعي (استوى-استولى) وإما أن يُفوضوا، يقولون: الله أعلم بمراده بهذه الآية، نحن نقرؤها ولا نعلم منها شيئًا ، نفوض معناها إلى الله عز وجل ، وتقدَّم الكلام على هذا.

«وَهُمْ أَيْضًا عِنْدَ التَّحْقِيقِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِمْ» حتى إذا وافقت الأدلة أصولهم لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسنة استقلالًا، بل يأخذون أدلة الكتاب والسنة للاستشهاد لا للاعتضاد، بل عمدتهم على الأدلة العقلية.

«وَهَؤُلَاءِ يَضِلُّونَ مِنْ وُجُوهٍ :

(مِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ السَّمْعَ بِطَرِيقِ الْخَبَرِ تَارَةً وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ -يعني أن السمع دل على هذه الأصول: التوحيد والنبوة والمعاد بطريق الخبر المجرد فقط، أن السمع دل على هذه الأصول التي هي محل اتفاق دل عليها بطريق الخبر المجرد- وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بَلْ الْقُرْآنُ بَيَّنَ مِنْ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ - الَّتِي تُعْلَمُ بِهَا الْمَطَالِبُ الدِّينِيَّةُ - مَا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ النَّظَرِ فَتَكُونُ هَذِهِ الْمَطَالِبُ: شَرْعِيَّةً عَقْلِيَّةً» -يقول: من قال لكم؟ القرآن مليء بالأدلة العقلية وأرشد إلى الأدلة العقلية التي تثبت هذه الأصول: المعاد والأُلوهية والنبوة، فهي أدلة شرعية عقلية.

«(ومِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إِلَّا بِالطَّرِيقِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي سَلَكُوهَا وَهُمْ مُخْطِئُونَ قَطْعًا فِي انْحِصَارِ طَرِيقِ تَصْدِيقِهِ فِيمَا ذَكَرُوهُ فَإِنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الرَّسُولِ كَثِيرَةٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ» هم الآن أوقفوا طريق العلم بصدق النبي صلى

الله عليه وسلم على التحسين والتقبيح العقلي، أو على مسألة حدوث العالم؛ وهذا خطأ، بل صدق النبي صلى الله عليه وسلم ثبت بطرق كثيرة متعددة، الشيخ يقول: ليس هذا موضع بسطها أو حصرها، وله كتاب مستقل في ذلك وهو كتاب النبوات.

المحاضرة (٣٣)

لا زال كلام المؤلف – رحمه الله – في كتابه الموسوم بالتدمرية في القاعدة السابعة. وذكرنا في اللقاء السابق رده على أهل الكلام؛ حيث زعموا أن الكتاب والسنة لا دلالة للعقل فيهما، ثم ذكر أن هؤلاء المتكلمين لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسنة على نقيض قولهم؛ لظنهم أن العقل عارض السمع وهو أصله فيجب تقديمه عليه، والسمع إما أن يؤول وإما أن يفوض، ثم ذكر أيضا أنهم عند التحقيق لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسنة على وفق قولهم.

وذكر الوجوه الذي يضل بها هؤلاء في هذه المسألة وهي:

«(منها) ظَنُّهُمْ أَنَّ السَّمْعَ بِطَرِيقِ الْخَبَرِ تَارَةً وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بَلْ الْقُرْآنُ بَيَّنَ مِنْ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ - الَّتِي تُعْلَمُ بِهَا الْمَطَالِبُ الدِّينِيَّةُ - مَا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ النَّظَرِ فَتَكُونُ هَذِهِ الْمَطَالِبُ: شَرْعِيَّةً عَقْلِيَّةً» شرعية من حيث ورودها في الشرع، وعقلية للدلالة العقلية فيها.

«(مِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إلَّا بِالطَّرِيقِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي سَلَكُوهَا، وَهُمْ مُخْطِئُونَ قَطْعًا فِي انْحِصَارِ طَرِيقِ تَصْدِيقِهِ فِيمَا ذَكَرُوهُ» بمعنى أنهم جعلوا هناك طرق يتوقف صدق الرسول عليها، وذكر أن الطرق ليست محصورة فيما ذكره هؤلاء؛ بل ثبوت صدق النبي صلى الله عليه وسلم يعلم بطرق كثيرة .

«(مِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكُوهَا صَحِيحَةٌ وَقَدْ تَكُونُ بَاطِلَةً» بمعنى الطرق التي سلكوها في إثبات ذلك منها ما هو باطل ومنها ما هو صحيح، وهم يظنون أن جميع الطرق التي سلكوها صحيحة.

«(وَمِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ مَا عَارَضُوا بِهِ السَّمْعَ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ وَيَكُونُونَ غَالِطِينَ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ إذَا وُزِنَ بِالْمِيزَانِ الصَّحِيحِ وُجِدَ مَا يُعَارِضُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِنْ الْمَجْهُولَاتِ لَا مِنْ الْمَعْقُولَاتِ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ» ذكر الشيخ أن ما عارضوا به السمع مما يسمونه بالأدلة العقلية في الواقع ما هي إلا مجهولات وليست بأدلة وليست بقواطع –هذه قاعدة عامة– (كل ما عارض السمع فليس بمعقول بل هو مجهول.)

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ (صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى) مَا قَدْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ كَمَا يُعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ وَأَنَّهُ قَادِرٌ وَأَنَّهُ حَيٌّ ؛ كَمَا أَرْشَدَ إلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ –بمعنى أن من الصفات ما يمكن إثباته بالأدلة العقلية وهذا تقدم في رد المؤلف على الأشاعرة في القواعد السابقة– وَقَدْ اتَّفَقَ النُّظَّارُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ: عَلَى أَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ –وكل هذا أيضا تقدم، إثبات هذه الصفات بالأدلة العقلية– بَلْ وَكَذَلِكَ الْحُبُّ وَالرِّضَا وَالْغَضَبُ. يُمْكِنُ إثْبَاتُهُ بِالْعَقْلِ –أي إثبات هذه الصفات يمكن أن تثبت بالعقل خلافًا لظن هؤلاء الأشاعرة أن هذه الصفات لا يمكن إثباتها بالعقل– وَكَذَلِكَ عُلُوُّهُ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمُبَايَنَتُهُ لَهَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ –أي إثبات صفة العلو أيضا قد دل العقل عليه وهذا كما ذكرنا سابقا، ذكره الإمام أحمد في الرد على الجهمية والزنادقة؛ فذكر الأدلة العقلية على إثبات علو الله عز وجل على خلقه– كَمَا أَثْبَتَتْهُ بِذَلِكَ الْأَئِمَّةُ: مِثْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ، وَمِثْلُ : عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَكِّيِّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ» بمعنى أن هؤلاء أثبتوا صفة العلو بالأدلة العقلية.

«بَلْ وَكَذَلِكَ إمْكَانُ الرُّؤْيَةِ : يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ– يعني رؤية الله عز وجل في الآخرة يمكن إثباتها بالعقل إضافة لثبوتها بدلالة السمع– لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ تَصِحُّ رُؤْيَتُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ» الشيخ ذكر دليلين من الأدلة العقلية التي يمكن أن يستدل بها على إثبات رؤية الله عز وجل:

دليلهم الأول: أن كل موجود تصح رؤيته.

دليلهم الثاني: دليل آخر يستدل به الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين ممن يثبت رؤية الله عز وجل في الآخرة الدليل الثاني: «وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ أَصَحُّ مِنْ تِلْكَ» يعني أن الاستدلال بأن كل قائم بنفسه تصح رؤيته أصح من الاستدلال بأن كل موجود تصح رؤيته؛ لأن مثلا: الأعراض موجودة؛ لكن لا تصح رؤيتها مثل: العلم، الحكمة، القدرة، كعرض هذه موجودة؛ لكن لا يلزم أن ترى؛ بخلاف القائم بنفسه فإنه أقرب للمعقول بأن يرى من غيره.

ثم ذكر طريقًا ثالثة أصح من هذين الطريقين:

«وَقَدْ يُمْكِنُ إِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ بِغَيْرِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ -بمعنى أن إثبات الرؤية ليس بمحصور في هذين الدليلين العقليين اللذين يذكرهما أهل الكلام ،بل هناك أدلة أخرى يمكن أن تثبت بها صفة الرؤية- بِتَقْسِيمِ دَائِرٍ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ كَمَا يُقَالُ: إِنَّ الرُّؤْيَةَ لَا تَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ -بمعنى أن الرؤية مرتبطة بالأمور الوجودية فالمعدوم لا يمكن أن يرى بخلاف الأمور الوجودية- فَإِنَّ مَا لَا يَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ يَكُونُ الْمَوْجُودُ الْوَاجِبُ الْقَدِيمُ : أَحَقَّ بِهِ مِنْ الْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ» بمعنى إذا كانت الرؤية تتوقف على الأمور الوجودية فالله عز وجل أعظم الموجودات وأحق الموجودات وأجل الموجودات إذن فتجوز رؤيته، هذه هي صياغة الدليل.

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْأَئِمَّةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ نُظَّارِ السُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ: - يعني الطرق العقلية التي يسلكها أهل السنة - رحمهم الله- في إثبات الصفات لله عز وجل طرق متعددة منها:- أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْصُوفًا بِإِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ: لَلَزِمَ اتِّصَافُهُ بِالْأُخْرَى -هذا دليل عقلي على إثبات صفات الكمال لله عز وجل أنه لو لم يتصف بالحياة لاتصف بضدها الموت، ولو لم يتصف بالسمع لاتصف بضدها الصمم، وهكذا- فَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْحَيَاةِ لَوُصِفَ بِالْمَوْتِ؛ وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْقُدْرَةِ لَوُصِفَ بِالْعَجْزِ؛ وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ لَوُصِفَ بِالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ وَالْبُكْمِ »

«وَطَرْدُ ذَلِكَ- يعني قياسا على ذلك- أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوصَفْ بِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ لَكَانَ دَاخِلًا فِيهِ. -بمعنى لو لم يكن مباين منفصل عن العالم للزم من ذلك أن يتصف بضدها أن يكون داخل العالم؛ لأن الموجودات إما أن تكون داخل العالم أو خارجه هذا الذي يقتضيه العقل- فَسَلْبُ إِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ عَنْهُ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْأُخْرَى» فنحن إذا نفينا عنه إحدى الصفتين ثبتت له الأخرى، فإذا نفينا عنه الموت ثبتت له الحياة وإذا نفينا عنه الصمم ثبت له السمع- وَتِلْكَ صِفَةُ نَقْصٍ يُنَزَّهُ عَنْهَا الْكَامِلُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ -أي: الصفة المنفية الصمم والموت والجهل والعمى هذه صفات نقص، يتنزه عنها المخلوق فالخالق أولى أن يتنزه عنها، فإذا تنزه عن هذه الصفة التي هي صفة نقص لزم من ذلك إثبات ضدها وهي صفة الكمال- فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهَا أَوْلَى وَهَذِهِ الطَّرِيقُ غَيْرُ قَوْلِنَا إِنَّ هَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ يَتَّصِفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ؛ فَالْخَالِقُ أَوْلَى -يعني هذه طريق، وهذه طريق يعني عندنا دليلان عقليان لإثبات صفات الكمال من الأدلة، وهذا ذكر سابقا: أن كل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أولى أن يتصف به، فإذا كانت الحياة صفة كمال بالنسبة للمخلوق فالخالق أولى أن يتصف بها هذه طريق مستقلة، هناك طريقة أخرى وهي أن ثبوت إحدى الصفتين يستلزم نفي الأخرى فإذا نفينا عنه صفة الجهل فيستلزم هذا إثبات صفة العلم- فَإِنَّ طَرِيقَ إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِأَنْفُسِهَا مُغَايِرٌ لِطَرِيقِ إِثْبَاتِهَا بِنَفْيِ مَا يُنَاقِضُهَا» الشاهد أنه يقول: أن الأدلة العقلية على إثبات صفات الكمال هناك أكثر من دليل يمكن إثباتها بها.

إلى هنا نتوقف في القاعدة السابعة، ما بعده تقدم الكلام عليه في أول الكتاب فلا حاجة لتكراره؛ وهي مسألة تقابل السلب والإيجاب، وتقابل العدم والملكة، وهل الله عز وجل قابل لهذه الصفات أو غير قابل وكل هذا الكلام تقدم الحديث عنه. بعد ذلك انتقل الشيخ -رحمه الله- إلى:

الأصل الثاني

«وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ» الشيخ ذكر في أول الرسالة أنه سئل عن أصلين عظيمين سئل عن (التوحيد والصفات) وعن (الشرع والقدر) والجواب عن هذين الأصلين ضُمِّن هذه الرسالة، فكل ما تقدم من الكلام كان منصبًا على الأصل الأول الذي هو التوحيد والصفات، بعد ذلك انتقل إلى الأصل الثاني المسئول عنه وهو التوحيد في العبادات.

«وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي (وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ) -التوحيد في العبادات المقصود توحيد العبادة؛ لأنه يسمى توحيد العبادة، ويسمى توحيد الألوهية، ويسمى توحيد القصد والطلب، والتوحيد الطلبي، فهذه من أسماء هذا النوع من أنواع التوحيد- الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ جَمِيعًا -هذا التوحيد يتضمن الإيمان بالشرع الذي هو الأمر والنهي، ويتضمن أيضا الإيمان بالقدر؛ لأن توحيد العبادة متضمن لتوحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية شامل للإيمان بالقضاء والقدر- فَنَقُولُ: -يعني ما هو هذا التوحيد؟ الآن الشيخ سيتكلم عنه بشيء من التفصيل- لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَقَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)»

هذه الأسطر ذكر فيها الشيخ مراتب القدر الأربع، وهذه المراتب لا يصح الإيمان بالقضاء والقدر إلا بالإيمان بها، فالإيمان بالقضاء والقدر متضمن للإيمان بهذه المراتب الأربع:

الإيمان بالعلم، والإيمان بالكتابة، والإيمان بعموم المشيئة، والإيمان بعموم الخلق، ذكرها -رحمه الله- غير مرتبة وذكر الأدلة عليها، لننظر ونستخرج هذه المراتب من هذه الأسطر: يقول: «فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ -هذه المرتبة الأولى الخلق؛ عموم الخلق، أن كل ما في هذا الوجود فهو مخلوق لله عز وجل بما في ذلك أفعال العباد فالله عز وجل خلق العبد وخلق فعله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يستثنى من هذا شيء، هذه مرتبة من مراتب القدر كما قلت لكم المؤلف لم يلتزم الترتيب- وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ -وهذه عموم مشيئة الله عز وجل أنه لا يقع في هذا الكون إلا ما شاءه الله عز وجل وقدره، إذًا عندنا الخلق والمشيئة ما شاء الله كان بمعنى أن كل ما كان وما يكون في هذا الوجود إنما هو بمشيئة الله عز وجل ثم قال:- وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ» بمعنى هنا إثبات صفة العلم لله عز وجل، ومرتبة العلم أن كل ما سيحدث وما حدث قد سبق في علم الله عز وجل فهو علم ما كان وما يكون وما سيكون بل وما لم يكن لو كان كيف يكون كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ علم الشيء الذي لم يكن لو افترض وكان كيف سيكون، وهذا يدل على عموم علم الله عز وجل.

المحاضرة (٣٤)

تقدم الكلام في الحلقة السابقة على بداية كلام المؤلف عن الأصل الثاني الذي هو الشرع والقدر، وبدأ الكلام في هذا الأصل عن مراتب القدر، وذكر أن مراتب القدر أربع، والتي لا يتم الإيمان بالقدر إلا باستيفاء الإيمان بها وهي:

عموم المشيئة، عموم الخلق، الإيمان بعلم الله عز وجل الشامل لكل المخلوقات، الإيمان بالكتابة.

وتوقفنا على كلام المؤلف حول مرتبة العلم.

«وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَقَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ -علم ما سيكون قبل أن يكون، وهذا كما ذكرنا

سابقا من شمول علم الله عز وجل، وأن علمه شامل لكل شيء الجزئي والكلي لا كما يزعم الفلاسفة أن الله علم الكليات دون الجزئيات، هذا لا يقوله مسلم بل علِمَ كل ما سيكون وما كان وكما ذكرنا بل وعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون- وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ -وهذه هي المرتبة الرابعة بمعنى أن الله عز وجل كتب ما سيكون إلى قيام الساعة، فقد سبقت هذه المقادير وكتبت ودونت في اللوح المحفوظ، فهذه مراتب القضاء والقدر الأربعة.

وعموم القدرية يثبتون العلم والكتابة وينفون عموم المشيئة والخلق، أما قدماء القدرية وهم القدرية الغلاة فكانوا ينكرون العلم والكتابة؛ لكن لما صاح بهم العلماء وكفروهم على هذا القول رجع عامتهم والمتأخرون إلى إثبات العلم والكتابة ونفوا عموم المشيئة والخلق ولهذا قال الإمام الشافعي: (ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا) -كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ - هذه الآية دلت على مرتبتين من مراتب القدر ألا وهما: العلم والكتابة، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ -هذا دليل على إثبات عموم علم الله عز وجل لما كان وما سيكون بما هو في الأرض أو في السماء، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ أي هذا الأمر قد دوّن في كتاب، هذه هي المرتبة الثانية ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾- وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)- وهذا دليل على عموم الخلق، وأيضا مما يستدل به على عموم الخلق قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أما عموم المشيئة فيمكن الاستدلال عليها بقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾- وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ -هنا الكلام عن الأمر بالشرع.

إذًا ليس هناك تناقض كما زعم القدرية بين الأمر بالشرع وبين عموم المشيئة والخلق، بين القدر والشرع، فكما أن المؤمن مطلوب منه الإيمان بقضاء الله وقدره وبعموم مشيئة الله عز وجل وبعموم خلقه فمأمور أيضا بالإيمان بأن الله تعالى أمر بعبادته وحده لا شريك له، وهذه هي الغاية التي خُلِقَ الخلق لأجلها ولهذا كما ذكر المؤلف لقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ -وَبِذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ» أي بهذا الأمر وبهذا الأصل، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو توحيد العبادة أرسل الله الرسل وأنزل الكتب؛ لأن خلاف الأمم كما سيذكر المؤلف جاء في هذا الأمر وهو قضية الإخلاص في عبادة الله عز وجل فالمؤلف هنا يقول: الله عز وجل أمر بعبادته وحده لا شريك له وهذه هي الغاية العظمى الغاية السامية التي طُلِبَ من الخلق من الجن والإنس أن يحققوا ذلك.

«وَعِبَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ وَالْحُبِّ لَهُ» العبادة كما عرَّفها شيخ الإسلام في كتابه العبودية هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالعبادة ليست مقتصرة كما يظنه بعض الناس على هذه الشعائر الظاهرة الصلاة والزكاة والحج ، لا، العبادة أشمل من هذا اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، كل عمل يُحبّه الله ويرضاه فهو عبادة يتقرب الإنسان بهذا العمل لله عز وجل والدليل على ذلك ما ثبت عنه – عليه الصلاة والسلام- أنه قال: (وفي بضع أحدكم صدقة) أعظم ما يأتيه الإنسان متلذذًا به فطرة وجبلة أن يأتي الإنسان شهوته قال: (وفي بضع أحدكم صدقة) ولهذا تعجب الصحابة –رضي الله عنهم- قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته فيكون له فيها أجر قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر) وهذا دليل على أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه .

هذه العبادة تتضمن أمرين :

الأمر الأول: كمال الذل لله عز وجل، كمال الانقياد، كمال الاستكانة لله عز وجل.

الأمر الثاني: كمال الحب له سبحانه وتعالى، بمعنى أن يتعبد الإنسان ربه متذللًا إليه محبة فيه سبحانه وتعالى.

ثم قال : «وَذَلِكَ -أي كمال الذل وكمال الحب- يَتَضَمَّنُ كَمَالَ طَاعَتِهِ -العبادة تتضمن كمال الذل وكمال المحبة، وكمال الذل وكمال المحبة تتضمن كمال الطاعة، فإذا تذللت لإنسان وأحببته فليزم من ذلك أن تستلم له بالطاعة- ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ -بمعنى أن طاعة الله عز وجل مُرتبطة بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا كنت تزعم أنك تُحب الله عز وجل فيلزمك أن تطيعه وطاعته مرتبطة بطاعة رسوله، - **وقد قال تعالى**: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ -هذه هي الغاية من إرسال الرسل أن يطاعوا فيما أمروا به، ليحقق الإنسان حقيقة العبودية لله عز وجل. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ قل إن كنتم تحبون الله: إن كنتم تزعمون أنكم تحبون الله عز وجل فيلزم أن تُثبتوا صدق هذه المحبة بطاعة الرسول، قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني: اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا خطاب من النبي صلى الله عليه وسلم للناس فاتبعوني يحببكم الله.- **وقد قال تعالى**: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ **وقال تعالى**: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾- إذن الشيخ الآن يذكر الأدلة أن دعوة الرسل جميعًا تركزت على دعوة الناس لعبادة الله وحده لا شريك له- **أيضا قوله**: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ - إذًا هذه خلاصة دعوة الرسل وقد ذكر هنا أُولي العزم منهم- **وقال تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)﴾ - هذا هو الشاهد ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾- فَأَمَرَ الرُّسُلَ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَأَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ وَإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا ؛ إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ)»

المؤلف الآن من خلال هذه الأدلة يريد أن يوضح ويبين أن دين الرسل واحد وهو عبادة الله عز وجل ولهذا ذكر هذا الحديث إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإن اختلفت أحكام وتفاصيل الشرائع فيما بيننا ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ لكن أصل الدين أصل الدعوة واحدة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام أراد أن يقرب هذا بمثال قال: (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد) يعني أصل دعوتنا واحدة التوحيد ، توحيد الله عز وجل توحيد العبادة (والأنبياء إخوة لعلات) الإخوة لعلات الذين إخوة لأب بمعنى الأب واحد الأصل واحد والأمهات مختلفات، فالإخوة لأب يقال لهم عند العرب: إخوة لعلات، فالأنبياء حالهم كالإخوة لعلات أصل دينهم واحد وهو الدعوة إلى توحيد الله عز وجل لكن في تفاصيل أحكام الشرع مختلفون فأمهاتهم شتى.

«وَهَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ -هذا الدين الذي اتفق عليه الأنبياء والرسل هو دين الإسلام بمفهومه العام، سيأتينا الإسلام له مفهومان: مفهوم عام ومفهوم خاص، فالأنبياء يتفقون في الإسلام بمفهومه العام- الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ دِينًا غَيْرَهُ لَا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ -ما هو الذي لا يقبله سوى الإسلام، يقول لا يقبل الله دينًا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين- فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ -يذكر الآن المؤلف بعض الأدلة الدالة على أن دين عموم الأنبياء هو الإسلام. فبدأ أولًا بنوح، فقال:- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ **وهذا هو الشاهد** ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ -من القائل؟ نوح عليه السلام، هذا يدل على أن دين نوح هو الإسلام- **وقال عن إبراهيم أبي الأنبياء**: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ هذا هو الشاهد

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ -فدين إبراهيم أيضا الإسلام، ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أيضا إبراهيم ويعقوب أوصوا بهذه الوصية أبناءهم من بعدهم، فما وصيتهم؟- ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقال عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وقال في حواري المسيح: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾ - الآن الشيخ ذكر أدلة على بعض آحاد الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى- ثم ذكر عموم الأنبياء في قوله سبحانه: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ وقال عن بلقيس أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾- إذن هذه الأدلة صريحة في أن دين الأنبياء على وجه العموم هو الإسلام- فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ وَحْدَهُ -

ما معنى الإسلام بمفهومه العام؟ هو الاستسلام لله وحده وهذا يصدق على دعوة جميع الأنبياء - فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا - الإسلام حقيقة هو الاستسلام لله وحده فلو استسلم الإنسان لله ولغيره أيًّا كان هذا الغير: ملكًا، نبيًا، وليًا، حجرًا، شجرًا، حيوانًا، يقول: كان مشركا وليس موحدًا ولا مسلمًا- وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ -من تمرد ولم يستسلم لله عز وجل هذا مستكبر عن عبادته أما الذي استسلم له ولغيره فهو المشرك إذن من الموحد؟ هو الذي استسلم لله وحده لا شريك له- وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَتَهُ وَحْدَهُ - الاستسلام قلنا أن الإسلام هو الاستسلام لله عز وجل، هذا الاستسلام ماذا يتضمن؟ يتضمن أن يعبد وحده ويطاع وحده سبحانه وتعالى وهذا هو حقيقة التوحيد- فَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ - ما هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله عز وجل غيره؟ الاستسلام لله، وما هو الاستسلام لله؟ أن يعبد وحده لا يعبد معه غيره وأن يطاع وحده سبحانه وتعالى فهذا هو الدين الذي لا يقبل الله عز وجل من أحد سواه- وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ - إذًا حقيقة دين الإسلام هو الاستسلام لله وحده بعبادته وحده لا شريك، وطاعته كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، وهذه هي حقيقة دين الرسل ودعوة الرسل، أن يُطاع في كل وقت بفعل ما أمر به فإذا أمر في وقت مثلًا موسى باستقبال بيت المقدس وأمر المسلمين في أول أمرهم باستقبال بيت المقدس في الصلاة فهذا هو دين الإسلام. لماذا؟ لأن دين الإسلام أن يطاع الله عز وجل في كل وقت بحسب ما أمر، ولهذا ضرب الشيخ مثالا:- إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؛ فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ ثُمَّ أَمَرَنَا ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ : كَانَ كُلٌّ مِنْ الْفِعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ» سواء استقبال الصخرة أو استقبال ضد الصخرة استقبال الكعبة كلاهما من الإسلام كيف يكون؟ نحن لا ننظر إلى الفعل؛ بل ننظر إلى الأمر بالفعل، فكون الأمر صادر من الله عز وجل أمرنا بهذا الشيء أو أمرنا بهذا الشيء فكله داخل في الإسلام.

المحاضرة ٣٥

«فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ ثُمَّ أَمَرَنَا ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ : كَانَ كُلٌّ مِنْ الْفِعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ - فلو أن إنسانا لما أمره الله عز وجل في أول الأمر باستقبال بيت المقدس فاستقبل الكعبة كان عاصيًا وليس مطيعًا لله عز وجل، كذلك لو أن إنسانًا لما أمر الله عز وجل الأمر باستقبال الكعبة ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فلو أن إنسان خالف واستقبل بيت المقدس لكان عاصيًا وليس بمطيع- كَانَ كُلٌّ مِنْ الْفِعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ فَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفِعْلَيْنِ - الدين ما هو؟ الطاعة والعبادة سواء في هذا الفعل أو في ذاك الفعل- وَإِنَّمَا تَنَوَّعُ بَعْضِ صُوَرِ الْفِعْلِ وَهُوَ وَجْهة الْمُصَلِّي فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الشِّرْعَةُ وَالْمِنْهَاجُ

وَالْوَجْهةُ وَالْمَنْسَكُ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا كَمَا لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ» إذا كان الرسول يُؤمر بأمر ثم ينسخ هذا الأمر إلى أمر آخر مع أن دينه واحد؛ فكذلك دين عموم الرسل وإن اختلفت الشرائع فأصل دينهم واحد وهو طاعة الله عز وجل وحده لا شريك له، هذا هو الأصل الذي اتفق الرسل عليه وإن اختلفوا في تفاصيل أحكام الشرع، فنجد مثلًا في بعض شرائع الأنبياء: جواز الجمع بين الأختين في النكاح وفي شريعة النبي صلى الله عليه وسلم حرم هذا الأمر، والخلاف في تفاصيل أحكام الشرع كثيرة جدًّا بين الأنبياء وهذه سنة من سنن الله عز وجل في خلقه.

«وَاللهُ تَعَالَى جَعَلَ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ: أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُبَشِّرُ بِآخِرِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ وَآخِرَهُمْ يُصَدِّقُ بِأَوَّلِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ - هذا أيضا وجه من الوجوه وسنذكرها بإيجاز في نهاية الأمر وهذا وجه آخر من الوجوه الدالة على أن دين الرسل واحد، وذلك أن أول الرسل يبشر بآخرهم، المتقدم يبشر بالمتأخر ويؤمن به، فإبراهيم يبشر بمن بعده ويؤمن به ولو لم يره ولو لم يعاصره، وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به؛ فمحمد صلى الله عليه وسلم يصدق برسالة موسى وعيسى ونوح وإبراهيم ويؤمن به، وعيسى عليه السلام يصدق برسالة موسى وإبراهيم ونوح ويؤمن به الدليل على ذلك - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ تَعَالَى :﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ - وهذا دليل على أن المتأخر يصدق بالمتقدم ويؤمن به مصدقا لما تقدم من الكتب- وَجَعَلَ الْإِيمَانَ مُتَلَازِمًا - وهذا هو الأمر الثالث من الأمور الدالة على أن دين الأنبياء واحد، ما معنى ذلك؟ معناه أن من آمن ببعض لزمه الإيمان بالجميع ومن كفر ببعضهم فقد كفر بالجميع، فلا يجوز لإنسان أن يؤمن برسالة المسيح ويكفر برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فالإيمان بهم متلازم، فإذا آمنت بالمسيح فيلزمك الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا آمنت برسالة النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان برسالة المسيح عليه السلام ورسالة موسى ورسالة إبراهيم ورسالة نوح- وَكَفَّرَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ - إذًا الإيمان بهم متلازم أن من كفر بأحدهم فقد كفر بالجميع ومن آمن بأحدهم لزمه الإيمان بالجميع، ذكر الأدلة على هذه القاعدة أن الإيمان بهم متلازم - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ - لأنهم فرقوا آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض، فالله عز وجل حكم عليهم بالكفر، لم يحكم لهم بالإيمان ولو أنهم آمنوا بعشرة بعشرين بمائة من الأنبياء، لكن كونهم كفروا بواحد منهم فقد حكم الله عز وجل عليهم بالكفر- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾

وَقَدْ قَالَ لَنَا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾ - إذًا الله عز وجل أمرنا بالإيمان به وبما أنزل إلينا وما أُنزل إلى الأنبياء من قبلنا؛ لا نُفرق بين أحد منهم نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأيضا من الأدلة قول الله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو أول الرسل، كيف كذبوا المرسلين؟ لكن كونهم كذبوا هذا الرسول فيلزم من هذا أنهم كذبوا بجميع الرسل - فَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ : آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُقِرَّ

بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا ؛ بَلْ يَكُونُ كَافِرًا وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ - من بلغته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم نصرانيًا كان أو يهوديًا أو على أي ملة ولم يؤمن برسالة النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر وليس بمؤمن؛ وإن ادعى الإيمان، وإن ادعى أنه مؤمن برسالة موسى وادعى أنه مؤمن برسالة عيسى وإن ادعى أنه مؤمن برسالة إبراهيم فهذا لا يغني مادام أنه كفر بأحدهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر وليس بمؤمن.

إذًا عندنا ثلاثة أمور تدل على أن دين الرسل واحد ذكرها الشيخ فيما ذكر سابقا:

١- أن حقيقة دعوتهم واحدة وهي حقيقة الإسلام، أصل دعوة الرسل والأنبياء واحد.

٢- أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به.

٣- أن الإيمان بهم متلازم؛ فمن كفر بأحدهم فقد كفر بالجميع ومن آمن بأحدهم لزمه الإيمان بالجميع.

كَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ: - كما ذكر الله عز وجل عن موسى وعيسى فاليهود والنصارى لما أنزل الله عز وجل هذه الآية، قالوا: نحن مسلمون - فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فَقَالُوا: - أي اليهود والنصارى- لَا نَحُجُّ - لأن هذا من الشرائع التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ - حكم عليهم بالكفر؛ لأنهم لم يستسلموا للنبي صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من الحج. - فَإِنَّ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِمَا لَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ حِجِّ الْبَيْتِ ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ) وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَفَةَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾» إذًا عندنا كما سيذكر المؤلف الإسلام له معنى عام وهو الاستسلام لله وحده لا شريك له بأن يطاع في كل وقت بما أمر به، هذا هو الإسلام بمعناه العام؛ لكن هناك الإسلام بمعناه الخاص وهو الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأدلة على هذا النوع من الإسلام قوله سبحانه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فهنا الإسلام المقصود به الإسلام العام أم الخاص؟ الإسلام الخاص الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

«وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أُمَّةِ مُوسَى وَعِيسَى، هَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ لَا؟ - الأمم السابقة التي آمنت بموسى، وآمنت بعيسى وماتت على ذلك قبل أن تدرك بعثة النبي صلى الله عليه وسلم هل يسمون مسلمين؟ هل يطلق عليهم مسلمون أو لا؟ الجواب، الشيخ يقول: - وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ - يعني هل يطلق عليهم اسم الإسلام أو لا؟ يقول: مسألة نزاع لفظ، كيف ذلك؟ - فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْخَاصَّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم - يقول: إن كان المقصود الإسلام بمعناه الخاص كما ذكرت لكم الإسلام يمكن تقسيمه إلى مفهومين: الإسلام بمعناه العام والإسلام بمفهومه الخاص، فإذا كان المقصود بالإسلام الإسلام بالمفهوم الخاص الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم الشريعة التي تضمنها القرآن الكريم فهذا خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم الذي آمنوا به - وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَتَنَاوَلُ هَذَا - إذا أطلق الآن الإسلام بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فالمقصود به الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، لا يأتينا إنسان يقول والله الإسلام لا، الإسلام دين الأنبياء والرسل السابقين أنتم تقولون: أليس الإسلام بمعناه العام هو دين الأنبياء والرسل، إذًا الإسلام في هذه النصوص ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هو دين إبراهيم، هو دين موسى، هو دين عيسى، أو قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يقول هذا هو دين الأنبياء السابقين نقول: لا، إذا أطلق الإسلام بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فالمقصود به اتباع الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم - وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ الْمُتَنَاوِلُ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ بَعَثَ اللهُ بِهَا نَبِيًّا

فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ إِسْلَامَ كُلِّ أُمَّةٍ مُتَّبِعَةٍ لِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - إذًا الخلاف لفظي في أتباع موسى وعيسى السابقين؛ إن كان المقصود بالإسلام يريد الإسلام بمفهومه الخاص فهذا خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فليسوا مقصودين بهذا الاسم، وإن كان لا يقصد الإسلام بمفهومه العام المتناول لكل شريعة جاء بها نبي من الأنبياء نعم فهم مسلمون بالمفهوم العام.

إذًا لو قيل لك: هل هم مسلمون أو ليسوا بمسلمين؟ تقول: مسلمون بالمعنى العام وليس بالمعنى الخاص فقط وهذا هو الجواب.

بعد ذلك انتقل المؤلف إلى ذكر الكلام عن رأس الإسلام ومدار رحاه وقطبه ألا وهو: شهادة ألا إله إلا الله، هذه الشهادة شهادة التوحيد - وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - ولهذا اتفق الأنبياء قاطبةً على دعوة الناس إلى هذه الكلمة، أصل الإسلام ورأسه وقُطبُ رحاه شهادة ألا إله إلا الله - وَبِهَا بُعِثَ جَمِيعُ الرُّسُلِ» بهذه الكلمة، وقبل أن ننتقل لذكر الأدلة الدالة على أن الله بعث جميع الرسل لدعوة الناس لتحقيق هذه الكلمة يحسن أن نذكر معنى هذه الكلمة؛ لأنه سيأتيني من يقول أنت تقول: الله عز وجل بعث الرسل بعبادته وحده لا شريك له، ثم تأتي الآن تقول: الله بعث الرسل بشهادة أن لا إله إلا الله! نقول: النتيجة واحدة لا إله إلا الله هي عبادة الله وحده لا شريك له، كيف ذلك؟ وذلك أن معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله، إذًا معنى لا إله إلا الله تحقيق العبودية لله عز وجل وحده لا شريك له.

المحاضرة (٣٦)

«وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَبِهَا بُعِثَ جَمِيعُ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ - وهذه معنى لا إله إلا الله؛ لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات، نفي كل ما يعبد من دون الله عز وجل، وإثبات جميع أنواع العبادة لله عز وجل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هذا لا إله إلا الله، عبادة الله: إثبات العبودية لله عز وجل ، واجتنبوا الطاغوت: نفي جميع المعبودات أن يصرف لها شيء من أنواع العبادة - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ- هذا معنى لا إله- إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ - هذا معنى إلا الله عز وجل- وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ - هذا معنى لا إله إلا الله، ولهذا ماذا قال الله سبحانه وتعالى؟ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي -هذا لا إله- إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾- هذا معنى إلا الله، كما قلت لكم لا إله إلا الله نفي وإثبات، وهذه الآية تضمنت النفي والإثبات ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ هذا نفي، ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا إثبات- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ - ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ هذا معنى لا إله، ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ هذا معنى إلا الله.- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وَذَكَرَ عَنْ رُسُلِهِ: كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ:﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا (١٥)﴾»

«وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ - كما في سورة النساء، إذًا هذه الأدلة جميعًا تدل على أن الرسل جميعًا جاؤوا لتحقيق العبودية لله وحده -جاؤوا لدعوة الناس إلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له-. ثم قال: وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الشرك هو:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، أما الشرك في توحيد العبادة توحيد الألوهية الذي جاءت به الرسل بأن يصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله سبحانه وتعالى كأن يصرف الدعاء أو الذبح أو النذر أو الاستغاثة يصرف لغير الله فمن صرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله فهو مشرك وليس بموحد، وقد توعده الله عز وجل في هذه الآية أنه لا يغفر له - **وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ الشِّرْكَ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَالشِّرْكَ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَالشِّرْكَ بِالْكَوَاكِبِ ، وَالشِّرْكَ بِالْأَصْنَامِ** - بمعنى أن الله عز وجل ذكر في كتابه أنواع الشرك، وأنواع الشرك كثيرة جدًّا لا حصر لها، فكل عبادة صرفت لغير الله فهي شرك، سواء صرفت لملك أو لنبي أو لولي أو لكوكب أو لجني؛ لأي مخلوق كان، ولهذا ذكر المؤلف نماذج قال: «وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ الشِّرْكَ بِالْمَلَائِكَةِ» بمعنى هناك من جعل الملائكة شركاء لله عز وجل في عبادته- **وَأَصْلُ الشِّرْكِ: الشِّرْكُ بِالشَّيْطَانِ** - بمعنى أن هذا من الشيطان هو الذي دعا الناس إلى عبادة غير الله عز وجل، وهو أعظم ما حظي الشيطان به من طاعة بني آدم، الشيطان لا يهمه كثيرا أن يوقع الإنسان في كبيرة من الكبائر في معصية من المعاصي أن يوقعه في الزنا في شرب الخمر في السرقة في الغيبة في النميمة في التولي يوم الزحف، لا ، نعم هذا أمر محبوب له ويدعو الناس إليه لكن؛ غاية مطلوبه أن يوقع الناس في أعظم ذنب عُصي به الله عز وجل ألا وهو الشرك.- **فَقَالَ عَنْ النَّصَارَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** - بمعنى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح اتخذوهم أربابا من دون الله آلهة من دون الله عز وجل صرفوا لهم أنواعا من العبادة - **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** - ولهذا هناك من أنواع الشرك: الشرك في الطاعة لما سمع عدي بن حاتم الطائي-رضي الله عنه، وكان نصرانيا قبل الإسلام - النبي صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: (يا رسول الله، والله ما عبدناهم) هو -رضي الله عنه- توقع أن العبادة أن تركع أن تسجد أن تدعو فقط ، لا، العبادة أشمل من هذا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى، قال: أليسوا يحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: بلى قال: فتلك عبادتهم) فالعبادة شيء أعظم من هذا فهذا نوع من أنواع الشرك الذي هو الشرك في الطاعة أن يتخذ الإنسان إله من دون الله يحلل له ما حرم الله ويحرم عليه ما أحل الله عز وجل.- **وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾** - إذًا المؤلف -رحمه الله- الآن ذكر شيئا من أنواع الشرك وهو اتخاذ الأحبار والرهبان، أيضا اتخاذ الأنبياء آلهة من دون الله- **وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾** -وهذا دليل أيضا على الشرك بالملائكة- **فَبَيَّنَ أَنَّ اتِّخَاذَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كُفْرٌ وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ شَارَكُوا اللَّهَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**- المؤلف أراد أن يبين في هذه الأسطر على أن الشرك الذي وقع من الأمم السابقة لم يكن في توحيد الربوبية، إنما وقع في توحيد العبادة في توحيد الإلوهية، ولهذا يقول: أنه لم يعهد عن أحد من الخلق أنه زعم واعتقد أن الأنبياء والأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم شاركوا الله في خلق السموات وهذه من خصائص الربوبية، نحن نعرف أن توحيد الربوبية الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق الرازق المحيي أو إفراد الله عز وجل بأفعاله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة إلى آخره، فليس هناك ثمة من زعم أن المسيح خالق مع الله أو أن الملائكة خالقون مع الله عز وجل، كذلك الأحبار والرهبان فهم لم يشركوا في توحيد الربوبية، إنما الشرك وقع في توحيد العبادة.- **شَارَكُوا اللَّهَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. بَلْ وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ** - يعني لم يعهد عن بني آدم أن منهم من اعتقد أن هذا

العالم له خالقان متماثلان متكافئان في الصفات وفي الأفعال - بَلْ وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَهًا مُسَاوِيًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ. - يقول ولا يعرف عن أحد من الخلق أنه أثبت إلها مماثلا لله عز وجل في جميع صفاته، هو بهذا الكلام يمهد الشيخ للرد على المتكلمين الذين لم يرفعوا رأسًا بتوحيد العبادة وصارت الغاية عندهم أن يحقق الإنسان توحيد الربوبية.- وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَهًا مُسَاوِيًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ بَلْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ: مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَرِيكُهُ مِثْلَهُ بَلْ عَامَّتُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّ الشَّرِيكَ مَمْلُوكٌ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا أَوْ كَوْكَبًا أَوْ صَنَمًا ؛ كَمَا كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: (لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك إلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ) فَأَهَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّوْحِيدِ وَقَالَ: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك لَبَّيْكَ إنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَك وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَك) - الشيخ يقول: بل عامة المشركين يعتقدون أن الشريك مملوك لله عز وجل وليس بمساوي لله عز وجل، نعم يجعلونه شريك لله، لكن يجعلونه مملوك، وهذا من تناقضهم وهذا مما أنكره الله عز وجل عليهم وسفه عقولهم فيه، فذكر مثلا على سبيل المثال تلبية المشركين أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الآلهة مملوكة لله عز وجل ليست مستقلة، يقول: بل كانوا يهلون لبيك اللَّهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك -

وَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَابُ الْمَقَالَاتِ: مَا جَمَعُوا مِنْ مَقَالَاتِ الْأَوَّلِينَ والآخرين فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْآرَاءِ وَالدِّيَانَاتِ - يعني ذكر الذين تكلموا عن الملل والنحل والفرق والديانات ممن ألفوا في هذا المجال - فَلَمْ يَنْقُلُوا عَنْ أَحَدٍ إثْبَاتَ شَرِيكٍ مُشَارِكٍ لَهُ فِي خَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ - لم ينقلوا عن أمة من الأمم أنها أثبتت أن هناك شريك لله عز وجل شارك الله في خلق جميع المخلوقات - وَلَا مُمَاثِلَ لَهُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ - وكذلك من كتبوا عن اعتقادات الملل والأمم ومذاهبها أو لا، لم ينقلوا عن أمة من الأمم ولا فرقة من الفرق أنها أثبتت لله عز وجل شريكًا مماثلًا له في جميع صفاته - بَلْ مِنْ أَعْظَمِ مَا نَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الثَّنَوِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْأَصْلَيْنِ - الثَّنَوية هم المجوس، سموا بالثنوية؛ لأنهم يقولون بإلهين اثنين، يقول: غاية أعظم من نقل عنه في هذا الباب أعظم الناس ضلالًا في هذا الباب ما نقل عن الثنوية الذين قالوا بالأصلين: (الظلام والنور)، وَأَنَّ النُّور خَلَقَ الْخَيْرَ، هنا الشاهد يعني هؤلاء الثنوية أيضاً لم يجعلوا النور والظلمة سواء؛ بل جعلوا النور هو إله الخير وهو خالق النور، ولهذا هو أعظم وأعلى وأجل قدر من إله الظلمة الذي هو الشر - النُّورِ والظُّلْمَةِ وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الْخَيْرَ ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتْ الشَّرَّ ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ فَتَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ - بمعنى أنها مخلوقة للنور، إذن مملوكة للنور - وَالثَّانِي: أَنَّهَا قَدِيمَةٌ - هناك طائفة قالت: لا، الظلمة إله الشر الظلمة قديمة - لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ إلَّا الشَّرَّ فَكَانَتْ نَاقِصَةً فِي ذَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَمَفْعُولَاتِهَا عَنْ النُّورِ - بمعنى أن النور أكمل في ذاتها وفي صفاتها وفي أفعالها من إله الشر - وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْمَخْلُوقَاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ - الآن المؤلف يسوق الأدلة الدالة على أن المشركين الذين بُعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم وقاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم وحكم بكفرهم وشركهم أنهم كانوا يقرون ويعترفون بتوحيد الربوبية الذي سيبين المؤلف أن عامة المتكلمين والنظار يجعلونه هو الغاية مَن حققه حقق التوحيد، الشيخ يريد أن يبين لهم أن هذا غير كافي - وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْمَخْلُوقَاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ - إذًا الله عز وجل يقول: لئن سألت المشركين من خلق السموات والأرض؟ الجواب: سيقولون: الله. - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ وَقَالَ تَعَالَى

: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾» وهذه الآية دليل على أنهم يؤمنون بالله لكنهم يشركون معه كما قال ابن عباس وغيره.

«وَبِهَذَا وَغَيْرِهِ - هذا هو الشاهد، أو هذا الشيء الذي سيبين المؤلف السبب الذي أورد فيه هذه المسألة: أن المشركين كانوا يعترفون ويقرون بتوحيد الربوبية، وأنه لم ينقل عن أحد من الأمم أنه أثبت شريكًا مساويًا لله عز وجل في عبادته أو في صفاته - يُعْرَفُ مَا وَقَعَ مِنْ الْغَلَطِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ - بمعنى أن هناك من الطوائف والفرق والمذاهب من أخطأت في تحديد مسمى التوحيد ما هو التوحيد - فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ - المتكلمون الذين هم: الأشاعرة، المعتزلة، الكلابية، الجهمية ومن حذا حذوهم - الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ التَّوْحِيدَ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ - كتب المتكلمين؛ وكتب المتكلمين كثيرة جدًّا يقررون أي نوع من أنواع التوحيد؟ - غَايَتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا التَّوْحِيدَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ - أقسام التوحيد عند المتكلمين ثلاثة أنواع، وأقسام التوحيد عند عامة أهل السنة: توحيد الألوهية، توحيد الربوبية، توحيد الأسماء والصفات، أهم هذه الأنواع وأصلها وغايتها والذي اتفق الأنبياء على تحقيقه هو توحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية هو الأصل في الخلق، ولا يعرف أحد من الخلق أنه أنكره، هؤلاء المتكلمون جعلوا التوحيد ثلاثة أقسام ما هي هذه الأنواع؟ -

فَيَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ –

أنواع التوحيد عند المتكلمين ثلاثة: واحد في صفاته لا شبيه له ، واحد في ذاته لا قسيم له ، واحد في أفعاله لا شريك له.

أين توحيد العبادة من أنواع التوحيد هذه؟

لا وجود له عندهم، أعظم أنواع التوحيد الذي اتفقت الرسل في تحقيقه ودعوة الناس إليه لا وجود له عند المتكلمين-

وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ، وَهُوَ (تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ) وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا» أشهر أنواع التوحيد هذه الثلاثة عندهم: توحيد الربوبية -توحيد الأفعال- إفراد الله عز وجل بأفعاله هذا هو الغاية عندهم من حققه فقد حقق غاية التوحيد؛ وبهذا يلزم على حد قول هؤلاء أن يكون المشركون الذين بعث فيهم النبي عز وجل قد حققوا التوحيد لأنهم كانوا يؤمنون بهذا القدر.

المحاضرة (٣٧)

لا زال الحديث في الأصل الثاني من الأصلين اللذين ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه التدمرية.

«وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ وَهُوَ (تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ) وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا -أي يحتجون على هذا النوع بدليل التمانع، وهذا سبق أن أخذتموه في المستويات الأول، ودليل التمانع المشهور عندهم أنه لو أُفترض أن للعالم صانعان أو ربّان وأراد أحدهما تحريك جسم وأراد الآخر تسكينه أو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فإما أن يحصل مرادهما جميعًا وهذا مستحيل؛ لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن لا يحصل مرادهما جميعًا وهذا أيضًا مستحيل؛ لأنه رفع للنقيضين، ولأنه يدل عجزهما والعاجز لا يصلح أن يكون إلهًا، وإما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر وهو الإله الحق. الشيخ يقول: يستدلون على هذا النوع من أنواع التوحيد بدلالة التمانع –

وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمَطْلُوبُ- يعتقدون أن التوحيد المطلوب من الناس أن يحققوه توحيد الأفعال، توحيد الربوبية-

وَأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ- هم يزعمون أن معنى لا إله إلا الله لا خالق إلا الله أو لا صانع إلا الله. ونحن نقول أن معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله، تحقيق العبودية لله عز وجل- حَتَّى قَدْ يَجْعَلُوا مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِرَاعِ- معنى الإله عند المتكلمين ما هو؟ الألوهية عندهم القدرة على الاختراع.

إذًا خطأ المتكلمين في توحيد الربوبية:

الخطأ الأول: ظنهم أنه هو المطلوب من المكلفين، وهو المقصود بدعوة الرسل، فيزعمون أن هذا هو النوع المطلوب تحقيقه من المكلفين وهو المقصود بدعوة الرسل.

الخطأ الثاني: ظنهم أن هذا التوحيد هو معنى لا إله إلا الله، إذ معنى لا إله إلا الله لا خالق إلا الله.

الخطأ الثالث:أنهم جعلوه هو الغاية وأهملوا توحيد العبادة فلا وجود له عندهم. -

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْعَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا : لَمْ يَكُونُوا يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِالْقَدَرِ أَيْضًا وَهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ» هذا دليلٌ سهلٌ ويسيرٌ في الرد على هؤلاء في كونهم جعلوا الغاية تحقيق توحيد الربوبية يُقال لهم: المشركون الذين بُعث لهم النبي صلى الله عليه وسلم وقاتلهم وكفرهم كانوا يقرون ويعترفون بهذا النوع من أنواع التوحيد، ومع ذلك لم يشفع لهم هذا الإقرار.

«فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَنْ يُنَازِعُ فِي أَصْلِ هَذَا الشِّرْكِ-أيُّ الشرك؟ الشرك في الربوبية، أي ليس هناك من ينازع أن ليس للعالم خالقين متكافئين أو إثبات مثيل مشارك لله تعالى في خلق السموات والأرض، ليس هناك من ينازع في هذه القضية.- وَلَكِنْ غَايَةُ مَا يُقَالُ: إنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْمَوْجُودَاتِ خَلْقًا لِغَيْرِ اللَّهِ- أقصى ما يقال في هذا الأمر في توحيد الربوبية أن هناك طائفة من الناس جعلوا بعض المخلوقات خلقًا لغير الله عز وجل كما زعمت القدرية أن الإنسان يخلق فعل نفسه - كَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْعِبَادِ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إنَّهُمْ خَلَقُوا أَفْعَالَهُمْ - يقول: ومع ذلك هؤلاء القدرية كانوا يعترفون ويقرون أن الله هو وحده الذي خلق الخلق، وخلق قدراتهم التي خلقوا بها أفعالهم.- وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبْعِ وَالنُّجُومِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَنَّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ مُبْدِعَةٌ لِبَعْضِ الْأُمُورِ هُمْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِالصَّانِعِ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْفَاعِلَاتِ مَصْنُوعَةً مَخْلُوقَةً - بمعنى يقول: كذلك الفلاسفة وأهل الطبائع ومن يعبدون ومن يعظمون النجوم يجعلون بعض المخلوقات من صنع هذه الكواكب، يقول فهم مع الإقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة أي بمعنى هذه الكواكب ما هي إلا مصنوعة ومخلوقة لله عز وجل- وَلَا يَقُولُونَ إنَّهَا غَنِيَّةٌ عَنْ الْخَالِقِ مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي الْخَلْقِ . فَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الصَّانِعَ فَذَاكَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ لِلصَّانِعِ كَالْقَوْلِ الَّذِي أَظْهَرَ فِرْعَوْنُ -يعني من أنكر الصانع كليةً فهذا جحد وتعطيل، وهذا لم ينقل إلا عن شرذمة من الخلق ممن خالفوا عموم الخلق، كما صنع فرعون لما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ومع ذلك أثبت الله عز وجل أنه كان مقرًا معترفًا في قرارة نفسه بالله عز وجل ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ ولما أدركه الغرق قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ - وَالْكَلَامُ الْآنَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِاَللَّهِ الْمُقِرِّينَ بِوُجُودِهِ - يقول: الكلام ليس مع الجاحدين الآن؛ الكلام مع المشركين المقرين بوجود الله عز وجل.- فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ - توحيد الربوبية- الَّذِي قَرَّرُوهُ -أي المتكلمون - لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بَلْ يُقِرُّونَ بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَكَمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ» من أن المشركين كانوا يقرون ويعترفون بهذا النوع من أنواع التوحيد، إذن تقرير المتكلمين لتوحيد الربوبية الذي يسمونه توحيد الأفعال لا يصلح أن يُرد به على المشركين في توحيد العبادة؛ لأنهم يؤمنون هم بتوحيد الربوبية، كما لا يصلح أن يُرد به على الجاحد المعطل للخالق؛ لأنه يدعي عدم وجود خالق أصلاً؛ لا واحد ولا أكثر من ذلك، فضلاً أن يثبت له شريكًا .

الشيخ الآن ناقشهم في النوع الثالث من أنواع التوحيد الذي هو: واحد في أفعاله لا شريك له .

الآن ينتقل ويناقش هؤلاء المتكلمين في النوع الثاني وهو قولهم: أن الله واحد في صفاته لا شبيه له.

«وَكَذَلِكَ (النَّوْعُ الثَّانِي) - وَهُوَ قَوْلُهُمْ : لَا شَبِيهَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ - فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا مُمَاثِلًا لَهُ فِي ذَاتِهِ سَوَاءٌ-

الشيخ يريد أن يبين أن أنواع التوحيد الذي قرره هؤلاء المتكلمين لا يخالف فيها أحد من الأمم ولهذا وجود هذه الأنواع وعدمها سواء. المطلوب أن تذكر أنواع من التوحيد تطلب من الناس أن يقروا بها، ويعترفوا بها؛ لأن هناك من يجحد وينكر هذا الأمر. فالشيخ ذكر في الأول توحيد الأفعال عندهم وذكر أن ليس هناك من يخالف فيه؛ ثم الآن ذكر التوحيد الثاني أن الله واحد في صفاته لا شبيه له- قَالَ إِنَّهُ يُشَارِكُهُ ، أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ ؛ بَلْ مَنْ شَبَّهَ بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَإِنَّمَا يُشَبِّهُهُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ - يقول: ليس هناك من الأمم من أثبت لله شبيهًا مماثلًا له في كل الصفات وإنما وقع التشبيه في بعض الأفعال أو في بعض الصفات - وَقَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ امْتِنَاعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ -عرفنا بالدليل العقلي - يُشَارِكُهُ فِيمَا يَجِبُ أَوْ يَجُوزُ أَوْ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ . - لأنه يستلزم أن تثبت للمخلوق صفات الخالق وللخالق صفات المخلوق فيجتمع النقيضان، يكون الشيء ممكن واجب في آن واحد ويكون هنا ممكن واجب في آن واحد.- وَعُلِمَ أَيْضًا بِالْعَقْلِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ قَائِمَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا فَلَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرَكٍ - ذكر الشيخ فيما سبق أنه لابد من وجود قدر مشترك بين أي موجودَين كائنًا ما كان.- كَاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ وَالذَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّ نَفْيَ ذَلِكَ -أي نفي القدر المشترك- يَقْتَضِي التَّعْطِيلَ الْمَحْضَ وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ» ولا حاجة لإعادته مرة أخرى، هذا الكلام كله تكلم عنه الشيخ بإسهاب وتكلمنا ووضحنا هذا الكلام.

« ثُمَّ إنَّ الجهمية مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ أَدْرَجُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ - عند المعتزلة وغيرهم من أصحاب التجهم أن من التوحيد نفي الصفات ولهذا من أثبت لله شيئًا من الصفات فعندهم هو مشبه ليس موحد - فَصَارَ مَنْ قَالَ : إنَّ لِلَّهِ عِلْمًا أَوْ قُدْرَةً أَوْ إنَّهُ يُرَى فِي الْآخِرَةِ أَوْ إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ يَقُولُونَ : إنَّهُ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ فَنَفَوْا أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى - يعني التوحيد عند الجهمية والقرامطة والفلاسفة ما هو؟ نفي أسماء الله الحسنى - وَقَالُوا : مَنْ قَالَ إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ: فَهُوَ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ - إذًا المعتزلة من أثبت شي من الصفات فهو مشبه ليس بموحد، الجهمية ومن حذا حذوهم من أثبت شيئًا من الأسماء فهو مشبه ليس بموحد - وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْغُلَاةِ وَقَالُوا : لَا يُوصَفُ بِالنَّفْيِ وَلَا الْإِثْبَاتِ ؛ لِأَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا تَشْبِيهًا لَهُ -وهذا كما تقدم الكلام أنهم لا يثبتون الإثبات لا يصفون الله عز وجل بالنفي ولا بالإثبات؛ لأنه يلزم على حد قولهم التشبيه بالموجودات والمعدومات.- وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ - هذه الفرق المعتزلة والجهمية والقرامطة والغلاة وغلاة الغلاة - وَقَعُوا مِنْ جِنْسِ التَّشْبِيهِ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ - هم الآن فروا من التشبيه خوفا من التشبيه ووقعوا في التشبيه وهذا أيضا تقدم الكلام عليه- فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ فِرَارًا مِنْ تَشْبِيهِهِمْ - بِزَعْمِهِمْ - لَهُ بِالْأَحْيَاءِ - وهذا تقدم الكلام عليه - وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةَ لِلَّهِ لَا تَثْبُتُ لَهُ عَلَى حَدِّ مَا يَثْبُتُ لِمَخْلُوقٍ أَصْلًا - يقول: نحن إذا أثبتنا لله عز وجل هذه الصفات لا نثبتها لله على الوجه الذي هو ثابت للمخلوق، نحن نقول: لله سمع؛ لكن سمع يليق به ، الله مستو على عرشه استواء يليق به سبحانه - وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ إثْبَاتِ الذَّاتِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إثْبَاتِ الذَّاتِ إثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لِلذَّوَاتِ : لَمْ يَكُنْ فِي إثْبَاتِ الصِّفَاتِ إثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لَهُ فِي ذَلِكَ فَصَارَ هَؤُلَاءِ الجهمية الْمُعَطِّلَةُ يَجْعَلُونَ هَذَا تَوْحِيدًا - يجعلون نفي الصفات أو نفي الأسماء - يجعلون التعطيل- توحيد -وَيَجْعَلُونَ مُقَابِلَ ذَلِكَ التَّشْبِيهَ، وَيُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ الْمُوَحِّدِينَ» من أثبت لله شي من الصفات قالوا: أنه مشبه ليس بموحد.

انتهى من الكلام على النوع الأول والثاني توحيد الله في الأفعال وتوحيد الله في الصفات، الآن سيناقشهم في النوع الثالث أن الله واحد في ذاته لا قسيم له.

«وَكَذَلِكَ (النَّوْعُ الثَّالِثُ) وَهُوَ قَوْلُهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ أَوْ لَا جُزْءَ لَهُ أَوْ لَا بَعْضَ لَهُ ؛ لَفْظٌ مُجْمَلٌ - يقول: الكلام في

هذا التوحيد لفظ مجمل، لابد من التفصيل؛ لأجل أن يتبين الحق من الباطل- فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ؛ فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَرَّقَ أَوْ يَتَجَزَّأَ أَوْ يَكُونَ قَدْ رُكِّبَ مِنْ أَجْزَاءٍ - يقول: هذا نسلم به أن الله واحد أحد فرد صمد لا يمكن أن يتجزأ، لا يمكن أن يتبعض، وليس بمركب؛ لأجل أن يكون قابل للتجزؤ، هل يريدون هذا المعنى؟ لا - لَكِنَّهُمْ يُدْرِجُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ نَفْيَ عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ - أدرجوا في هذا النوع من أنواع التوحيد نفي صفة العلو؛ لماذا؟ لأن عندهم إثبات العلو يستلزم أن الله جسم، والجسم مركب . إذًا إذا أردت أن توحد الله عز وجل فانف عنه صفة العلو - لَكِنَّهُمْ يُدْرِجُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ نَفْيَ عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ وَمُبَايَنَتَهُ لِخَلْقِهِ وَامْتِيَازَهُ عَنْهُمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الْمُسْتَلْزِمَةِ لِنَفْيِهِ وَتَعْطِيلِهِ وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ التَّوْحِيدِ - الشيخ يقول نفي العلو يستلزم نفيه سبحانه والقول بأنه عدم وتعطيله سبحانه ويجعلون هذا توحيدًا - فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُسَمُّونَهُ (تَوْحِيدًا) فِيهِ مَا هُوَ حَقٌّ ، وَفِيهِ مَا هُوَ بَاطِلٌ - هذه الأقسام الثلاثة تتضمن حق وتتضمن باطل - وَلَوْ كَانَ جَمِيعُهُ حَقًّا فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ إذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَقَاتَلَهُمْ عَلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفُوا أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ- يقول: لو افترضنا أن جميع هذه الأقسام الثلاثة حق وجاءنا إنسان واعترف بهذه الأقسام الثلاثة فإن هذا لا يدخله في التوحيد، ولا يستفيد منه المشركون، بل لابد من تحقيق توحيد العبادة الذي هو لا إله إلا الله - وَلَيْسَ الْمُرَادُ (بِالْإِلَهِ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ) - هم زعموا الآن أن معنى لا إله إلا الله القدرة على الاختراع ومعنى الإله هو القادر على الاختراع - كَمَا ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ دُونَ غَيْرِهِ وَأَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ دُونَ غَيْرِهِ فَقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ - عندهم معنى لا إله إلا الله أن تشهد أن الله قادر على الاختراع - فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهَذَا - يقرون بأن الله قادر على الاختراع وهو الخالق الرازق وحده سبحانه - وَهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ - يعني لم يستفيدوا من هذا الإقرار- بَلْ الْإِلَهُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِأَنْ يُعْبَدَ فَهُوَ إلَهٌ بِمَعْنَى مَأْلُوهٍ - إذًا الشيخ الآن يرد عليهم ليس معنى الإله القدرة على الاختراع؛ بل معنى إله من ألَه فهو إله بمعنى مألوه، أي: معبود، وفي اللغة العربية يأتي الفعل ويأتي الأمر على وزن فعال ويكون معناه على وزن مفعول مثل إمام مؤتم به، ركاب يعني مركوب، فإله معناه مألوه أي معبود - لَا إلَهَ بِمَعْنَى آلِهٍ ؛ وَالتَّوْحِيدُ أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْإِشْرَاكُ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ» .إذًا معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله.

«وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ غَايَةَ مَا يُقَرِّرُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ ؛ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ لِلْقَدَرِ الْمُنْتَسِبُونَ إلَى السُّنَّةِ إنَّمَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَعَ هَذَا فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ - يقول: أيضًا المتصوفة غاية ما عندهم أن يحقق الإنسان توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية كما تقدم الإقرار والاعتراف به لا ينجي من عذاب الله وحده؛ بل لابد معه من الاعتراف والإقرار بتوحيد الألوهية - وَأَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ» بمعنى أن هؤلاء الصوفية الغاية عندهم أن يحقق وأن يقرر أن الله وحده هو خالق كل شيء وربه ومليكه.

المحاضرة (٣٨)

كان الكلام في الحلقة السابقة عن التوحيد عند الصوفية وأن الغاية عندهم أن يشهد الإنسان ويحقق توحيد الربوبية.

«وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ - أي توحيد الربوبية وهو:- وَأَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ لَا سِيَّمَا إذَا غَابَ الْعَارِفُ عندهم بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى

مَنْ لَمْ يَزَلْ - هذه مصطلحات الصوفية - إِذَا غَابَ الْعَارِفُ بِمَوْجُودِهِ -الذي هو الله- عَنْ وَجُودِهِ - أي وجود نفسه ووجود المخلوقات - وَبِمَشْهُودِهِ - الذي هو الله- عَنْ شُهُودِهِ- شهود المخلوقات- وَبِمَعْرُوفِهِ -أي هو الله- عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ -أي جميع المخلوقات والموجودات هي التي لم تكن ثم كانت- وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ - الذي هو الله عز وجل، الشاهد من هذا الكلام؛ أنهم يفنون في تحقيق توحيد الربوبية؛ هذه الغاية أنك تشهد أن الله وحده هو الخالق الرازق المحيي المميت النافع الضار إذا وصلت إلى هذا القدر فقد حققت غاية التوحيد عندهم - فَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا هُوَ تَحْقِيقُ مَا أَقَرَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ التَّوْحِيدِ - يقول هذا ما فيه جديد، المشركون الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم مقرون معترفون بهذا النوع - وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ بِمُجَرَّدِ هَذَا التَّوْحِيدِ مُسْلِمًا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لِلَّهِ أَوْ مِنْ سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ - هؤلاء يزعمون أن الإنسان إذا أقر هذا النوع من التوحيد فقد وصل إلى أعلى درجات العبادة - وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ: يُقَرِّرُونَ هَذَا التَّوْحِيدَ مَعَ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ فَيَفْنَوْنَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ إثْبَاتِ الْخَالِقِ لِلْعَالَمِ الْمُبَايِنِ لِمَخْلُوقَاتِهِ - يعني بعض المتصوفة إضافة إلى إثبات توحيد الربوبية فهم يثبتون لله عز وجل الصفات ويفنون في تحقيق هذا النوع من التوحيد - وَآخَرُونَ يَضُمُّونَ هَذَا إلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ فَيَدْخُلُونَ فِي التَّعْطِيلِ مَعَ هَذَا- يعني بعضهم يقر بالصفات، وبعضهم لا، مع الإثبات يعطل الصفات، يقول الشيخ: فيدخلون في التعطيل - وَهَذَا شَرٌّ مِنْ حَالِ كَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ» لأن المشركين كانوا يقرون بالصفات ويثبتون توحيد الربوبية وإنما الإشكال عندهم أنهم لم يقروا بتوحيد العبادة .

«وَكَانَ جَهْمٌ يَنْفِي الصِّفَاتِ وَيَقُولُ بِالْجَبْرِ - الشيخ الآن يذكر شيئًا من ضلالات الجهم بن صفوان أنه يقول: بنفي الصفات إضافة للأسماء، ويقول بالجبر في الأفعال أن الإنسان مجبور على فعل نفسه - فَهَذَا تَحْقِيقُ قَوْلِ جَهْمٍ؛ لَكِنَّهُ إذَا أَثْبَتَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ فَارَقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ - بمعنى الآن الجهم بن صفوان يخالف المشركين ويتفق معهم في إثبات توحيد الربوبية؛ لكنه إذا أثبت الأمر والنهي وهو الشرع وأثبت الثواب والعقاب خالف المشركين من هذا الوجه- لَكِنَّ جَهْمًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ يَقُولون بِالْإِرْجَاءِ -إذًا الجهم عنده مجموعة من الضلالات نفي الصفات، القول بالجبر، القول بالإرجاء، والإرجاء هو تأخير العمل عن مسمى الإيمان- فَيَضْعُفُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عِنْدَهُ - مع أنه يثبت الأمر والنهي والثواب والعقاب؛ لكنه يقول بالجبر فيضعف الأمر والنهي عنده والثواب والعقاب،كيف ذلك؟ إذا قال: والله أنا أفعل هذه المعصية؛ لأن الله جبرني على هذا الأمر، ثم قال: إنه لا يضر مع الإيمان معصية ولهذا يفعل المعاصي، لا يضر مع الإيمان كبيرة فهو يفعل الكبائر، فيضعف الثواب والعقاب عندهم - والنجارية والضرارية وَغَيْرُهُمْ يَقْرَبُونَ مِنْ جَهْمٍ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ، مَعَ مُقَارَبَتِهِمْ لَهُ أَيْضًا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ - والنجارية أتباع أبي عبد الله الحسين بن محمد النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو القاضي- يَقْرَبُونَ مِنْ جَهْمٍ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ - فهم جبرية- وَالْإِيمَانِ فهم مرجئة؛ لأن مذهب الجهم في مسألة الإيمان الإرجاء - مَعَ مُقَارَبَتِهِمْ لَهُ أَيْضًا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ -إذًا النجارية والضرارية شاركوا الجهم بن صفوان في القول بالجبر والقول بالإرجاء والقول بنفي الصفات.

الشيخ الآن خلال هذه الأسطر يوازن، يباين بعض فرق أهل الضلال:-

والكلابية وَالْأَشْعَرِيَّةُ: خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ - خير من الضرارية والنجارية والجهمية في باب الصفات؛ لماذا؟- فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ لِلَّهِ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةَ -الصفات السبع التي تقدم الكلام عليها- وَأَئِمَّتُهُمْ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ فِي الْجُمْلَةِ - أي: المتقدمون من أئمتهم كأبي الحسن الأشعري والباقلاني وغيرهما يثبتون بعض الصفات الخبرية خاصةً الثابتة في القرآن كالوجه واليدين ونحو ذلك؛ لكن جمهور الأشاعرة يخالفون فينفون ماعدا الصفات السبع- كَمَا فُصِّلَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَأَمَّا فِي بَابِ الْقَدَرِ وَمَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ فَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ -أي متقاربة مع قول جهم والضرارية والنجارية؛ لماذا؟ في مسألة القدر يقولون بالكسب، والكسب نوع حقيقةً من الجبر؛ لأنه لا حقيقة له، ومسائل الأسماء، أيضًا عندهم شيء من الإرجاء

فهم في مسألة القدر ومسألة الأسماء والأحكام، يشابهون الجهمية والضرارية والنجارية؛ لكن في باب الصفات هم أفضل لأنهم يثبتون سبع صفات وأولئك ينفون جميع الصفات-

والكلابية هُمْ أَتْبَاعُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ الَّذِي سَلَكَ الْأَشْعَرِيُّ خُطَّتَهُ - بمعنى أنه أسبق من الأشعري والأشعري تبعه في بعض المسائل- وَأَصْحَابُ ابْنُ كِلَابٍ كَالْحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ القلانسي وَنَحْوِهِمَا خَيْرٌ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي هَذَا - خيرٌ منهم في باب الصفات وفي باب الإرجاء باب الأسماء والأحكام وفي باب القدر- فَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ إلَى السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَقْرَبَ كَانَ قَوْلُهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ - وهذه قاعدة عامة كلّما كان الإنسان أقرب إلى السلف في أقواله في منهجه كلما كان أفضل وأحسن، يعني المخالفون للسلف ليسوا على درجة واحدة، كما أن الكفار أيضًا ليسوا على درجة واحدة، ولهذا أهل البدع منهم من أوغل في بدعته وغلا في بدعته فالجهمية أسوأ حالًا من المعتزلة والمعتزلة أسوأ حالًا من الأشاعرة، فالأشاعرة أقرب إلى أهل السنة من المعتزلة، والمعتزلة أقرب إلى أهل السنة من الجهمية وهكذا-

والكرامية - أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام قولهم في الإيمان قول منكر - قَوْلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ قَوْلٌ مُنْكَرٌ لَمْ يَسْبِقْهُمْ إلَيْهِ أَحَدٌ حَيْثُ جَعَلُوا الْإِيمَانَ قَوْلَ اللِّسَانِ وَإِنْ كَانَ مَعَ عَدَمِ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ فَيَجْعَلُونَ الْمُنَافِقَ مُؤْمِنًا؛ لَكِنَّهُ يَخْلُدُ فِي النَّارِ فَخَالَفُوا الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ دُونَ الْحُكْمِ - يقول: قولهم في الإيمان قول شنيع؛ لماذا؟ لأنهم جعلوا الإيمان فقط النطق باللسان، وترتب على هذا أن المنافقين عندهم مؤمنون ،والله عز وجل ذكر أن المنافقين منافقين وليسوا بمؤمنين ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ففصل بين المنافقين والمؤمنين، هؤلاء يسمون المنافقين مؤمنين - وَأَمَّا فِي الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ وَالْوَعِيدِ فَهُمْ أَشْبَهُ مِنْ أَكْثَرِ طَوَائِفِ الْكَلَامِ الَّتِي فِي أَقْوَالِهَا مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ» بمعنى أنهم أقرب، الكرامية في مسألة القدر والوعد والوعيد هم أقرب لأهل السنة من الطوائف الأخرى.

«وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَهُمْ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ وَيُقَارِبُونَ قَوْلَ جَهْمٍ - يعني يوافقون جهم في القول بنفي الصفات - لَكِنَّهُمْ يَنْفُونَ الْقَدَرَ - بمعنى ينفون عموم مشيئة الله وعموم خلقه - فَهُمْ وَإِنْ عَظَّمُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ ؛ وَغَلَوْا فِيهِ، فَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ فَفِيهِمْ نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ مِنْ هَذَا الْبَابِ - هم يعظمون الأمر والنهي والوعد والوعيد لكنهم يغلون في ذلك حتى يخرجوا إلى القول بنفي القدر - فَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ فَفِيهِمْ نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ مِنْ هَذَا الْبَابِ - كيف وقع فيهم الشرك؟ لأنهم جعلوا مع الله خالقين، قالوا أن الإنسان يخلق فعل نفسه فهذا نوع من أنواع الشرك - وَالْإِقْرَارُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مَعَ إنْكَارِ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ مَعَ إنْكَارِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.-

الشيخ الآن يقارن بين المعتزلة والجهمية:

يقول: المعتزلة خير من الجهمية؛ لماذا؟

لأنهم يقرون بالأمر والنهي والوعد والوعيد وإن كانوا يكذبون بالقدر، بخلاف الجهمية يثبتون القدر لكنهم يكذبون بالأمر والنهي والوعد والوعيد. -

وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَنْ يَنْفِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ -

الشيخ الآن يبيّن الميزان الذي نعرف أن القدرية أخف بدعة من الجهمية:

القدرية ظهروا قبل الجهمية ظهروا في زمن الصحابة، وكلما كلما كانت البدعة أقرب إلى زمن النبوة كلما كانت أخف، وكلما ابتعد ظهورها عن زمن النبوة كلما كانت أسوأ، وهذه قاعدة أخرى، فإنكار الأمر والنهي والوعد والوعيد هذا لم يظهر إلا متأخرًا بعد زمن الصحابة بخلاف إنكار القدر فإنه ظهر في زمن الصحابة. -

وَلَكِن قَدْ نَبَغَ فِيهِمْ الْقَدَرِيَّةُ كَمَا نَبَغَ فِيهِمْ الْخَوَارِجُ الحرورية - أي ظهر في زمن الصحابة الخوارج والقدرية- وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْ

الْبِدَعِ أَوَّلًا مَا كَانَ أَخْفَى وَكُلَّمَا ضَعُفَ مَنْ يَقُومُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ قَوِيَتْ الْبِدْعَةُ» كلما ابتعد الناس عن زمن النبوة وعن عهد النبوة وعن الجيل الذي عاصر النبي صلى الله عليه وسلم أو عاصر من عاصر النبي صلى الله عليه وسلم كلما قويت البدعة .

«فَهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفُونَ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ؛ مَعَ إعْرَاضِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ شَرٌّ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ - رجع الكلام على أهل التصوف، الذين يشهدون الحقيقة الكونية المقصود أن كل شيء بقضاء وقدر - مَعَ إعْرَاضِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ - لأنهم إذا شهدوا أن كل شيء بقضاء وقدر حتى المعصية حتى الكبيرة مع إعراضهم عنْ الأَمر وَالنّهي يضعف عندهم الأمر والنهي- شَرٌّ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ –

الشيخ الآن يقارن بين المتصوفة والمعتزلة يقول:

المعتزلة كونهم يشهدون الحقيقة الكونية أن كل شيء جرى إنما هو بخلق الله وقدره ومشيئته يضعف عندهم الأمر والنهي؛ ولهذا هم شرٌ من القدرية المعتزلة ونحوهم-

أُولَئِكَ يُشْبِهُونَ الْمَجُوسَ وَهَؤُلَاءِ يُشْبِهُونَ الْمُشْرِكِينَ - القدرية شبههم بالمجوس؛ لأنهم أثبتوا خالقين مع الله، والمجوس قالوا: أن خالق العالم اثنين.

وَهَؤُلَاءِ يُشْبِهُونَ الْمُشْرِكِينَ- أي المتصوفة الذين يشهدون الحقيقة الكونية ويضعف عندهم الأمر والنهي يشبهون بالمشركين - الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ وَالْمُشْرِكُونَ شَرٌّ مِنْ الْمَجُوسِ - بلا شك ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم قال في المجوس: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) فتؤخذ منهم الجزية بخلاف المشركين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف.

فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَهُ ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بالوحدانية وَالرِّسَالَةِ شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فِي الْإِخْلَالِ بِحَقِيقَةِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ- الذين هما شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله - أَوْ أَحَدِهِمَا مَعَ ظَنِّهِ أَنَّهُ فِي غَايَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَإِقْرَارُ الْمُشْرِكِ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ لَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ إقْرَارُهُ بِأَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ إلَّا هُوَ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ فَلَا بُدَّ مِنْ الْكَلَامِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ»

الأصلان: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله، إذًا الإقرار بأن الله وحده هو الخالق الرازق تحقيق شهود توحيد الربوبية لا يكفي ما لم يقترن هذا بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

«الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: (تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ) فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقَدَّمَ بِأَنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ يَدْعُونَهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ بِدُونِ إذْنِ اللَّهِ - الشيخ يقول: الله عز وجل ذكر أن المشركين الذين قاتلهم الرسول صلى الله عليه وسلم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله، والدليل على ذلك:- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذًا هذا دليل على أن الشرك الذي وقع عند المشركين الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو في توحيد العبادة وليس في توحيد الربوبية، وحكم عليهم بالشرك كونهم جعلوا بينهم وبينه شفعاء- فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاءَ مُشْرِكُونَ وَقَالَ تَعَالَى عَنْ مُؤْمِنِ يس: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾ - الشاهد: أن هذه الآيات كلها تدل على أن المشركين إنما أشركوا لما

جعلوا بينهم وبين الله شفعاء ووسائط- فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ شُفَعَائِهِمْ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكَاءُ ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ - الشاهد أن هذه الآيات كلها تدل على أنهم جعلوا بينهم وبين الله شفعاء؛ و أثبت المؤلف هنا أن الشفاعة لا تنفع عند الله عز وجل إلا من أذن له ورضي عن الشافع والمشفوع - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ - أُولَئِكَ المقصود الملائكة - قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ: كَانَ قَوْمٌ يَدْعُونَ عُزَيْرًا وَالْمَسِيحَ وَالْمَلَائِكَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ يُبَيِّنُ فِيهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ»

إذن هذه الآيات بمجموعها تدل على أن الشرك الذي وقع فيه المشركون الذين بعث بهم النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو في توحيد العبادة حيث جعلوا بينه وبين الله تعالى واسطة، وجعلوا بينهم وبين الله شفعاء فلم يحققوا حقيقة أن لا إله إلا الله الذي معناها لا معبود بحق إلا الله.

المحاضرة (٣٩)

توقفنا على قول المؤلف: «وَمِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لَهُ حَقًّا لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ؛ كَالْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾- المؤلف الآن سيذكر أن من جعل لله شريكًا في هذه الأنواع من أنواع العبادة فقد أشرك في التوحيد ولم يوحد- وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ(٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾ -إذًا المطلوب العبادة لله عز وجل إخلاص جميع أنواع العبادة لله عز وجل- وَكُلٌّ مِنَ الرُّسُلِ يَقُولُ لِقَوْمِهِ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي التَّوَكُّلِ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ - إذًا الله عز وجل أمرنا بالتوكل عليه وحده لا شريك له- يقول: فَقَالَ فِي الْإِيتَاءِ: ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾- لأن الإيتاء هذا متأتي للخلق، أما التوكل فلا يكون إلا على الله - وَقَالَ فِي التَّوَكُّلِ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: وَرَسُولُهُ ؛ لِأَنَّ الْإِيتَاء هُوَ الْإِعْطَاءُ الشَّرْعِيُّ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْإِبَاحَةَ وَالْإِحْلَالَ الَّذِي بَلَّغَهُ الرَّسُولُ -الإيتاء معناه: الإعطاء الشرعي إحلال الحلال وتحريم الحرام وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم يطاع فيه استقلالا فيحل ويحرم ونطيعه استقلالًا بخلاف التوكل وهو الحسب فهو على الله عز وجل وحده - فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ - أي الرسول - وَالدِّينَ مَا شَرَعَهُ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وَأَمَّا الحسب فَهُوَ الْكَافِي

وَاللَّهُ وَحْدَهُ كَافٍ عَبْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فَهُوَ وَحْدَهُ حَسْبُهُمْ كُلِّهِمْ ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ حَسْبُك وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَك مِنْ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِيكُمْ كُلَّكُمْ -بمعنى الحسب الكافي فمعنى قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ أي حسبك أنت وحسب من اتبعك هو الله سبحانه وتعالى -وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَسْبُك كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الغالطين إذْ هُوَ وَحْدَهُ كَافٍ نَبِيَّهُ وَهُوَ حَسْبُهُ لَيْسَ مَعَهُ مَنْ يَكُونُ هُوَ وَإِيَّاهُ حسبًا لِلرَّسُولِ، وَهَذَا فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (فَحَسْبُك وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ) وَتَقُولُ الْعَرَبُ: (حَسْبُك وَزَيْدًا دِرْهَمٌ) أَيْ: يَكْفِيك وَزَيْدًا جَمِيعًا دِرْهَمٌ-الشاهد: أن معنى الآية حسبك وحسب المؤمنين هو الله عز وجل.

وَقَالَ فِي الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فَأَثْبَتَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَثْبَتَ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ -الشاهد: إن هذه كلها أدلة يذكرها المؤلف وهي أمور واضحة وسهلة ويسيرة، يدل على أن هذه العبادات لا تصرف إلا لله عز وجل -وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا : وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ : (مَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَهُ وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا) وَقَالَ: (وَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ) فَفِي الطَّاعَةِ: قَرَنَ اسْمَ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ بِحَرْفِ الْوَاوِ- وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول قرنها (بالواو) لأن طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر؛ لكن المشيئة نهى، قال: ما شاء الله ثم شاء محمد سيبين المؤلف السبب في ذلك- وَفِي الْمَشِيئَةِ : أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ بِحَرْفِ (ثُمَّ) وَذَلِكَ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لِلَّهِ فَمَنْ يطع الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَطَاعَةُ اللَّهِ طَاعَةُ للرَّسُولِ بِخِلَافِ الْمَشِيئَةِ فَلَيْسَتْ مَشِيئَةُ أَحَدٍ مِنْ الْعِبَادِ مَشِيئَةً لِلَّهِ، وَلَا مَشِيئَةُ اللَّهِ مُسْتَلْزِمَةً لِمَشِيئَةِ الْعِبَادِ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ النَّاسُ، وَمَا شَاءَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ إلا أن يَشَاء اللَّهُ» بمعنى أن الله عز وجل له مشيئته الخاصة فليست مشيئة العباد مشيئة للخلق[1].

انتهى من الأصل الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله ومعناها أنه صرف جميع أنواع العبادة لله عز وجل وذكر منها الخشية والخوف والتوكل ... إلى آخره.

«(الْأَصْلُ الثَّانِي) : حَقُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَنُطِيعَهُ وَنَتَّبِعَهُ وَنَرْضِيَهُ وَنُحِبَّهُ وَنُسَلِّمَ لِحُكْمِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ -هذا من حقوق النبي صلى الله عليه وسلم الطاعة التسليم الإتباع الدليل على ذلك- قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿قل إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

[1] أظنه يقصد الخالق

يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ -كل هذه الآيات دليل عل هذه الحقوق التي ذكرها المؤلف رحمه الله - وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ» .

***

«(فَصْلٌ) إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ بِقَضَائِهِ وَشَرْعِهِ - يعني الإيمان بعموم خلق الله عز وجل والإيمان بعموم أمره بمعنى الإيمان بقضائه والإيمان بشرعه - وَأَهْلُ الضَّلَالِ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدَرِ انْقَسَمُوا إلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ : مَجُوسِيَّةٍ ومشركيّة وإبليسيّة - أهل الضلال الذين خالفوا أهل السنة في مسألة القضاء والقدر ثلاث فرق مجوسية، إبليسية، ومشركية.

الشيخ سيُعرف كل طائفة: -

فَالْمَجُوسِيَّةُ: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَدَرِ اللَّهِ وَإِنْ آمَنُوا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ- كذبوا بعموم القدر لكنهم آمنوا بشرع الله- فَغُلَاتُهُمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ- المجوسية هؤلاء القدرية الغلاة المعتزلة المتقدمون منهم أنكروا العلم والكتابة وهذه الطائفة انقرضوا وانتهوا- ومُقْتَصِدتهُمْ- أي عموم أصحاب هذه الفرقة- أَنْكَرُوا عُمُومَ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ - إذًا المعتزلة أنكروا عموم المشيئة وعموم الخلق، وصفهم الشيخ هنا بالمجوسية السبب في ذلك: أنهم شابهوا المجوس لما جعلوا العبد يخلق فعل نفسه، أي جعلوا مع الله خالقين، والمجوسية جعلوا العالم له خالقَين خالق الخير وخالق الشر، ولهذا سُموا مجوس هذه الأمة.

الْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: المشركية الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ- خلافًا للمعتزلة- وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ -أنكروا الشرع - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ -سموا مشركية لمشابهتهم المشركين الذين أثبتوا القدر وجعلوه حجة لهم في الاحتجاج على المعصية وإنكار الأمر والنهي- فَمَنْ احْتَجَّ عَلَى تَعْطِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فِيمَنْ يَدَّعِي الْحَقِيقَةَ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ - يقول: المشركية هؤلاء كثيرًا ما يوجد عند أهل التصوف، يثبتون القدر ويغلون في إثبات القدر وفي حقيقة أن الكون كله لله عز وجل وأنه بقضائه وقدره؛ لكن ينكروا الأمر والنهي بل وينكرون الشرع ولهذا يفعلون المعصية ويقولون الله عز وجل خلق هذه المعاصي.

وَالْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ : الإبليسية وَهُمْ الَّذِينَ أَقَرُّوا الْأَمْرَيْنِ - أقروا بالقضاء والقدر وبالأمر والنهي- لَكِنْ جَعَلُوا هَذَا تَنَاقِضًا - جعلوا الأمر والنهي مناقضًا لعموم القضاء وللقدر- جَعَلُوا هَذَا تَنَاقِضًا مِنْ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- شبههم بإبليس؛ أثبت القضاء والقدر قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أنت الذي أغويتني، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذا تناقض منك يا رب تعالى الله عن ذلك- وَطَعَنُوا فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ كَمَا يُذْكَرُ ذَلِكَ عَنْ إبْلِيسَ مُقَدِّمِهِمْ ؛ كَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ الْمَقَالَاتِ وَنُقِلَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا مِمَّا يقوله أَهْلُ الضَّلَالِ» إذًا أهل الضلال الذين خالفوا أهل السنة في القضاء والقدر إما إبليسية أو مجوسية أو مشركية.

«وَأَمَّا أَهْلُ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ: فَيُؤْمِنُونَ بِهَذَا وَهَذَا- يؤمنون بعموم الشرع ويؤمنون بعموم القضاء والقدر- فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَاهُ فِي كتاب مُبِينٍ- أي: يثبتون عموم مشيئة الله وعموم علمه- وَيَتَضَمَّنُ هَذَا الْأَصْلُ مِنْ إثْبَاتِ عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ: مَا هُوَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ -إذًا من أصول الإيمان إثبات عموم القضاء والقدر -وَمَعَ هَذَا لَا يُنْكِرُونَ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا الْمُسَبَّبَاتِ -أي يثبتون أن الله عز وجل خلق الأسباب وخلق مسبباتها- كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ - (فأنزلنا به) الباء هنا سببية (به) أي: أنزلنا بهذه الرياح الماء فأخرجنا به من كل الثمرات - وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (يهدي به) الباء سببية، يهدي الله عز وجل بسبب هذا القرآن من اتبع رضوانه- وَقَالَ تَعَالَى : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ -أي بسبب القرآن- فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِالْأَسْبَابِ.

وَمَنْ قَالَ: يَفْعَلُ عِنْدَهَا لَا بِهَا -أن يفعل عند الأسباب وهؤلاء هم منكرة الأسباب - فَقَدْ خَالَفَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَأَنْكَرَ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَى وَالطَّبَائِعِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِإِنْكَارِ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَى الَّتِي فِي الْحَيَوَانِ الَّتِي يَفْعَلُ الْحَيَوَانُ بِهَا مِثْلَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ -إذًا الطائفة الأولى: أنكرت الأسباب ولهذا قالوا إن الله يفعل عندها؛ ولكن لا يفعل بها - كَمَا أَنَّ مَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمُبْدِعَةَ -جعل الأسباب هي المبدعة ابتداء وهي المنشئة - لِذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ- لأنه أضاف فعله إلى غيره، فيقول الرياح هي التي بنفسها تنشئ السحاب، والرياح هي بنفسها التي تنزل المطر، فهذا جعل لله عز وجل شريك في الفعل- وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ فِي حُصُولِ مُسَبِّبِهِ وَلَا بُدَّ لَه مِنْ مَانِعٍ يَمْنَعُ مُقْتَضَاهُ إِذَا لَمْ يَدْفَعْهُ اللَّهُ عَنْهُ فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ يَسْتَقِلُّ بِفِعْلِ شَيْءٍ إِلَّا اللَّهُ- يقول: "أصلاً هذه الأسباب كل سبب مترتب على سبب آخر وليس ثم شيء واحد يفعل استقلالًا إلا الله عز وجل؛ يعني مستغنٍ عن كل شيء، أما الأسباب الأخرى فهي مفتقرة كل سبب إلى سبب آخر- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ وَاحِدٌ»

«وَلِهَذَا مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ - لِأَنَّ الْوَاحِدَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ -وهذا مذهب الفلاسفة وهو مذهب ضال- كَانَ جَاهِلًا فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ وَاحِدٌ صَدَرَ عَنْهُ وَحْدَهُ شَيْءٌ- لَا وَاحِدَ وَلَا اثْنَانِ- إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ فَالنَّارُ الَّتِي جعل اللَّهُ فِيهَا حَرَارَةً لَا يَحْصُلُ الْإِحْرَاقُ إِلَّا بِهَا وَبِمَحَلٍّ يَقْبَلُ الِاحْتِرَاقَ ؛ فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى السمندل وَالْيَاقُوتِ وَنَحْوِهِمَا لم تحرقهما -يقول: النار أليس من طبيعتها الإحراق؛ لكن لابد من عدم وجود المانع بمعنى أن تقع على شيء يقبل الاحتراق؛ فلو سلطت النار على الحديد ما احترق، لو سلطت النار على الحجر ما احترق، الشيخ ذكر مثلًا: السمندل والياقوت؛ الياقوت من أشد أنواع الأحجار، والسمندل نوع من الدهن وهو طائر ينطلي بالدهن لا يحترق -وَقَدْ يُطْلَى الْجِسْمُ بِمَا يَمْنَعُ إِحْرَاقَهُ، وَالشَّمْسُ الَّتِي يَكُونُ عَنْهَا الشُّعَاعُ لَا بُدَّ مِنْ جِسْمٍ يَقْبَلُ انْعِكَاسَ الشُّعَاعِ عَلَيْهِ وَإِذَا حَصَلَ حَاجِزٌ مِنْ سَحَابٍ أَوْ سَقْفٍ لَمْ يَحْصُلْ الشُّعَاعُ تَحْتَهُ وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ» الشاهد أن السبب لا يمكن أن يحصل به المسبب إلا مع زوال المانع وحصول نفس السبب.

«وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ (الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ) فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ- الإيمان بالقدر من تمام التوحيد فلا يتم توحيد المرء إلا بأن يؤمن بعموم مشيئة الله وعموم خلقه وعموم علمه وكتابته -كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (هُوَ نِظَامُ التَّوْحِيدِ) - أي: القدر- فَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَآمَنَ بِالْقَدَرِ تَمَّ تَوْحِيدُهُ وَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ نَقَضَ تكذيبه تَوْحِيدَهُ وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ -كما أنه لابد من الإيمان بالقدر أيضًا لابد من الإيمان بالشرع -كَمَا بَعَثَ اللَّهُ بِذَلِكَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ وَالْإِنْسَانُ مُضْطَرٌّ إِلَى شَرْعٍ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ يَجْلِبُ بِهَا مَنْفَعَة، وَحَرَكَةٍ يَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّة- الشيخ الآن يبين ضرورة الإنسان إلى وجود الشرع ووجود الأوامر والنواهي- وَالشَّرْعُ هُوَ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّهُ -الإنسان بطبعه مضطر إلى فعل شيء وترك شيء، كيف أعرف إن فعل هذا الشيء نافع أو تركه هو النافع؟ يقول: لابد له من شرع يميز له بين الأفعال النافعة والأفعال الضارة - وَهُوَ عَدْلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ- أي شرعه سبحانه - هُوَ عَدْلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ؛ فَلَا يُمْكِنُ لِلْآدَمِيِّينَ أَنْ يَعِيشُوا بِلَا شَرْعٍ يُمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ مَا يَفْعَلُونَهُ وَيَتْرُكُونَهُ -إذًا الناس مضطرون إلى وجود الشرع كاضطرارهم إلى الماء بل أشد اضطرارًا إلى الهواء- وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ مُجَرَّدَ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بَلْ الْإِنْسَانُ الْمُنْفَرِدُ لَا بُدَّ لَهُ مَنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ هَمَّامٌ وحَارِثٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ) وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: (مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَة) فَإِذَا كَانَ لَهُ إِرَادَةٌ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ بِهَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُهُ هَلْ هُوَ نَافِعٌ لَهُ أَوْ ضَارٌّ؟ وَهَلْ يُصْلِحُهُ أَوْ يُفْسِدُهُ؟ -يعني الإنسان بطبعه متحرك يفعل ويترك، إذًا لا بد له من شيء يميز له ويبين له ما ينفعه وما يضره؛ فهذا هو شرع الله عز وجل- وَهَذَا قَدْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ النَّاسُ بِفِطْرَتِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ انْتِفَاعَهُمْ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَكَمَا يَعْرِفُونَ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ بِفِطْرَتِهِمْ وَبَعْضُهُ يَعْرِفُونَهُ بِالِاسْتِدْلَالِ الَّذِي يَهْتَدُونَ بِهِ بِعُقُولِهِمْ وَبَعْضُهُ لَا يَعْرِفُونَهُ إلَّا بِتَعْرِيفِ الرُّسُلِ وَبَيَانِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ لَهُمْ» إذًا ما ينفع الناس وما يضرهم بعضه يمكن أن يدركه الإنسان بفطرته كحاجته إلى الأكل والشرب، وبعضه قد يدركه الإنسان بعقله يميز بين الأمور، وهناك أشياء لا يمكن أن يعرف ضررها ونفعها إلا بالشرع بالرسل.

«وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْأَفْعَالِ، هَلْ يُعْرَفُ حُسْنُهَا وَقُبْحُهَا بِالْعَقْلِ أَمْ لَيْسَ لَهَا حَسَنٌ وقبحٌ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ؟ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ الِاشْتِبَاهِ. فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْفِعْلِ يُلَائِمُ الْفَاعِلَ أَوْ يُنَافِرُهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ -كون هذا الشيء يلائمني أو لا يلائمني هذا يعلم بالعقل- وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ سَبَبًا لِمَا يُحِبُّهُ الْفَاعِلُ وَيَلْتَذُّ بِهِ وَسَبَبًا لِمَا يُبْغِضُهُ وَيُؤْذِيه وَهَذَا الْقَدْرُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ تَارَةً وَبِالشَّرْعِ أُخْرَى وَبِهِمَا جَمِيعًا أُخْرَى؛ لَكِنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَمَعْرِفَةَ الْغَايَةِ الَّتِي تَكُونُ عَاقِبَةُ الْأَفْعَالِ: مِنْ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا تُعْلم إلَّا بِالشَّرْعِ- يعني عاقبة هذه الأفعال وآثارها في الآخرة وآثارها في الدنيا التي لا يمكن للعقل أن يدركها هذا لا يعلم إلا بالشرع، إذًا حسن الأفعال وقبحها يمكن أن يدرك شيء منه بالعقل؛ لكن تفاصيل هذه الأمور وعواقب هذه الأمور لا يمكن أن تدرك إلا بالشرع - فَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمَرَتْ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ -يعني الناس قد يثبتون أو يعرفون بعقولهم أن هناك يوم آخر يجازى فيه الناس؛ لكن تفاصيل هذا اليوم الآخر لا يمكن إلا بالشرع أيضا ما يجب لله عز وجل من أسماء وصفات قد يدركه الإنسان على وجه الإجمال هذا بعقله؛ لكن تفاصيل هذه الأمور لا يمكن أن يدركه إلا بالشرع- وَهَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْإِيمَانُ وَجَاءَ بِهِ الْكِتَابُ هُوَ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي الله عز وجل وصف القرآن بأنه نور وأنه روح، والروح الذي تتوقف الحياة الحقيقية عليه، والنور الذي تتوقف الهداية عليه، إذًا وصفه الله بأنه نور وروح بمعنى أن الحياة الحقيقية والهداية الحقيقية متوقفة على هذا الشرع الذي هو القرآن- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ -هذه الآية دليل على أن الهداية متوقفة على ورود الشرع- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ -إنما أنذركم بهذا الشرع، إذًا الشرع لابد منه ولا يكفي تحسين العقل وتقبيحه كما زعم المعتزلة وممن حذا حذوهم -وَلَكِنْ تَوَهَّمَتْ طَائِفَةٌ أَنَّ لِلْحُسْنِ وَالْقُبْحِ مَعْنًى غَيْرَ هَذَا وَأَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ- وهؤلاء المعتزلة - وَقَابَلَهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى ظَنَّتْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنْ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ : يَخْرُجُ عَنْ هَذَا -أي: عن تحسين العقل وتقبيحه يعني كون هذا الشرع نهى عنه فهو قبيح لنهي الشرع وليس لتقبيح العقل، لا، فيقال: الشرع نهى عن هذا؛ لأنه قبيح وزاده الشرع قبحًا - فَكِلَتا الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَثْبَتَا الْحُسْنَ وَالْقُبْحَ الْعَقْلِيَّيْنِ أَوْ الشَّرْعِيَّيْنِ وَأَخْرَجَتَاهُ عَنْ هَذَا الْقِسْمِ غَلِطَتْ» الطائفة الأولى: المعتزلة، والطائفة الثانية: الأشاعرة.

«ثُمَّ إنَّ كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ لَمَّا كَانَتَا تُنْكِرُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالْفَرَحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ الْإِلَهِيَّةُ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّوَاهِدُ الْعَقْلِيَّةُ: تَنَازَعُوا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ مَا هُوَ مِنْهُ قَبِيحٌ هَلْ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ وَأَنَّهُ لَا تُتَصَوَّرُ قُدْرَتُهُ عَلَى مَا هُوَ قَبِيحٌ أو أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ لَا يَفْعَلُهُ لِمُجَرَّدِ الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَثْبَتُوهُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: -

بمعنى أن منهم من قال هذا ومنهم من قال هذا يعني هل هو ممتنع على الله عز وجل أم أنه لا يفعله لأنه قبيح؟ - وَالْقَوْلَانِ فِي الِانْحِرَافِ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ -الذين أثبتوا التحسين والتقبيح العقلي والذين نفوا التحسين والتقبيح العقلي- أُولَئِكَ لَمْ يُفَرِّقُوا -هؤلاء الجبرية- فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ؛ فَلَا جَعَلُوهُ مَحْمُودًا عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ الْعَدْلِ أَوْ تَرَكَهُ مِنْ الظُّلْمِ وَلَا مَا فَعَلَهُ مِنْ الْإِحْسَانِ وَالنِّعْمَةِ أو تَرَكَهُ مِنْ العذابِ وَالنِّقْمَةِ- لأنهم قالوا: فعلوا هذا لمجرد المشيئة -وَالْآخَرُونَ نَزَّهُوهُ بِنَاءً عَلَى الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ- نزهوه عن أن يخلق الكفر ويعاقب عليه، بناء على القبح العقلي- الَّذِي أَثْبَتُوهُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ وَسَوَّوْهُ بِخَلْقِهِ فِيمَا يَحْسُنُ وَيَقْبُحُ، وَشَبَّهُوهُ بِعِبَادِهِ فِيمَا يَؤمر بِهِ وَيُنْهَى عَنْهُ» أي شبهوا الله عز وجل بالخلق ولهذا قاسوا الظلم الحاصل من الخلق على الظلم المنزه الله عز وجل عنه.

المحاضرة (٤٠)

«فَمَنْ نَظَرَ إلَى الْقَدَرِ فَقَطْ وَعَظَّمَ الْفَنَاءَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ- وهذا حال الصوفية- وَوَقَفَ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ -بمعنى أن كل ما في الكون هو بتقدير الله وبخلقه وبمشيئته- لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالْبِرِّ وَالْفُجُورِ، وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالرُّشدِ وَالْغَيِّ، وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، -لم يفرقوا لأنهم يقولون: كل هذا بخلق الله وبقضائه وقدره -وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ بِالضَّرُورَةِ لِكُتُبِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَشَرَائِعِهِ فَهُمْ مُخَالِفُونَ أَيْضًا لِضَرُورَةِ الْحِسِّ- يعني الكتب المنزلة فرقت بين الهدى والضلال، والخير والشر، والكفر والإيمان؛ وهؤلاء يسوون بينهم، يقول: مع أنهم مخالفون لما جاءت به الرسل، أيضًا مخالفون لضرورة الحس والذوق وضرورة العقل والقياس؛ لأن ضرورة العقل والقياس والذوق تفرق بين هذا وهذا، تفرق بين النافع والضار وبين الهدى والضلال وبين الغي والرشد -فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَلْتَذَّ بِشَيْءِ وَيَتَأَلَّمَ بِشَيْءِ فَمن يُمَيِّزَ بَيْنَ مَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَمَا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَبَيْنَ مَا يُؤْذِيه مِنْ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ -يعني الإنسان بطبعه يميز بين هذا يؤذيه وهذا لا يؤذيه، يميز بين الحر والبرد وبين هذا المشروب وهذا المأكول -وَمَا لَيْسَ كَذَلِكَ وَهَذَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الشَّرْعِيَّةُ الدِّينِيَّةُ -إذا كنت تميز بهذا أيضًا هناك تميز بين الهدى والضلال والكفر والإيمان، يقول: فهذه هي الحقيقة الشرعية الدينية- وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْبَشَرَ يَنْتَهِي إلَى حَدٍّ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ دَائِمًا فَقَدْ افْتَرَى وَخَالَفَ ضَرُورَةَ الْحِسِّ- وهذا مذهب الصوفية أنهم يزعمون أن الإنسان يصل إلى درجة تتساوى عنده الأمور؛ لأنه لا ينظر إلا إلى الحقيقة الكونية؛ أن الكون كله بقضائه وقدره- وَخَالَفَ ضَرُورَةَ الْحِسِّ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ عَارِضٌ كَالسُّكْرِ وَالْإِغْمَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَشْغَلُه عَنْ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ فَإِمَّا أَنْ يَسْقُطَ إحْسَاسُهُ بِالْكُلِّيَّةِ مَعَ وُجُودِ الْحَيَاةِ فِيهِ فَهَذَا مُمْتَنِعٌ، فَإِنَّ النَّائِمَ- يقول الإنسان قد يعرض له عارض يسقط معه نوع من الإحساس؛ لكن إسقاط الإحساس بالكلية هذا مستحيل، أكثر الناس سقوط للإحساس النائم ومع ذلك قد يحس ببعض الأشياء -لَمْ يَسقط إحْسَاسَ نَفْسِهِ بَلْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَسُرُّهُ تَارَةً، وَمَا يَسُوؤُهُ أُخْرَى، فَالْأَحْوَالُ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالِاصْطِلَامِ وَالْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ- وهذه من مصطلحات الصوفية: الاصطلام والفناء والسكر هو نوع من الغياب غياب الشعور -وَنَحْوِ ذَلِكَ إنَّمَا تَتَضَمَّنُ عَدَمَ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ فَهِيَ مَعَ نَقْصِ صَاحِبِهَا - لِضَعْفِ تَمْيِيزِهِ - لَا تَنْتَهِي إلَى حَدٍّ يَسْقُطُ بِهِ التَّمْيِيزُ مُطْلَقًا -يقول: لا يمكن للإنسان أن يصل إلى درجة لا يمكن أن يميز بين الأشياء؛ حتى المجنون الذي فقد عقله يمكن أن يميز بين بعض الأشياء ولهذا إذا وضعته على النار ابتعد عنها -وَمَنْ نَفَى التَّمْيِيزَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُطْلَقًا -يعني أن الإنسان يصل إلى درجة لا يمكن أن يميز بين الأشياء -وَعَظَّمَ هَذَا الْمَقَامَ فَقَدْ غَلِطَ فِي الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ قَدْرًا وَشَرْعًا، غَلِطَ فِي خَلْقِ اللَّهِ وَفِي أَمْرِهِ حَيْثُ ظَنَّ وُجُودَ هَذَا؛ وهذا لَا وُجُودَ لَهُ -غلط في كون أن هذا موجود وهذا يستحيل أن يكون موجود، أما الغلط الشرعي- وَحَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مَمْدُوحٌ -كون أن الإنسان يصل إلى درجة لا

يستطيع أن يميز بين الأشياء أن هذا فيه مدح وثناء ودرجة عالية فهذا غلط في الحقيقة الشرعية -فِي عَدَمِ التَّمْيِيزِ وَالْعَقْلُ وَالْمَعْرِفَةُ»

«وَإِذَا سَمِعْت بَعْضَ الشُّيُوخِ يَقُولُ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ- بعض شيوخ الصوفية- أَوْ أَنَّ الْعَارِفَ لَا حَظَّ لَهُ، أو أَنَّهُ يَصِيرُ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيْ الْغَاسِلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ- يعني يسعى أن يتمدح بإسقاط الإرادة بحيث أن الإنسان لا يصير له أي إرادة- فَهَذَا إنَّمَا يُمْدَحُ مِنْهُ سُقُوطُ إرَادَتِهِ الَّتِي لم يُؤْمَرْ بِهَا – يقول: هذا نثني عليه أنه يسقط إرادته الشيء الذي ما أراد الله عز وجل منه أن يفعله- وَعَدَمُ حَظِّهِ الَّذِي لَمْ يُؤْمَرْ بِطَلَبِهِ- إذا كان الله عز وجل نهاك مثلًا: عن أكل الحرام فعدم إرادتك الحرام وعدم طلب الحرام هذا تمدح عليه -وَأَنَّهُ كَالْمَيِّتِ فِي طَلَبِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِطَلَبِهِ، وَتَرْكِ دَفْعِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِدَفْعِهِ- هذا أمر محمود عليه -وَمَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ -يعني إذا قال أريد ألا أريد أو أن أكون كالميت بين يدي المغسل -مَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ تَبْطُلُ إرَادَتُهُ بِالْكُلِّيَّةِ وَأَنَّهُ لَا يُحِسُّ بِاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ؛ وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، فَهَذَا مكابرٌ، مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ، وَمَنْ مَدَحَ هَذَا فَهُوَ مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ»

«وَالْفَنَاءُ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:-

الفناء من المصطلحات الصوفية يراد به ثلاثة أمور:-

أَحَدُهَا: هُوَ الْفَنَاءُ الدِّينِيُّ الشَّرْعِيُّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَنزلَتْ بِهِ الْكُتُبُ وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَمَّا لَمْ يَأْمُرْ اللهُ بِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَيَفْنَى عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ، وَعَنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَنْ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَعَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ - الشاهد: أن هذا هو الفناء الشرعي، أن يفنى عن الشيء الذي لم يأمر الله به بفعل أمره سبحانه وتعالى بطاعته عن طاعة غيره، وبمحبته عن محبة غيره.-

وَأَمَّا الْفَنَاءُ الثَّانِي: وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ بَعْضُ المتصوفة وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَنْ شُهُودِ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى فَيَفْنَى بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ - يعني يفنى بمشاهدة الأشياء فيصبح لا يشاهد إلا الله عز وجل -وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ - مذكوره ومشهوده هو الله عز وجل- بِحَيْثُ قَدْ يَغِيبُ عَنْ شُعوره بنَفْسِهِ وبِمَا سِوَى اللهِ تَعَالَى فَهَذَا حَالٌ نَاقِصٌ قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللهِ- يعني هذه حالة ناقصة ليست حال كمال وليست من لوازم الطريق إلى الله عز وجل، السير إلى الله عز وجل من لوازم طاعة الله عز وجل- وَلِهَذَا لَمْ يعرض مِثْلُ هَذَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ-يعني هذه الدرجة من الفناء لم تحصل للنبي صلى الله عليه وسلم ولا للسابقين الأولين، فهذا يدل على أنها علامة نقص -وَمَنْ جَعَلَ هَذَا نِهَايَةَ السَّالِكِينَ فَهُوَ ضَالٌّ ضَلَالًا مُبِينًا وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللهِ فَهُوَ مُخْطِئٌ بَلْ هُوَ مِنْ عَوَارِضِ طَرِيقِ اللهِ الَّتِي تَعْرِضُ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ اللَّوَازِمِ الَّتِي تَحْصُلُ لِكُلِّ سَالِكٍ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ وُجُودِ السِّوَى -عن وجود ما سوى الله، بمعنى يغيب بعقله ويفنى عن هذه الموجودات كلها ولا يشاهد إلا وجود الله؛ ولهذا إذا شاهد هذه الموجودات يعتقد أنها هي الله -بِحَيْثُ يَرَى أَنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْخَالِقِ وَأَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ فَهذا قَوْلُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ وَالِاتِّحَادِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَضَلِّ الْعِبَادِ» وهذا سبق الكلام عليهم الذين يقولون: أن الله حالّ في كل شيء، متحد في كل شيء، والذي يقول: الله هو هذا الشيء وهذا الشيء وهذا الشيء.

«وَأَمَّا مُخَالَفَتُهُمْ لِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَطْرُدَ قَوْلَهُ، فَإِنَّهُ إذَا كَانَ مُشَاهِدًا لِلْقَدَرِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ، فَعُومِلَ بِمُوجِبِ ذَلِكَ مِثْلَ أَنْ يُضْرَبَ وَيُجَاعَ حَتَّى يُبْتَلَى بِعَظِيمِ الْأَوْصَابِ وَالْأَوْجَاعِ، فَإِنْ لَامَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ وَعَابَهُ، فَقَدْ نَقَضَ قَوْلُهُ وَخَرَجَ عَنْ أَصْلِ مَذْهَبِهِ - إذا كنت تؤمن أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن كل شيء

مخلوق لله عز وجل وأن الأشياء سواء، إذًا لا تُنكر على من ضربك لا تُنكر على من اعتدى عليك لأنه بقضاء الله وقدره؛ ولهذا الشيخ قال: أنهم لا يستطيعون أن يطردوا هذا المذهب مع أنفسهم - فَخَلْقُ اللَّهِ وَقَدَرُهُ وَمَشِيئَتُهُ مُتَنَاوِلٌ لَك وَلَهُ، وَهُوَ يَعُمُّكُمَا فَإِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لَك فَهُوَ حُجَّةٌ لِهَذَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِحُجَّةِ لَا لَك وَلَا لَهُ، فَقَدْ تَبَيَّنَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ فَسَادُ قَوْلِ مَنْ يَنْظُرُ إلَى الْقَدَرِ وَيَعْرِضُ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ» الشيخ الآن يبين أن النظر إلى القدر والإعراض عن الأمر والنهي هذا مخالف للعقل ولا يمكن أن يقبله العقل، لو كان يقبله العقل لقبلت ممن اعتدى عليك، قوله هذا بقضاء الله وقدره، لماذا لا تقبل منه ؟!

«وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ وَيَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وَقَالَ تعالى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فَالتَّقْوَى فِعْلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ فَأَمَرَهُ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ بِالصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إلَى رَبِّكُمْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ) وَقَالَ: (إنَّهُ ليغان عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) وَكَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمْدِي وَهَزْلِي وَجِدِّي وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لا إله إلا أنت) وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إلَيْهِ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ وتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ؛ وَعَنْ إبْلِيسَ أَبِي الْجِنِّ أَنَّهُ أَصَرَّ مُتَعَلِّقًا بِالْقَدَرِ فَلَعَنَهُ وَأَقْصَاهُ فَمَنْ أَذْنَبَ فتاب وَنَدِمَ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ -الشاهد: أن الإنسان مأمور بفعل الأمر وبترك المنهي عنه والصبر على القدر والاستغفار- وَلِهَذَا قَرَنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ آيَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ -هذه أدلة على أن الله قرن بين التوحيد والاستغفار- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ، ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ وَغَيْرُهُ: (يَقُولُ الشَّيْطَانُ أَهْلَكْت النَّاسَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارِ؛ فَلَمَّا رَأَيْت ذَلِكَ بَثَثْت فِيهِمْ الْأَهْوَاءَ فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ ذِي النُّونِ أَنَّهُ ﴿نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إلَّا فَرَّجَ اللَّهُ بها كَرْبَهُ)»

«وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ فِي (الْأَمْرِ) مَنْ أَصْلَيْنِ وَلَا بُدَّ لَهُ فِي الْقَدَرِ مِنْ (أَصْلَيْنِ)

فَفِي (الْأَمْرِ) عَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي الِامْتِثَالِ عِلْمًا وَعَمَلًا فَلَا يَزَالُ يَجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ، ثُمَّ عَلَيْهِ يَسْتَغْفِرُ وَيَتُوبُ مِنْ تَفْرِيطِهِ فِي الْمَأْمُورِ وَتَعَدِّيهِ لِلْحُدُودِ- لا بد له في (الأمر) من أصلين فعل ما أمر به والاستغفار- وَلِهَذَا كَانَ مِنْ الْمَشْرُوعِ أَنْ تُخْتَمَ جَمِيعُ الْأَعْمَالِ بِالِاسْتِغْفَارِ فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وقَالَ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ فَقَامُوا اللَّيْلَ ثم خَتَمُوا بِالِاسْتِغْفَارِ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ وَفِي الحديث الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ) -الشاهد: أنه يجمع بين الفعل والاستغفار- .

وَأَمَّا فِي (الْقَدَرِ) فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيَدْعُوَهُ؛ وَيَرْغَبَ إلَيْهِ وَيَسْتَعِيذَ بِهِ فَيَكُونَ مُفْتَقِرًا إلَيْهِ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ وَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ؛ وَإِذَا آذَاهُ النَّاسُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ -

إذن في القدر لا بد له أيضا من أصلين:

الأصل الأول: الاستعانة بالله عز وجل، والتوكل عليه، والدعوة إليه، والرغبة إليه، والاستعاذة به، والافتقار إلى الله عز وجل في فعل كل ما أُمر به وترك كل ما نهي عنه.

الأصل الثاني: الصبر على القدر وعلى فعل المأمور وعلى ترك المنهي وعلى ما تأتي به المقادير وعلى أذية الناس.-

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ -أي من باب الاستعانة والصبر والاستغفار والفعل- احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَى لَمَّا قَالَ: يَا آدَمَ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَك اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ؛ لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللَّهُ بِكَلَامِهِ، فَبِكَمْ وَجَدْتَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ قَالَ: بِكَذَا وَكَذَا سنة، قال: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ عَتَبُهُ لِآدَمَ لِأَجْلِ الذَّنْبِ -يعني موسى لم يكن يلوم أباه آدم لأجل الذنب؛ لأنه أعلم من أن يلوم أباه على ذنب قد تاب منه- فَإِنَّ آدَمَ قَدْ كَانَ تَابَ مِنْهُ وَالتَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ؛ وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ ذَلِكَ- موسى يلوم آدم على المصيبة التي حصلت بسبب الذنب وهو الخروج من الجنة - وَهُمْ مَأْمُورُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إلَى الْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ وَأَنْ يَسْتَغْفِرُوا مِنْ المعائب كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فَمَنْ رَاعَى الْأَمْرَ وَالْقَدَرَ -أي لاحظ الأمر والقدر-كَمَا ذَكَرَ : كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ مُطِيعًا لَهُ مُسْتَعِينًا بِهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مِنْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ»

«وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ -الأمر والقدر- فِي غير مَوضِعَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ -هذا الأمر- وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ -هذا هو القدر -وَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ -هذا الأمر- وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾-هو القدر- وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ -هذا القدر- وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ -هذا الأمر- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ-هذا هو الأمر- يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ -هذا القدر- إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾

فَالْعِبَادَةُ له وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ الْأُضْحِيَّةِ: (اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك) فَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللَّهِ لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ» الشيء الذي لا يكون بالله لا يمكن أن يكون والشيء الذي لا يكون لله لا ينفع صاحبه ولا يدوم نفعه في الآخرة.

«وَلَا بُدَّ فِي (عِبَادَتِهِ) مِنْ أَصْلَيْنِ -إذًا في الأمر والشرع كل واحد منه لابد فيه من أصلين، أيضًا العبادة لا بد فيها من أصلين- أَحَدُهُمَا إخْلَاصُ الدِّينِ لله، وَالثَّانِي مُوَافَقَةُ أَمْرِهِ الَّذِي بَعَثَ الله بِهِ رُسُلَهُ- إذًا الإخلاص و المتابعة -وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا- هذه الموافقة- وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا- هذا هو الإخلاص- وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدِ فِيهِ شَيْئًا؛ وَقَالَ الفضيل بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قيل يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إن الْعَمَلُ إذَا كَانَ خَالِصًا... إلى آخر ما ذكر، وَلِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى إتباع مَا شَرَعَ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ مِنْ الدِّينِ الذي لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَفِعْلِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ مِنْ الدِّينِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كَمَا ذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ. وَالدِّينُ الْحَقُّ: أَنَّهُ لَا حَرَامَ إلَّا مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَلَا دِينَ إلَّا مَا شَرَعَهُ اللَّهُ» هذا هو الدين الحق .

«ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:-

أقسام الناس في عبادة الله عز وجل واستعانته:-

الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هُمْ لَهُ وَبِهِ يَعْبُدُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَهُ- يجمعون بين العبادة والاستعانة- وَطَائِفَةٌ تَعْبُدُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ وَلَا صَبْرٍ فَتَجِدُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ تَحَرِّيًا لِلطَّاعَةِ وَالْوَرَعِ وَلُزُومِ السُّنَّةِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَوَكُّلٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَصَبْرٌ؛ بَلْ فِيهِمْ عَجْزٌ وَجَزَعٌ. وَطَائِفَةٌ: فِيهِمْ اسْتِعَانَةٌ وَتَوَكُّلٌ وَصَبْرٌ مِنْ غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ -يعني الطاعة عندهم ضعيفة -عَلَى الْأَمْرِ وَلَا مُتَابَعَةٍ لِلسُّنَّةِ فَقَدْ يُمَكَّنُ أَحَدُهُمْ وَيَكُونُ لَهُ نَوْعٌ مِنْ الْحَالِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَيُعْطَى مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ مَا لَمْ يُعْطَهُ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ - يعني كثرة الاستعانة منه والصبر قد يعطى شيء من المكاشفات، لكن ليس هو أفضل من القسم الأول - فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمُتَّقِينَ وَالْعَاقِبَةُ لِلمتقين؛ فَالْأَوَّلُونَ لَهُمْ دِينٌ ضَعِيفٌ وَلَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بَاقٍ؛ وإِنْ لَمْ يُفْسِدْهُ صَاحِبُهُ بِالْجَزَعِ -الطائفة التي قبل هذا - وَالْعَجْزِ؛ وَهَؤُلَاءِ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ وَقُوَّةٌ، وَلَكِنْ لَا يَبْقَى لَهُ إلَّا مَا وَافَقَ فِيهِ الْأَمْرَ وَاتَّبَعَ فِيهِ السُّنَّةَ وَشَرُّ الْأَقْسَامِ -القسم الرابع- مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُهُ؛ فَهُوَ لَا يَشْهَدُ أَنَّ عمله لِلَّهِ وَلَا أَنَّهُ بِاَللَّهِ»

رجع الشيخ يلخص الكلام المتقدم إن المعتزلة خير من الجبرية في كونهم عظموا الأمر والنهي:

«فَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْقَدَرَ هُمْ فِي تَعْظِيمِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَبْرِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْ الشَّرْعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالصُّوفِيَّةُ هُمْ فِي الْقَدَرِ وَمُشَاهَدَةِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ خَيْرٌ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ - الصوفية جبرية خير من المعتزلة لأنهم أثبتوا القدر- وَلَكِنْ فِيهِمْ مَنْ فِيهِ نَوْعُ بِدَعٍ، مَعَ إعْرَاضِهِ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، حَتَّى يَجْعَلُوا الْغَايَةَ هِيَ مُشَاهَدَةَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْفَنَاءِ فِي ذَلِكَ وَيَصِيرُونَ أَيْضًا مُعْتَزِلِينَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَسُنَّتِهِمْ، فَهُمْ مُعْتَزِلَةٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ - كونهم يسمون قد يوصفون بالمعتزلة لأنهم اعتزلوا جماعة المسلمين - وَقَدْ يَكُونُ مَا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ الْبِدْعَةِ شَرًّا مِنْ بِدْعَةِ أُولَئِكَ الْمُعْتَزِلَةِ وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ نَشَأَتَا مِنْ الْبَصْرَةِ»

«وَإِنَّمَا دِينُ اللَّهِ بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ طَرِيقُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرِ الْقُرُونِ وَأَفْضَلِ الْأُمَّةِ وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فَرَضِيَ عَنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ رِضاءً مُطْلَقًا إلى أن قال: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ؛ أُولَئِكَ أَصْحَابُ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...) -الشيخ الآن يبين، ما هو الصراط المستقيم؟ ما هو الحق؟ هو سبيل المتقدمين- وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا وَخَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾) وَقَدْ أَمَرَنَا سُبْحَانَهُ أَنْ نَقُولَ فِي صِلَاتِنَا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ) وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ وَالنَّصَارَى عَبَدُوا اللَّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ: (تَعَوَّذُوا بِاَللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ) وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فَأَخْبَرَ سبحانه أَنَّ هَؤُلَاءِ مُهْتَدُونَ مُفْلِحُونَ وَذَلِكَ خِلَافُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ» الشاهد: أن المؤلف ختم أن الصراط المستقيم أن الحق أن

الهدى: هو إتباع الصراط المستقيم وهذا الصراط هو المنهج الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم وسلكه أصحابه من بعده رضي الله عنهم، ولهذا قال ابن عباس: من كان مستنًا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر قلوبًا إلى آخر ما ذكر.

وفي الختام قال المؤلف: «فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَهْدِيَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ؛ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنِ والصديقين وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى خير خلقهِ عبدهِ ورسولهِ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إلى يوم الدين»

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر لهذا الإمام كبير القدر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وأن يرفع منزلته في أعلى عليين وأن يجمعنا به مع النبيين الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا، وختامًا أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتجاوز عن خطئنا وسهونا وألا يؤاخذنا بما فعلنا وما جانبنا فيه الصواب، كما نسأله سبحانه وتعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق والأقوال والأعمال لا يهدي لأحسنها إلا هو، وسبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

تمت بحمد الله